

سلسلة
عالم
الثقافة

5

بقلم

الأزرق بن علو

نفحات من الأدب العالمي

نفحات من الأدب العالمي

بقلم
الأزرق بن علُو

الناشر
دار قباء الحديثة
للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة

نفحات من الأدب العالمي





اسم الكتاب : نفحات من الأدب العالمي

اسم المؤلف : الأزرق بن علو

سنة النشر : 2008 م

رقم الإيداع : 21954 / 2007 م

الترقيم الدولي : 4 - 09 - 6240 - 977 - 978

الناشر

دار قباء الحديثة

للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة

E-Mail: modern_qubaa@hotmail.com

الإدارة : 16 عمارات العبور - شارع صلاح سالم
الدور الثالث - مدينة نصر - القاهرة

تليفاكس 02/22621365

محمول 0123140315 - 0123171722 - 0123171744

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

2008 م

رقم الصفحة

الموضوع

75	- مقتطفات من مواعظه
77	- مقتطفات من حكمه
81	** لي تاي - بو
83	- مقتطفات من شعره
* * * *	
87	** شاعران ومؤرخ من روما القديمة
89	** هوراس
94	- مقتطفات من شعره ورسائله
100	** أوفيد
102	- نبذة عن بعض مؤلفاته
105	- نفيه من روما
108	- اقتباسات من كتابه: رسائل الحب
112	- اقتباسات من كتابه: التحولات
114	** تاسيتوس
115	- اقتباسات من رسالته: جرمانيا
* * * *	
119	** رجل لاهوت، رجل دولة، وأديبان من إيطاليا
121	** القديس توما الأكويني
125	- نبذة عن كتابه: خلاصة اللاهوت
126	- اقتباسات من بعض آرائه حول السعادة، والحب، والملاذات
132	** مكيافيلي
139	- رأي مكولي (كاتب إنكليزي) في مكيافيلي

المحتويات

رقم الصفحة

الموضوع

13	** مقدمة
19	** نشأة المسرح في اليونان
23	** فرسان المسرح الأوائل في اليونان
25	** إسكلس
28	- نبذة عن ثلاث من مسرحياته
32	** سوفوكليز
35	- نبذة عن مسرحية: مأساة أوديب الملك
36	- اقتباس من مسرحية: أنتغون
40	** يوربديز
43	- نبذة عن مسرحيته: نساء طروادة
45	- اقتباس من أحد مشاهدتها
48	** أرسطوفان
49	- نبذة عن بعض مسرحياته
52	- اقتباس من إحدى مسرحياته
* * * *	
57	** حكيمان وشاعر من الصين والهند
59	** لاوتسي
61	- اقتباسات من كتابه: الطاو
68	** بوذا
73	- الحقائق النبيلة الأربعة

الموضوع	رقم الصفحة
- مقتطفات من كتابه: الأمير	142
** كامبانيا	146
- نبذة عن كتابه: مدينة الشمس	147
- اقتباسات من رسالته: الدفاع عن غاليلي	150
** بيرانديلو	154
- نبذة عن مسرحيته: الرجل، الحيوان، والفضيلة	156
- ملخص لقصته: الجرة	159
* * * *	
** حكايات ونصوص من الأدب الفرنسي	161
** لاروشفوكو	163
- باقة من عباراته في كتابه: الأمثال	169
** لأبروير	173
- مقتطفات من كتابه: أخلاق أو عادات هذا العصر	175
- مقتطفات من أقواله	176
** مدام دي ستايل	179
- مقتطفات من كتابيها: عن الأدب، وعن ألمانيا	183
** شاتوبريان	186
- اقتباسات من كتابه: حول الثورة الفرنسية	190
- اقتباسات من كتابه: مذكرات من وراء القبر	193
** ميريمي	196
- ملخص لثلاث من قصصه القصيرة	197
** فلوير	205
- ملخص لقصتين من قصصه القصيرة	207

الموضوع	رقم الصفحة
** إميل زولا	216
- نبذة عن بعض مشاهد روايته: جيرمنال	221
- ملخص لقصته: نانتاس	225
** ألفونز دودي	229
- ملخص لثلاث من قصصه القصيرة	231
** أناتول فرانس	235
- نبذة عن بعض مؤلفاته	237
- نبذة من روايته: الآلهة عطشى	238
** موبسان	242
- ملخص لخمس من قصصه القصيرة	245
** جون بول سارتر	255
- نبذة عن بعض مؤلفاته	259
- اقتباس من كتابه: الكلمات	260
- اقتباس من كتابه: حالات (Situations II)	262
- باقة من أقواله	264
* * * *	
** حكايات ونصوص من الأدب الإنكليزي	267
** بيكون	269
- اقتباس من مقال له حول "أسباب الفتنة ومعالجتها"	269
** إدورد غيبون	273
- نظرة خاطفة إلى كتابه: تاريخ تدهور الإمبراطورية الرومانية، وسقوطها	275
- نبذة من بعض الموضوعات في هذا الكتاب	276
- من أقواله	281

رقم الصفحة	الموضوع
283	** كولريدج
287	- ملخص لحكاية: الملاح العجوز
291	** دي كوينسي
293	- اقتباس من كتابه: اعترافات إنكليزي مدمن على الأفيون
295	- اقتباس من مقال له: أدب المعرفة وأدب القوة
298	** كارليل
299	- نبذة عن بعض مؤلفاته
301	- اقتباس من كتابه: الثورة الفرنسية
303	- باقة من أقواله
305	** جون راسكين
308	- مقتطفات من كتابه: Modern Painters
310	- اقتباس من كتابه: Time and Tide
312	** برنارد شو
315	- مقتطفات من مسرحية: رجل الأقدار
319	- نبذة عن أربع من مسرحياته
324	** كونراد
326	- نبذة عن اثنتين من رواياته
327	- باقة من أقواله
330	** برتراند راسل
333	- اقتباس من كتابه: صور من الذاكرة ومقالات أخرى
335	- اقتباس من مقال له: حول التعليم
* * * *	
339	*** باقة الختام

رقم الصفحة	الموضوع
341	** لونغفلو
341	- نصيحة زعيم أسطوري للهنود الحمر
342	- من أقواله
343	** ولت ويثمان
343	- من كتاباته
346	** إميلي دكنسون
346	- من كتاباتها
349	** تشيكوف
351	- حكاية البستاني، (ملخص)
355	- قصة: بدون عنوان، (ملخص)
358	** توماس مان
360	- نبذة عن روايته: تدهور أسرة بودنبروكس
361	- نبذة عن روايته: الجبل المسحور
362	- من أقواله
364	** هيرمان هاس
366	- اقتباسات من كتابه: الشيخوخة
368	- حكاية صينية (ملخص)
369	- اقتباس من مقاله: الحقيقة
371	** ليوبولد سيذار سنغور
372	- اقتباسات من بعض قصائده

على رأسه (وكان أصلع فظنه حجرة) سلحفاة ليكسر قوقعتها، فكان ذلك سبب وفاته.

ومن فرسان المسرح الأوائل الشاعر أرسطوفان، وتروي الأخبار أنه عندما طلب ملك سرقوصه من الفيلسوف أفلاطون أن يمدّه بتحليل عن دستور أثينا، أرسل إليه نسخة من إحدى مسرحيات هذا الشاعر. ومنهم الشاعر يوربديز الذي لقب بفيلسوف المسرح. ويروي أن سقراط كان لا يذهب إلى المسرح إلا بصحبته؛ وأن ملك مقدونيا، عندما علم بوفاته، قص شعر رأسه حزنا عليه. ومنهم الشاعر سوفوكليز الذي أضاف إلى ساحة المسرح ممثلا ثالثا لإنعاش الحوار بين الممثلين.

ويقدم الكتاب موجزا عن حياة الحكيم الصيني الشهير لاوتسي الذي عاش في القرن السادس قبل الميلاد، وأثرى ديوان الحياة بحكمه وآرائه. ويتناول الكتاب حياة الحكيم بوذا الذي شملت تعاليمه جماهير غفيرة في جميع أنحاء المعمورة، ويستعرض نبذة من تعاليمه وأقواله، ومنها مجموعة "الحقائق النبيلة" التي كان يرى أنها تخلص الإنسان من المعاناة في هذه الحياة.

وينتقل إلى الحديث عن شاعرين من شعراء روما القديمة، أحدهما أوفيد، شاعر الحب والغرام، الذي قضى معظم حياته في روما ينعم بالترف والرفاهية، ولكنه عانى من آلام الفراق عندما نفاه الإمبراطور أغسطس إلى قرية بعيدة موحشة على ضفاف البحر الأسود. كما يورد الكتاب ملخصا عن حياة أحد أقطاب العقيدة المسيحية، توما الأكويني، الذي حاول أن يوفق بين تعاليم عقيدته وبعض الأفكار الفلسفية.

مقدمة

يشتمل هذا الكتاب على خلاصات عن حياة واحد وأربعين من الأدباء والفلاسفة الذين عاشوا في قارات متباعدة، وظروف حضارية مختلفة، وأزمنة تمتد من القرن السادس قبل الميلاد إلى القرن العشرين. ويستعرض اقتباسات متنوعة الموضوعات مما سطره من نصوص أدبية وفلسفية، وملخصات من بعض ما كتبه من قصص وحكايات، ومقتطفات من مسرحيات، ونبذا من الأمثال والحكم والنصائح، وملاحظات تاريخية.

وقد تناول هؤلاء الأدباء موضوعات شتى، فكتبوا عن الحب، الثروة، القدر، الحظ، الطموح، القلق، وعن الحياة وتقلباتها، وآمال الناس والآلام، وملذات الروح والجسد، ومباهج الدنيا وبؤسها. وحدثونا عن أيام سعدهم ونحسهم، وشبابهم وشيخوختهم، وعن أسرهم ومجتمعاتهم، وذاقوا مثلنا لذة النجاح والانتصار، ورغد الحياة ورخاءها، وإقبالها وإدبارها، وسجلوا لنا سير الأبطال والقبائل والأمم لنجد فيها قدوة صالحة وعبرة.

يبدأ الكتاب الحديث بإيجاز عن تطور المسرح، وفرسان المسرحية الأوائل في بلاد اليونان قديما. ومن هؤلاء الشعراء إسكلس الذي أضاف إلى ساحة المسرح ممثلا ثانيا، بعد أن كان لا يضم سوى جوقة الموسيقى والإنشاد وممثلا واحدا. ومما يروي عن حياة هذا الشاعر الكبير أنه بينما كان ذات يوم يتجول في الخلاء، ألقى نسر

لقد كتب الكثير حول حياة رجل الدولة مكيافيلي، وحول ما سجل في كتابه "الأمير" من نصائح للأمرء والملوك وذوي السلطة، وما زال البعض يتساءلون: هل كان مكيافيلي رجلاً شريراً، بغياً حقا؟ أم أنه رجل وطني شجاع سجل كثيرا من الأفكار التي لم يجرأ غيره على تدوينها، وسعى إلى خدمة بلاده، إيطاليا، وتوحيد صفوفها.

ونقرأ عن الفيلسوف كمبانيلا الذي ألف أهم كتبه في السجن، ومنها كتابه "مدينة الشمس" الذي تخيل مجتمعا مثاليا، يشترك فيه السكان في جميع نشاطات الحياة وخيراتها، ويعيشون سعداء في ظل "العدالة الاجتماعية". ويستعرض الكتاب حياة فارس آخر غامر في جميع ميادين الحياة، وهو لاروشفوكو، واشتهر بكتابه "الأمثال".

ويتناول الكتاب حياة الكاتبة الفرنسية مدام دي ستايل، التي اشتهرت بتعدد عشاقها، وبصالونها الذي كان يلتقي فيه جماعة من المعارضين لسياسات نابليون؛ ويقدم نبذة عن حياة الأديب إميل زولا، وملخصاً عن روايته الشهيرة "جيرمانال"، هذا الأديب الذي لقي حتفه اختناقاً في غرفة نومه، بسبب انتشار ثاني أكسيد الكربون.

ومن جملة من يرد ذكرهم في الكتاب الأديب ألفونز دودي الذي اشتهر بقصصه القصيرة؛ والأديب موبسان الذي عانى لسوء حظه من داء الزهري، ومن الشلل والجنون، وحاول الانتحار. ومنهم فيلسوفان ذاع صيتهما في القرن العشرين، واتفقت آراؤهما حول بعض القضايا الدولية الهامة مثل معارضة الحروب الاستعمارية، وأسلحة الدمار الشامل. ومنهما من فرضت عليه غرامة، وألقي في السجن، وطرد من وظيفته، ووضعت متفجرات في منزله، لإسكاته والحد من نشاطه. هذان

الفيلسوفان هما جون بول سارتر، وبرتراند راسل؛ وقد نال كل منهما جائزة نوبل.

ومن الكتاب الذين يحدثنا عنهم الكتاب المؤرخ الإنكليزي إدورد غيبون، ويورد مقتطفات من كتابه حول "تدهور الإمبراطورية الرومانية وسقوطها"؛ ومنهم دي كوينسى صاحب كتاب "آكلى الأفيون" الذي يصف فيه آلامهم النفسية والجسدية؛ والأديب كارليل، مع اقتباسات من كتاباته.

ويسترسل الكتاب في عرض ملخصات من مؤلفات عدد آخر من الأدباء، ونبذ عن حياتهم، ومنهم الأديب الإنكليزي برنارد شو، والأديب الروسي تشيكوف، والأمريكي لونغفلو، والألماني توماس مان، والسنغالي ليوبولد سنغور، وغيرهم.

أرجو أن يجد القارئ في هذا الكتاب ما يثري الفكر، وينعش النفس، ويشحذ الخيال، ويحفز على مطالعة أخبار السابقين وآدابهم ليستفيد من معارفهم وتجاربهم.

الأزرق بن علو

نقحات من الأدب العالمي

نشأة المسرح في بلاد اليونان



نشأة المسرح في اليونان

من المفيد، قبل الحديث عن فرسان المسرحية التراجيدية في بلاد الإغريق، أن نلقي نظرة خاطفة على حالة المسرح وظروف نشأته وازدهاره في تلك البلاد.

تعود نشأة المسرح في بلاد الإغريق (اليونان) إلى الاحتفالات التي كانت تقام في الأعياد الدينية، وما كان يمارس أثناءها من طقوس عقائدية وممارسات شعبية، لتمجيد الآلهة، وتقديم القرابين لها، على ما وهبتهم من خيرات الطبيعة، أو لطلب المزيد من هذه النعم، إن بخلت الآلهة بهباتها، أو ليطلبوا منها أن تجنبهم الكوارث والأوبئة والحروب، إلى غير ذلك.

واشتهر الإله ديونيسوس Dionysus الذي كانت له (في اعتقادهم) علاقة بالخصوبة والجنس والفن والخمر. وكانت أكبر الأعياد والاحتفالات تقام في فصل الربيع، الفصل الذي تنتعش فيه الأرض وتظهر خصوبتها.

وكلمة Theatre (مسرح) من اللغة اليونانية، وتعني «مكان المشاهدة»، لأن الحفلات كانت تقام في أماكن تمكن الجمهور من مشاهدة الفرق التي تترتل، تنشد، ترقص، وتدق على الطبول، وتقص الحكايات وغير ذلك. وكانت تجهيزات هذه الفرق متواضعة، في بداية الأمر، ثم أخذ المسرح، تدريجياً يأخذ شكل مدرج أمامه ساحة

ومنصة، وخلف هذه بيوت يغير فيها الممثلون وأصحاب جوقة المنشدين ملابسهم. وكانت المسارح مكشوفة لضوء النهار، لأن المسرحيات (الحفلات الدينية) كانت تجرى في النهار. وقد يلجأ أصحاب الشأن إلى بناء تجهيزات خشبية لإقامة هذه الاحتفالات، غير أن المسرح الحجري لم يبن إلا سنة 330 ق.م، في عهد الزعيم اليوناني لكورغس Lycurgus. وكان موقع هذا المسرح بالقرب من ربوة الأكروبوليس في أثينا.

وتعني كلمة Drama (المسرحية): «الحركة، وأن عملاً يجرى إنجازاً». وهي تشمل مسرحية المأساة tragedy، ومسرحية الملهاة Comedy، ومسرحية الهجاء والانتقاد Satire. وقد نشأت كلمة Tragedy من الكلمة اليونانية Tragos التي تعني «العنزة». وسميت المسرحية المأسوية Tragedy لأنها نشأت عن الأناشيد التي كان الناس ينشدونها عند التضحية بعنزة قرباناً للآلهة. وقد كانت العلاقة وثيقة بين طقوس تقديم القرابين للآلهة، وبين حفلات المسرح، لأن هذا الأخير كان قديماً يعتبر مكاناً مقدساً مثل المعبد.

وكانت المسرحية، أثناء الاحتفالات الدينية، تسمح للإنسان بأن يخلق في عالم الخيال والأساطير، وأن يخلق صلات وثيقة بين العالم المرئي وعوالم القوى الخفية، وعوالم القوى السحرية اللامرئية، وتساعد على مواجهة الآلهة التي يعتقد أنها تتحكم في مصائر البشر وتسير أقدارهم، بل كان أحياناً يتمرد على هذه الآلهة وينتقد قسوتها. وكان الإنسان يجد متعة في مشاهدة تلك المسرحيات، لأنها بأساطيرها الغريبة وخرافاتها العجيبة، توضح له كيف تتفاعل تلك القوى الخفية لتؤثر على حياته بالنعم والخيرات، أو بالشرور والنكبات.

وهكذا كان نشاط المسرحية في البداية يتمثل في مجموعة من التراتيل، والتعليقات، والأناشيد، والموسيقى والرقص ... وكانت الجوقة تلعب دوراً أساسياً في إنجاز هذه النشاطات. ويروى أن شاعراً يونانياً اسمه Thespis، من مدينة أتيكا، عاش في القرن السادس ق.م، كان أول من أضاف إلى جوقة المنشدین رجلاً (ممثلاً) يعلق على أناشيدها؛ ويعتبر هذا الشاعر أول ممثل على المسرح لأنه قام بدور ديونيسوس، إله الخصب.

أما الموضوعات التي كانت تعالجها المسرحية الإغريقية، في أول عهدها وبعد ازدهارها، فتتعلق، كما سبق، بالعقائد والأساطير والتقاليد .. وكان الكتاب والشعراء يستوحون أفكارهم من الصراعات القائمة بين قوى الخير وقوى الشر، وسعي الإنسان لإرضاء الأولى، والنجاة من الأخيرة.

وتتناول المسرحية المأسوية كذلك صراع الإنسان ضد الآلهة، وطغيان الأقدار، وضعف البشر أمام المصير المحتوم، وتمردهم أحياناً على آلهتهم بسبب ما تسلطه عليهم من معاناة ونكبات. ويستمد كاتب المأساة مادته من قصص الأبطال وحروبهم، ومن تجارب السابقين. ويستغل خياله وذكائه لاستخدام قوى الطبيعة، وأسرار القوى الخفية... ويستفيد من كل ذلك لإنتاج مسرحية تحلل تقلبات الحياة ومفاجأتها ومآسيها، وتنتقد سلوك الناس وعدوانهم، وعدم تقديرهم للعواقب والمصير الذي ينتظرهم. وقد تلجأ المسرحية كذلك إلى الدفاع عن الآلهة، والذود عن طقوسها، أو إلى انتقاد مساوئها وطغيانها.

ويروى أن رجلاً اسمه Pisistrate نظم، عام 538 ق.م، مسابقات

بين المسرحيات التي تعرض أثناء الاحتفال بأعياد الإله ديونيسوس. وقد حقق الإغريق في ذلك العهد القديم إنتاجاً عظيماً، سواء في ميدان المأساة التي تعالج ما يلاقيه الناس من آلام وشقاء وكوارث وموت... أو في الكوميديا التي تتناول الجوانب البهيجة من حياتهم؛ وكذلك في إنتاج المسرحية الهجائية.

ويمثل القرن الخامس ق.م عصر المسرحية الذهبية، اشتهر فيه بوجه خاص ثلاثة فرسان من شعراء المسرحية التراجيدية، وهم على التوالي:

- إسكليس	AESCHYLUS
- سوفوكليس	SOPHOCLES
- يوربديز	EURIPIDES

ولم يبق من جميع ما ألفه هؤلاء العباقرة الثلاثة من مسرحيات سوى نيّف وثلاثين مسرحية تراجيدية. وقد لمع إلى جانبهم اسم فارس آخر اشتهر خاصة بمسرحياته الهزلية الساخرة (المسلاة)، هذا الشاعر العظيم هو أرسطوفان Aristophanes. وقد ألهمت مسرحيات هؤلاء العباقرة منذ نحو خمسة وعشرين قرناً، وما زالت تلهم، الأدباء عبر العالم. ولا تقل سمعتهم في عصرهم، عن سمعة شكسبير، الذي قيل عنه إنه شاعر لجميع العصور ولجميع الناس. ولكن لأولئك الفرسان الفضل الأكبر لأنهم سبقوه بنحو عشرين قرناً.

نقحات من الأدب العالمي

فرسان المسرح
الأوائل في اليونان



إسكلس AESCHYLUS

ولد إسكلس في حيّ إليوسيز ELEUSIS، بضاحية أثينا، عام 525 ق.م. كان أبوه يوفوريون ينتمي إلى أسرة من النبلاء. ويروى أن الشاعر إسكلس شارك في المعارك التي خاضها اليونان ضد الفرس، ومنها معركة مرثون عام 490 ق.م. وشهداها معه أخواه؛ ومعركة أرتميزيوم، ومعركة سلاميس، وبلاطيا. وقد شهد له القوم بحسن البلاء في الحرب ضد الفرس.

ألف إسكلس مسرحيته الأولى وسنه لا يتجاوز ستة وعشرين سنة. وحصل على أول جائزة في المسرح عام 484. وعرض مسرحيته التي تحمل عنوان "الفرس" عام 472، فحقق بها نجاحاً كبيراً، وأحرز بها الجائزة الأولى في المسرح الديونيسي⁽¹⁾، وقد وصف فيها المذابح التي سببتها الحروب بين الفرس واليونان، وكيف نجح قومه في التغلب على أعدائهم.

زار الشاعر إسكلس سرقوسة (صقلية) استجابة لدعوة من ملكها هيرون الأول، واستقبل في البلاط بحفاوة بالغة، وعرض مسرحيته "الفرس" في مدينة سرقوسة. وعندما دمر بركان إتنا (ETNA) مدينة سرقوسة، وأعاد الملك بناءها، عرض الشاعر مسرحيته "نساء إتنا" بمناسبة تدشين المدينة.

(1) نسبة إلى الإله ديونيسوس.

وبعد النجاح الذي حققته مسرحيته التاريخية "الفرس" وإقامته فترة في صقلية، عاد الشاعر إلى أثينا. وقد ذكرت أسباب عديدة عن مغادرته أثينا، منها غيرته من الشاعر الناشئ، ومنافسه سفوكليس الذي نال شهرة كبيرة، وانتزع من إسكلس الجائزة الأولى للمسرحية التراجيدية في مسابقات الاحتفالات الديونيسية.⁽¹⁾ وقيل إنه غادر أثينا بعد أن خسر مسابقة أمام الأديب Simonides حول تأليف نشيد لتخليد ذكرى الأبطال الذين قتلوا في معركة مرثون ضد الفرس. وبعد عودته إلى أثينا ألف مسرحيته "السبعة ضد طيبة" فأعاد بها شهرته كما كانت من قبل.

ألف الشاعر نحو تسعين مسرحية (وقيل سبعين)، ولكن ضاع معظمها، فلم يبق منها سوى سبع مسرحيات⁽²⁾. وحصل على اثنتي عشرة جائزة (وقيل أكثر من ذلك) من الجوائز التي تنال في احتفالات أعياد ديونيسوس. ويرى الفيلسوف أرسطو أن إسكلس هو مؤسس التراجيديا الإغريقية، لأن من مساهماته الهامة في هذا المجال أنه أضاف إلى المسرح ممثلاً ثانياً، بعد أن كان يعتمد على ممثل واحد، بالإضافة إلى جوقة الإنشاد والموسيقى⁽³⁾. وبوجود ممثلين على خشبة المسرح، أصبح الحوار جزءاً هاماً في المسرحية. كما قلل إسكلس من أهمية دور الجوقة والمنشدين، وجعلها خاضعة للممثلين بدلاً من تحكمها في أدوارهم. كما غير من محتوى التراتيل

(1) نسبة إلى الإله ديونيسوس.

(2) كانت المسرحية أقصر مما صارت فيما بعد.

(3) كانت الجوقة في أول نشأة المسرح تلعب الدور الرئيسي في المسرحية بما تقدمه من تراتيل،

وأناشيد وموسيقى ورقص وغير ذلك مما يرتبط بموضوع المسرحية..

الدينية لتصبح جزءاً من موضوع المسرحية. غير أن بعض القدماء يرون أن الشاعر Thespis⁽¹⁾، وليس إسكلس، هو الذي أضفى على المسرحية التراجيدية صفتها الأساسية عندما أدخل إلى المسرح ممثلاً يجيب على تعليقات قائد الجوقة.

وفي عام 456 ق.م. عاد إسكلس إلى صقلية حيث وافته المنية في السنة نفسها، في مدينة جيل، ودفن فيها. وهناك أسطورة تقول بأن نسرًا كان يحلق حاملاً سلحفاة بين مخالبه، فشاهد رأس إسكلس، وكان أصلع، فظنه حجرة، فألقى عليه السلحفاة ليكسرها، فقتله.

وقد نقش على نصب تذكاري فوق قبر الشاعر النص التالي الذي أعده الشاعر للمناسبة:

« يوارى هذا القبر جثمان إسكلس الأثيني ابن
يوفوريون. اسألوا ضواحي مرثون عن بلائه في الحرب، ويعرف
ملك الفرس Mede ذلك جيداً. »

وبعد وفاته أصدرت سلطات أثينا مرسوماً يقضي بأن تعرض مسرحيات إسكلس على نفقة الحكومة. وأصبح قبره قبلة للزائرين. وكان للشاعر ولدان اشتهرا كذلك بكتابة المسرحيات. وأحرز أحدهما، واسمه يوفوريون، أربع جوائز بعرض مسرحيات أبيه بعد وفاته. كما حصل على الجائزة الأولى بعرض مسرحية من تأليفه، وحدث هذا على الرغم من أن اثنين من فرسان التراجيديا، هما سفوكليز ويوربديز، شاركا في المسابقة.

(1) سبقت الإشارة إليه في معرض الحديث عن المسرح.

وخلال الثلاثينيات من القرن الرابع ق.م، وعلى إثر طلب تقدم به خطيب يوناني شهير اسمه Lycurgus، نصبت ثلاثة تماثيل برونزية داخل مسرح الإله ديونيسوس في أثينا، لتخليد ذكرى فرسان المسرحية التراجيدية الثلاثة: إسكلس، سفوكليز ويوربديز.

ومن المسرحيات التراجيدية التي ألفها إسكلس، وكتب لها البقاء كاملة:

- برومثيوس المقيّد⁽¹⁾ Prometheus Bound، وفيها يتخيل الكاتب كيف أن هذا البطل سرق النار من السماء، وقدمها للبشر، وعلمهم كيف يستغلون الفنون. وأثار غضب الآلهة؛ فأمر زيوس Zeus، كبير آلهة اليونان، بأن يقيد برومثيوس إلى صخرة في جبال القوقاز ليدوق هناك أشد العذاب ...

وفي النهاية يأتي هيركول وينقذه.

- أريستس Orestes، وتعد من أطول مسرحياته وأروعها. وتتألف من ثلاث حكايات هي:

(1) حكاية أغممنون AGAMEMNON

(2) حكاية كيوفري CHOEPHORES

(3) حكاية يومنيدس EUMENIDES

(1) برومثيوس، في الأساطير اليونانية، هو ابن titan، أحد أفراد أسرة الجبابرة الذين حكموا العالم قبل آلهة أولبيا.

أوريستس ابن أغممنون وكلاتمنسترا CLYTEMNESTRA. تأمرت هذه الأخيرة مع عشيقها على قتل زوجها أغممنون. ترعرع الفتى في رعاية عمه، ونشأت صداقة متينة بينه وبين ابن عمه PYLADES. ولما بلغ أوريستس سن الرجولة انتقم لأبيه بقتل أمه وعشيقها. ولتحرير ضميره من هذا الإثم توجه إلى معبد الوحي في دلفي، فطلب منه أن يجلب إلى اليونان تمثال أرتميس (1) ARTEMIS من مكان في الساحل الجنوبي لشبه جزيرة القرم. وتستمر مغامرات أريستس بمساعدة ابن عمه PYLADES. ويحلل الشاعر إسكلس في هذه المسألة كيف تلاحق الأقدار الإنسان لتورطه في متاهات الشقاء والمعاناة.

- السبعة ضد طيبة Thebes : The Seven against Thebes

ETEOCLES ابن أوديب وجوكاستا، وله أخ يدعى POLYNEICES. بعد أن مات أبوهما اتفق الأخوان على أن يتولى الحكم في طيبة كل منهما لمدة سنة بالتناوب. غير أن الأول رفض أن يتخلى عن الحكم عندما انتهت مدته. جاء أخوه بجيش يقوده سبعة فرسان، وذلك بمساعدة ملك أرغوس ARGOS، وهجموا على مدينة طيبة. غير أن المعركة لم تحدد انتصار جيش على الآخر، فقرر الأخوان أن يتبارزا. وكانت نتيجة المباراة أن قتل كل من الأخوين الأخ الآخر.

وفيما يلي اقتباس وجيز لحوار بين أختي القتيلين، Antigone وISMENE تدبان سوء المصير والنهاية المفجعة.

(1) أرتميس، ابنة الإله زيوس، كانت تعتبر إلهة العذارى، وهي تعرف باسم ديانا عند الرومان.

أنتغون - القاتل مقتول!

إسمين - والذابح مذبوح!

أنتغون - الدماء تسيل على الرمح!

إسمين - الدماء تلتخ صدرك!

أنتغون - إبكى على الضيم والضلال!

إسمين - اندبى الفاجعة الأليمة!

أنتغون - فليكن الحزن نشيدك!

إسمين - اسكبي الدموع!

الأختان معاً - يا للشقاء، يا للبلاء!

أنتغون - يا للقلب المجنون!

إسمين - يا للقلب الجريح!

أنتغون - انهمرت جميع دموعك!

إسمين - وأنت يا أشقى الأشقياء!

أنتغون - يا من قتلتك يمينك!

إسمين - وهذه اليد التي سفكت دمها!

أنتغون - إنها لقصة حزينة حكيت مرتين!

إسمين - مشهد مرعب يشاهد مرتين!

أنتغون - فجيجة تعانق أختها!

إسمين - أخوان قتيلان - .. دماؤهما تتعانق!

الجوقة - أيها القدر القاسي! ما أوجع ضربتك! وما أتعس هداياك لنا! ولكننا نعترف بأنك جبار لا تقهر.

أنتغون - إن هدية الحزن لا تسر الناظرين.

إسمين - أيها القدر التعس، أهذا ما جلبت لنا من المنفى؟

أنتغون - قاتل قتل، وهو ناءٍ عن منزله.

إسمين - أهذا هو الهدف؟ أن يتحطم في المباراة؟ ويصبح جثة هامة.

الجوقة - أيها القدر القاسي! ضربتك موجعة .. هديتك محزنة...

أنتغون - اندبى الفاجعة!

إسمين - الويل لي! يا للشقاء! الهلاك يترصده!

أنتغون - أين سندفنهما؟

إسمين - في المكان الذي يسبغ عليهما أعظم الشرف.

الأختان - سيضطجعان إلى جانب أبيهما.

سوفوكليز

SOPHOCLES

كان سوفوكليز وسيم المحيا، قوي البنية، معتدل القوام، هادئ الطبع، عبقرياً، محبوباً لدى الجمهور، ماهراً في الموسيقى والرياضة، مثابراً في عمله، غزيراً إنتاجه، مديداً عمره، موسراً في ثروته .. وكان شاعر أثينا المفضل. لقد حالفه الحظ، وبلغه عصره (رضيت عنه الآلهة).

ولد سوفوكليز عام 496 ق.م، في كولونا (بالقرب من أثينا). وكان أبوه سوفوكليز يصنع الأسلحة، وهي حرفة مربحة في زمن الحرب، فجمع ثروة كبيرة، ونشأ الغلام في بيئة موسرة، وسط أسرة ذات مركز مرموق.

وقع على سوفوكليز الاختيار، وعمره لا يتجاوز ست عشرة سنة، ليقود جوقة الشباب التي كانت تعزف الأنغام وتشد الأناشيد أثناء الاحتفالات بمناسبة انتصار أثينا على الفرس في معركة سلاميس. ونال، وهو لا يزال في المدرسة جوائز في المبارات الرياضية وفي الموسيقى. كما أحرز الجائزة الأولى في منافسات المسرحيات التراجيدية، في الاحتفالات الدينية الهامة، وعمره لا يتجاوز سبعة وعشرين سنة.

وقد احتل الشاعر مركزاً اجتماعياً وإدارياً وعسكرياً مرموقاً،

يذكر من ذلك أنه عين أميناً لإدارة أموال الضرائب التي كانت تحصل عليها إمبراطورية أثينا من الولايات الخاضعة لسلطتها؛ كما انتخب ليكون أحد الجنرالات العشرة في القوات المسلحة. وكان الزعيم اليوناني الشهير بركليز⁽¹⁾ من المعجبين به، وجعله من المقربين، وعينه ليكون أحد قواد الحملة التي وجهها إلى ساموس⁽²⁾ سنة 440 ق.م. وأوكل إليه مسؤوليات أخرى هامة.

وفي سنة 441 تولى سوفوكليز مهام قس في معبد إحدى الفرق الدينية، معبد الإله AMYNOS الذي اشتهر بشفاء المرضى. وبعد أن منيت أثينا بهزيمة منكرة في حربها ضد سبارطة (في صقلية) عين سوفوكليز، وقد بلغ 83 سنة من العمر، أحد العشرة الكبار الذين أوكلت إليهم صلاحيات تنظيم الأوضاع الاجتماعية وإصلاح الوضع المالي في أثينا. وهكذا يبدو مما ذكر أن الشاعر واكب، أثناء حياته المديدة، أحداثاً عظيمة حققت أثناءها أثينا انتصارات وازدهاراً كبيراً، كما منيت بهزائم مريرة ومدمرة.

أما ما يتعلق بدوره في الإنتاج المسرحي فقد صعد بالفرن التراجيدي إلى قمة عالية لا يجاريه فيها إلا منافسه ومعاصره، ثالث فرسان هذا النوع من المسرحية، يوربديز. وفي البداية أضاف سوفوكليز

(1) بركليز Perycles، 429-495، زعيم يوناني شهير، عمل على دعم الديمقراطية وتوحيد البلاد وتنشيط التجارة وتقوية الأسطول... ازدهرت في عهده الفنون والعلوم والاقتصاد، وأصبحت أثينا أعظم عاصمة في اليونان. ولكنه، في آخر عهده، خاض حرباً ضروساً مدمرة ضد أسبرطة فأضعف ذلك ثقة الشعب بزعيمهم العظيم.

(2) ساموس samos جزيرة يونانية في بحر إيجه.

ممثلاً ثالثاً إلى المسرح، وكان يصعد على خشبة المسرح، قبل سوفوكليز، أعضاء جوقة المنشدين وممثلان فقط. كما عمل هذا الشاعر على تقليل دور الجوقة، وبذلك أفسح مجالاً أوسع للحوار، وزاد في أهمية الموضوع الذي تعالجه المسرحية. وقام نفسه بتمثيل أدوار في عدد من مسرحياته.

ألف سوفوكليز عدداً من المسرحيات أكبر من صاحبيه، وأحرز عدداً من الجوائز يفوق ما حصل عليه منافسَاهُ معاً. فقد حصل على 24 جائزة، ونال إسكس 13 جائزة، وأحرز الشاعر البار يوربديز 5 جوائز فقط. وجعل أرسطو مستوى مسرحيات سوفوكليز فوق مستوى مسرحيات منافسيه.

وإذا نظرنا إلى موضوع مسرحيات سوفوكليز نجد أنها تتضمن عناصر إنسانية أعمق مما تناولته مسرحيات إسكس. وكانت تختلف عن مسرحيات منافسه الآخر، يوربديز، لكونها تهتم بسلوك الإنسان كما ينبغي أن يكون، بينما يصور لنا يوربديز سلوك الناس كما هم عليه في وقائع حياتهم اليومية.

ويبدو من ملاحظات أهل الاختصاص أن مسرحيات سوفوكليز كانت تمتاز بدقة الوصف وعمق التحليل لطباع البشر ومصائرهم.

ويمكن القول، بصفة عامة، أن التراجيديا، عند هؤلاء الفرسان الثلاثة، كانت تتناول حياة بطل أو شخصية مشهورة وتحلل حوادثها لتبرز ما في شخصيته من ضعف أو جبروت، وما في تصرفاته من أخطاء فادحة، وعدم احترام لأوامر الآلهة وقوانين الطبيعة وتقاليد البلاد والأجداد... مما يؤدي إلى صراع بين هذه القوى الغاضبة،

ظاهرة كانت أم خفية، وبين الإنسان الذي يتمرد على الأقدار الغاشمة، ويكافح من أجل التخلص من قبضتها. وكثيراً ما تكون الغلبة لتلك القوى فتدفع الإنسان إلى مصير مشؤوم ومحتوم. ومن الأمثلة على هذا ما سنلاحظه في مأساتين شهيرتين من مسرحيات سوفوكليز: أوديب الملك؛ وأنتغون Antigone.

وعلى خلاف صاحبيه، إسكس ويوربديز، لم يزر ملوكاً ولم يستقر في بلدات خارج مسقط رأسه. وقد وافته المنية وسنه تسعون عاماً، سنة 406 ق.م، ودفن في مدينة أثينا، حيث قضى حياته.

ألف سوفوكليز، أثناء حياته المديدة عدداً يزيد على مائة وعشرين مسرحية، كتب البقاء لسبع منها فقط. ومن هذه المسرحيات: أجاكس Ajax؛ إلكترا Electra؛ والمرأة التراقينية Trachiniae؛ وأنتغون Antigone؛ وأوديب الملك Oedipus The King؛ وآخر مسرحياته هي: أوديب في كولونا.

وفيما يلي نظرة خاطفة عن مسرحيتي أوديب الملك؛ وأنتغون، وهما من نوع التراجيديا.

★★ مسرحية مأساة أوديب الملك

حكاية أوديب الملك أشهر من نار على علم. ومفادها أن ليوس، ملك طيبة (وأبو أوديب) علم من مهبط الوحي أن نهايته ستكون على يد ولده، وكان الابن صغيراً، فأمر الملك بأن يؤخذ بعيداً ويقتل. فأخذه من كلف بقتله وربطه معلقاً في شجرة. وحدث أن مرَّ أحد الرعاة وأنقذه. ترعرع الطفل وبلغ سن الرجولة.

وبينما كان مسافراً ذات يوم، لقي رجلاً تحداه فقتله؛ وفي طريقه

إلى مدينة طيبة قتل وحشا كان يروع سكان المدينة، وساعده ذلك على أن يتوج ملكاً على طيبة ويتزوج بالملكة الأرملة، فأنجب منها ولدين وابنتين، إحدى البنيتين تدعى أنتغون، عنوان المسرحية. وكم كان رعبه وحسرتة عندما اكتشف أن الرجل الذي قتله في طريقه إنما هو أبوه الملك، وأن المرأة التي تزوجها هي أمه جوكاستا ... انتحرت أمه، وفقاً لأوديب عينيه، ورافقته ابنته أنتغون إلى مدينة كولونا (في أوتيكا) حيث بقي ينتظر الموت ليربحه من مصيره المشؤوم.

ومغزى المأساة أن رجلاً (طفلاً) بريئاً دفعته الأقدار إلى الهلاك، ولكنه نجا من الموت، ثم قادته دون علمه إلى ارتكاب جرائم أدت في النهاية إلى شقائه.

★★ مسرحية مأساة أنتغون Antigone

نشب نزاع بين أخوي أنتغون فقتل أحدهما الآخر. فمنعها كريون، Creon، ملك طيبة من دفن أخيها. فعزمت على أن تدفنه ليلاً، لأن في دفن القتل تنفيذ الطقوس الإلهية. ووقف الناس إلى جانبها، وإن كان ذلك مخالفاً لأوامر الملك.

وعندما علم الملك بما فعلت أمر أن تدفن حيّة. وكانت أنتغون خطيبة ابن الملك نفسه، وكان يحبها حباً شديداً. ولكن الفتاة انتحرت قبل أن ينفذ فيها حكم الملك. ولحق بها ابن الملك، واسمه هايمون، فانتحر على قبرها.

ويمثل المشهد التالي حواراً دار بين الملك كريون وابنه هايمون. وفيه يتمسك الملك بصحة قراره بمعاينة أنتغون لعصيانها وتحديها

الأوامر؛ ويرى ابنه هايمون بأن الملك نفسه قد يخطئ في بعض قراراته وأحكامه.

- كريون (الملك): أي بني، لقد سمعت حكمي النهائي على تلك الفتاة، فهل أتيت لتعبر عن احترامك لي، أم لتظهر ما في نفسك من بغض؟

- هايمون (الابن): أنا ابنك، وأنت مرشدي. أوضح لي الأمور وأنا طوع أمرك. فما من زواج في الدنيا كلها أفضله على ما في أرائك من حكمة.

- كريون: حسنًا، هذا هو السلوك السليم. اجعل كل شيء موافقًا لإرادة أبيك. لا تفقد صوابك بسبب هذه المرأة ... إنها الوحيدة التي عصت أوامري بين جميع سكان المدينة. وهل تريد لأبيك الملك أن يبدو ضعيفًا أمام الناس؟ أم تريدني أن أخالف قسمي؟ كلا! فالفتاة ستموت!

ولعلها ستستنجد بالأوصار العائلية. ولكن إذا سمحت لأفراد أسرتي أن يتمردوا على أوامري، فكيف أكسب طاعة السكان؟ لا، لا أشفق على من يخالف القانون، ومن ينتقد السلطة ... إنها الفوضى، الفوضى التي تحطم الأسر، وتهدم المدن، وتهزم الجيوش. أي بني، لا تسمح لامرأة أن تغرينا وتخدعنا. وإذا كان لا بد أن نخسر، فلتكن خسارتنا أمام رجل.

- هايمون: أبي، إن العقل أسمى هدية من الله للإنسان، وأنت

على حق عندما تحذرني من فقدان عقلي. ولكنك لا تعرف كل ما يقوله الناس، وما يفعلون. فكل رجل يقول لك ما يرضيك لأنهم يخشون غضبك. ولقد سمعت بعضهم يهمسون في الظلام ويقولون إنه لا توجد امرأة قتلت قتلة مخزية كهذه، لمجرد أنها أنجزت عملاً أخلاقياً كريماً عندما دفنت جثمان أخيها حتى لا تنهش لحمه الكلاب والنسور. فهل هذا عمل إجرامي تعاقب عليه بالموت؟! صدقني يا أبي، لا شيء أحب إلى قلبي أكثر من سعادتك ... ولكن لا تظن أنك وحدك تملك معرفة الحق والصواب. فالرجل الذي يملك القوة فيظن أنه وحده يقول الحق، ووحده يملك موهبة الكلام السليم، إن رجلاً كهذا، عندما تختبر أغواره وتطلع على دخيلته تجد أنه فارغ من كل شيء. فليس من العقل ألا نخضع لحكم العقل، وسلطان الحق.

- كريون: هل ترى من الصواب أن تدافع عن شخص فوضوي؟

- هايمون: كلا! إنني لا احترم المجرمين.

- كريون: أوليست أنتغون مجرمة؟

- هايمون: جميع سكان المدينة لا يرون أنها مجرمة.

- كريون: وهل يظن هؤلاء الناس أنهم يعلمونني كيف أحكم المدينة؟

يوربديز

EURIPIDES

وصف بحق بأنه فيلسوف المسرح في زمانه. وهو ثالث أبطال المسرحية التراجيدية في القرن الخامس قبل الميلاد، في اليونان. كان عميق المشاعر والإحساس، متشككا، متشائماً، يتجنب التجمعات ويفضل العزلة. لا يهزه المرح، بل تغلب الكآبة على طبعه. وقيل عنه إنه لا يجاربه في ميدان المسرحية التراجيدية سوى شكسبير.

ولد يوربديز سنة 480 ق.م (تقريباً)، في جزيرة سلاميس، في الفترة التي وقعت فيها معركة SALAMIS الشهيرة التي حقق فيها اليونانيون انتصاراً حاسماً ضد الفرس. كان أبوه تاجراً موسراً، وتنتمي أمه إلى أسرة عريقة. على الرغم من أن بعض منافسيه تحدثوا عنه بإشاعات لا علاقة لها بحياته وأسرته، فأشاعوا على سبيل المثال أن أمه كانت تعمل في سوق الخضر.

ويروى أنه كانت توكلُ إليه، وهو شاب صغير، خدمات اجتماعية كأن يصب الخمر للراقصات في الحفلات الدينية، ويحمل المشاعل. وهي خدمات لا توكل لمن لا يتمتع بسمعة طيبة، ولا ينتمي إلى أسرة لها مركز اجتماعي محترم. وقد أراد له أبوه أن يحترف مهنة الرياضة، غير أن الفتى انتقل من ممارسة الملاكمة إلى الرسم.

بدأ يوربديز يؤلف مسرحياته ولم يتجاوز الثامنة عشرة من

- هايمون: إنها ليست مدينة إذا كانت لا تسمع إلا لصوت واحد.

- كريون: إن الدولة هي الملك!

- هايمون: أجل، إذا كانت الدولة صحراء قاحلة.

- كريون: إنك تقحم نفسك في شجار شعبي ضد أبيك!

- هايمون: وأنت يا أبي تصدر حكماً لا يرضى العدالة.

- كريون: لا يرضى العدالة؟! وأنا لا أفعل إلا ما يدخل في نطاق صلاحيات الملك!

- هايمون: ليس من صلاحيات الملك أن يدوس القوانين الإلهية.

- كريون: أحمق! شاب أحمق خدعته أقوال امرأة!

- هايمون: لم أنخدع، ولن أنخدع بأي شيء حقير.

- كريون: إن جميع ما تقوله إنما هو دفاع عنها! ...

- هايمون: (بصوت منخفض) ودفاع عنك، وعني، وعن الآلهة في أعماق الأرض.

العمر؛ وشارك في منافسة لنيل الجوائز في المسرحية التراجيدية وسنه لا يتجاوز 25 سنة. وتزوج الشاعر فتاة أنجبت له ثلاثة ذكور، كان أحدهم شاعراً. ومما يدل على مركز أسرته أنه كان يملك مكتبة كبيرة في منزله، وكان هذا شيء نادر في عهده، غير متمسر للمواطن العادي. كما يذكر أن الفيلسوف سقراط كان لا يذهب إلى المسرح إلا إذا كان يوربديز في صحبته.

وعلى الرغم من أن كثيراً من الأخبار التي بلغتنا عن حياته كان يتناقلها الرواه شفويًا (مثل أخبار غيره من أبناء عصره)، فهناك وثائق تشير إلى أن يوربديز اختير عام 455 ق.م ليشارك بمسرحياته في احتفالات المسرحية التراجيدية التي كانت تقام في المناسبات الدينية؛ وأنه أحرز أول جائزة في الاحتفالات سنة 441.

ألف يوربديز نحو تسعين مسرحية (كانت المسرحية بصفة عامة أقصر مما أصبحت عليه في عهد شكسبير مثلاً)، ضاع معظمها، وكتب البقاء لتسع عشرة مسرحية. وأحرزت مسرحياته الجائزة الأولى خمس مرات في الاحتفالات الدينية الكبرى (إحدى هذه الجوائز بعد وفاته). وهذا عدد قليل مقارنة بالجوائز التي نالها منافسها إسكلس وسفوكليز.

وربما كان المسؤولون على توزيع الجوائز ينقمون عليه لما ينبعث من مسرحياته من أفكار لا تجارى أفكارهم التقليدية. وربما كان له خصوم في لجنة التحكيم نفسها يأخذون عليه هجومه على صلاحيات الآلهة وانتقاده للطقوس المقدسة. ويشير النقاد إلى أن حياته تأثرت فعلاً، أثناء إقامته في أثينا، لما كانت تحتضنه مسرحياته من أفكار تتنافى مع العقائد السائدة، وما تناوله من مشاعر الإلحاد المعادية للآلهة.

والواقع أن يوربديز نجح في تحويل هدف المسرحية من تمجيد الإله ديونيسوس إلى وسيلة لانتقاد العقائد الخرافية، ومهاجمة ما تفعله الآلهة من شرور، وما تحدث من صراع بين الناس. وكان يعتبر ذلك استهزاء بالأخلاق الفاضلة، وتضليلاً للعقل البشري. وعلى الرغم مما وجه إليه من انتقادات، ومن كونه حرم من عدد من الجوائز، وعلى الرغم كذلك مما كان يشعر به من إحباط، فقد حقق شهرة واسعة، وسمعة عظيمة تفوق ما ناله صاحباه أو منافسها إسكلس وسفوكليز.

لم يكن يوربديز مؤلف مسرحيات وحسب، بل كان يعتبر من أكبر مفكري اليونان، لذلك سمي بفيلسوف المسرح. واشتهر بكونه أضفى على المسرحية طابعاً أكثر واقعية وجعلها تواكب مشاكل الحياة، لأنه استطاع أن ينفذ إلى الطبيعة البشرية ويحللها بدقة لم يسبق إليها. وركز على معالجة الجوانب السلبية والإيجابية من مشاعر الإنسان، وبرع في تصوير تقلبات الدهر وفجائع الحروب ومآسيها كما يعيشها الضعيف والقوى.

في سنة 408 ق.م. (كان سن يوربديز 72 عاماً) استضافه ملك مقدونيا، أرخلوس، وهناك لقي كل ترحيب وتقدير، وحظي بمعاملة تليق بمقامه. وفي مدينة PELLA (مقدونيا) ألف الشاعر مسرحيتين هما: ("إفجينيا") و("الباحيات"). ووافته المنية سنة 406، بعد إقامة في مقدونيا دامت ثمانية عشر شهراً. ويروى أن الملك قص شعر رأسه تعبيراً عن حزنه لوفاة الشاعر؛ وأن منافسه سفوكليز ارتدى أزياء الحزن أثناء مسابقة المسرحيات التي أقيمت في فصل وفاة يوربديز. كما يروى أن ديونيسوس، ملك سرقوسة، اشترى ألواح الكتابة والأدوات التي كانت في مكتب الشاعر، وقيثارته، وحفظها في معبد مهبط الوحي.

** مسرحية يوربديز: نساء طروادة

يعتبر النقاد هذه المسرحية المأساة من أعمق وأروع ما كتب في العهود القديمة عن استنكار الحرب وعواقبها الوخيمة. وقد ظلت مسرحية «نساء طروادة» تعرض أوضاع الصور عن فظائع الحروب ومآسيها. وتعود خلفية هذه المسرحية في نفس يوربديز إلى ما كان يشعر به من نقمة وانزعاج تجاه نزعة إمبراطورية أثينا (بلده) نحو شن حروب وإرسال حملات لغزو دول ضعيفة، وإلى استخدام القوة لتوسيع سلطانها على حساب دول مسالمة.

وقد اندلعت الحرب بين أثينا وأسبارطة (صقلية) عام 431 ق.م، وكان عمر الشاعر 49 سنة، ودامت هذه الحرب سنوات طويلة، وكانت حرباً ضرورياً تسببت في مآسي ودمار وويلات تركت أثراً عميقة في نفس يوربديز، خاصة عندما تكون دولته، أثينا هي المعتدية، كما حدث عندما أرسلت جيشاً للهجوم على جزيرة ميلوس المسالمة ودمرتها.

وبعد هذا الهجوم العدواني، أرسلت أثينا حملة قوية، سنة 415، للاستيلاء على أسبارطة، وقد فشلت هذه الحملة فشلاً ذريعاً، ولم ينج جندي من جنود أثينا، بل كان مصيرهم الهلاك والأسر. وفي نهاية المطاف انتهت الحرب بتدمير الإمبراطورية الأثينية.

ويروى أنه أثناء تأليف الشاعر لمسرحيته «نساء طروادة»، عام 415، كانت أثينا تشن هجومها على جزيرة ميلوس، وتنبأ يوربديز في مسرحيته المذكورة بفشل الحملة التي أرسلتها أثينا ضد أسبارطة. وتقديراً له قررت سلطات أسبارطة المنتصرة أن تطلق سراح أي جندي أسير من جنود أثينا إذا كان يحفظ شيئاً من تلك المسرحية.

وتعود مسرحية «نساء طروادة» بالقارئ إلى أسطورة حروب طروادة (كما نعرفها من إلياذة هومروس الشهيرة). وقد ظلت تلك الحروب منبع إلهام لكثير من الأدباء والشعراء. وكذلك نجد يوربديز في مسرحيته هذه يعود إلى ملحمة حروب طروادة، ويطلق العنان لخياله اليقظ وذاكرته الحادة فيسغفانه بأعمق المشاعر وأفظع المشاهد التي تخلفها ويلات الحروب في كل زمان.

ومن المعروف أن اليونانيين انتصروا في حرب طروادة. وما انتصار جيش إلا نكبة على المغلوبين، دمار لبيوتهم، تقتيل لرجالهم، سبي للنساء والأطفال، وتمزيق للأسر. وهنا ينطلق قلم يوربديز العظيم ليعبر عن كراهيته للحرب، ويجيد في وصف المذابح، والدماء تلون الشوارع، الجثث منثورة، النساء تندب قتلاها، وهي مفجوعة تنتظر مصيرها المجهول، الأطفال يصرخون في رعب ولا من يجيب ... ويصور الشاعر مشاهد الحروب الوحشية، وبشاعة القسوة والشقاء، ومنظر الحزن والدموع والإهانة، والنساء ينتظرن أسيادهن الجدد، بعد أن فقدن رجالهن وكرامتهن ... ويل للمغلوب من طغيان الغالب المنتصر.

وتجدر الإشارة إلى أن مسرحيات يوربديز، مثل مسرحيات غيره من أدباء ذلك العهد، تزخر بأسماء الأبطال والآلهة وأنصاف الآلهة، وأسماء المدن والأماكن ... التي قد تبدو لنا غريبة (أو يصعب لفظها)، ولكن تلك الأسماء كانت تمثل جزءاً من أساطيرهم المحببة ومن حياتهم اليومية.

وفيما يلي أسماء بعض الأشخاص الذين ورد ذكرهم في مسرحية «نساء طروادة»، وكذلك في ملحمة هومروس الشهيرة «الإلياذة».

- هكيبا HECUBA، وهى زوجة بريام PRIAM، ملك طروادة، ولهما ثلاث بنات وولد.
- بولكسينا POLYXENA، طالبَ بها شبح أخيل ACHILLES، بعد أن قتل، لتكون نصيبه من السبايا، وأن تقتل على قبره.
- كَسَدَرا، البنت الثانية، يأخذها البطل أغممنون سبيّةً
- أندروماكي، البنت الثالثة، وهى زوجة البطل هكتور.
- بولدوروس، الابن الصغير، يقتله ملك تراقيا.
- أستياناكس ASTYANAX، ابن أندروماكي وهكتور.
- هكتور، المذكور، أشجع أبطال طروادة في حربها ضد اليونانيين.
- أغممنون AGAMEMNON المذكور، وهو ملك أرغوس، وقائد الحشود اليونانية التي هاجمت طروادة لاستعادة الفاتنة هيلينا HELEN التي اختطفها باريس PARIS ابن ملك طروادة.
- تالشيبيوس TALTHYBIUS أحد فرسان اليونانيين.
- منلاوس MENELAUS، ملك أسبارطة وزوج الحسناء هيلينا التي حشدت من أجلها الجيوش والسفن.
- أخيل ACHILLES أشجع فرسان اليونان في حرب طروادة.
- ومن المشاهد التي نجدها في مسرحية ((نساء طروادة)) ما يلي:
يدخل تالشيبيوس على هكيبا ليحمل إليها أخباراً غير سارة.

- تالشيبيوس : لا شك أنك تتذكريني من رحلاتي السابقة إلى هذه المدينة (طروادة).
- هكيبا : إذا .. لقد جاء ما كنتُ أخشاه.
- تالشيبيوس: لقد حددت القرعة مصيركم، إذا كان هذا ما كنت تخشين.
- ويلاه! أين سيكون مصيرنا المجهول؟ أي مدينة ستسوقوننا إليها؟!
- تالشيبيوس: لقد نال كل فارس جائزته، أما أنت فلم يتقرر مصيرك بعد.
- هكيبا : أخبرني عن ابنتي كسندرا! ما مصيرها؟ في يد من ستكون سبيّة؟
- تالشيبيوس: لقد اختارها الملك أغممنون لنفسه.
- هكيبا : ويلاه! لتكون خادمة مملوكة لزوجته.
- تالشيبيوس: كلا! بل لتكون عشيقته، في السر طبعاً.
- هكيبا : أي بنيتي! أرمى من يدك المفاتيح المقدسة، ومزقي عن جسدك تلك الأكاليل المقدسة!
- تالشيبيوس: أليس شرفاً لها أن تحظى بحب ملكنا؟!
- هكيبا : وماذا فعلتم بابنتي الأخرى التي أخذتموها مني؟

أرستوفان

ARISTOPHANES

كان أرستوفان أشبه بالصحفي الجريء المغامر، سخر بشجاعة من الديمقراطية المزيفة، ناصر العقائد والمبادئ التقليدية، عارض المحدثين والمتشككين، وكان يكره الحرب فهاجم مروجيها. وكانت موضوعات مسرحياته الهزلية تتراوح بين الأنافة واللطافة والجدية، والبذاءة والهجاء المقذع. وكان ذا خيال خلاق وعاطفة جامحة فجاء أسلوبه متفاوتاً بين العبارات الجزلة الراقية التي تنعش النفوس، وبين الإسفاف المخجل، والكلمات الوسخة التي ينفر منها السمع والذوق السليم. وكان، كما قال الراوي، يدعو إلى الأخلاق الفاضلة، ويهجو من يخالفها، ولكنه كان عكس ذلك في سلوكه.

أرستوفان شاعر أثيني، يُعتقد أنه ولد في أثينا، حوالي سنة 450 ق.م. وكانت أسرته تملك قطعة أرض في جزيرة إيجينا AEGINA. ولا يعرف إلا قليل من الأخبار المؤكدة عن حياته، بل يستنتج معظمها من مسرحياته.

ألف أرستوفان زهاء أربعين مسرحية، حفظ الزمان منها إحدى عشرة هزلية. وقد قدم مسرحيته الأولى للمسابقة وسنه لا يتجاوز ثمانية عشر عاماً، وحاز بها الجائزة الثانية. وتعتبر مسرحياته مهمة لكل من يرغب في أن يعرف شيئاً عن حياة الناس في أثينا في عهده، لأنه

- تالشيبيوس : هل تعنين بولكسينا؟ لقد كان مصيرها أن تسهر على خدمة أخيل في قبره.

- هكيبا : ويلاه! أصبحتُ أمّاً لخادمة رجل في قبره! وهل ما زالت على قيد الحياة؟

- تالشيبيوس: لقد استراحت من متاعب الدنيا!

- هكيبا : وما هو مصير ابنتي أندروماكي، زوجة هكتور؟

- تالشيبيوس: لقد اختارها لنفسه ابن البطل أخيل.

- هكيبا : وما هو مصيري؟ وقد شاب شعر رأسي، وأحتاج إلى عصا أتوكأ عليها؟

- تالشيبيوس: لقد اختارك أودسيوس، ملك إتاكا ITHACA، لتكوني خادمة له.

- هكيبا : رحمتك يا إلهي! لقد وقعت سبيّة لعدو لا يرحم، بل وحش شرير ... يا نساء طروادة اندين حظي المشؤوم معي .. الويل لي! وقعت ضحية لأسوأ مصير!

وبعد أن يصور الشاعر القساوة الوحشية التي سلطها المنتصرون اليونان على أسرى طروادة، يشير إلى أن هكيبا (الملكة) شفت غليلها في النهاية، إذ استطاعت أن تنتقم انتقاماً وحشياً من قاتل ابنها، ملك تراقيا، فاقتلعت عينيه، وقتلت ولديه.

رسم فيها مشاهد هزلية، ساخرة، هجائية، واقعية تارة ومبالغ فيها أحياناً، ومشاهد تمثل كثيراً من الشخصيات المعاصرة له. وبالإضافة إلى ذلك يحلل الشاعر المسرحي، ويحبد أو ينتقد، كثيراً من الحوادث الاجتماعية والسياسية والثقافية، وشؤون الحياة العامة.

كان أرسطوفان من ("حزب") المحافظين. لذلك كان يهاجم أنصار التجديد والتغيير في معركة النزاع بين الدين والفلسفة، من أمثال الشاعر يوربديز والفيلسوف سقراط. وكان يرى أنهم يفسدون تراث الأجداد وأخلاق الناس. وكانت ميوله السياسية تسير الطبقة الارستقراطية وملاك الأرض.

كانت المشاهد المسلية والصور الهزلية الكاركاتورية التي يرسمها في مسرحياته تثير المرح والإعجاب في نفوس المشاهدين، وما زالت مسرحياته تسلى الناس وتطربهم في عصرنا. ويروى أن الفيلسوف أفلاطون كان معجباً بمسرحياته، وأنه عندما طلب منه ديونيسيوس DIONYSIUS، ملك سرقوسة، أن يمهده بتحليل لدستور أثينا، أرسل إليه أفلاطون نسخة من إحدى مسرحيات أرسطوفان.

أنتج الشاعر آخر مسرحية عام 388 ق.م. وفي العام التالي قدم ابنه أراروس إحدى مسرحيات والده إلى مهرجان المنافسات فأحرزت الجائزة الأولى. ولا يعرف تاريخ وفاة أرسطوفان على وجه التحديد، ويعتقد أن وفاته كانت بين 385 و 375 ق.م.

وفيما يلي فكرة موجزة عن عدد من مسرحياته:

– البابليون BABYLONIANS: كان أرسطوفان يعارض الحرب التي

اندلعت بين أثينا وأسبارطة. وأخذ ينتقد كليون حاكم أثينا ويهاجم سياساته الداعمة للحرب في هذه المسرحية الهزلية التي ألفها عام 426. وواصل الشاعر انتقاده للزعيم الأثيني إلى حين وفاة كليون عام 422.

واتهم كليون الشاعر بالخيانة، وبأنه لا يتمتع بالجنسية الأثينية، وسبب له متاعب جمة. وبعد محاكمته نجا الشاعر بدفع غرامة، وخرج من النزاع سالماً، وسرعان ما عاد إلى مهاجمة صاحب السلطة كليون.

– THE ACHARNIANS: مسرحية أخرى هزلية أنتجها أرسطوفان سنة 425، جدد فيها هجومه على مروجى الحرب بين أثينا وأسبارطة. ويصور الشاعر فيها ظروف فلاح أثيني اضطر إلى عقد اتفاق خاص بينه وبين أسبارطة (بتهمك) لكي يتجنب الأضرار التي ألحقتها الحرب بمزراعه.

– الفرسان THE KNIGHTS (عام 424) تتضمن انتقاداً شديداً لحاكم أثينا، كليون، إذ يعرضه على المسرح في صورة رئيس للخدم في منزل ديموس DEMOS (تعني الشعب). وديموس هذا رجل سريع الغضب. ويعطي الشاعر لرئيس الخدم (يعني به كليون) اسم ("الدباغ"). وكما يفعل الزعماء أثناء الحملات الانتخابية، يتعهد رئيس الخدم بأن يوفر لسيده جميع احتياجاته، وأن يسهر على راحته. وقد أحرزت هذه المسرحية الجائزة الأولى في المنافسات التي تقام أثناء الاحتفالات السنوية.

– السحب THE CLOUDS (سنة 423) كان أرسطوفان يعارض التجديد في مجالات التقاليد وأساليب الحياة والأفكار الثقافية. وقد سلط على

الشاعر المسرحي العبقرى، يوربديز، هجاء مريراً، كما انتقد سقراط لأنهما كانا من دعاة التحديث في الجدل الذي نشأ بين العقل والفلسفة والدين والتقاليد ... إلخ.

وفي هذه المسرحية يتخيل أرسطوفان أن سقراط أنشأ مدرسة (متجراً) للتعليم والتفكير السليم. ويتحدث بطريقة تهكمية عن رجل تراكمت عليه الديون، فأتى إلى متجر سقراط، وطلب من الفيلسوف أن يعلمه كيف يتغلب على خصومه في النقاش، وكيف يستطيع في مجادلاته أن يحول خطأه إلى صواب، وصواب خصومه إلى خطأ.

- السلم THE PEACE: كان الزعيم كليون، حاكم أثينا، والزعيم براسداس، في أسبارطة يدعمان مواصلة الحرب بين الدولتين. وبعد أن قتل الاثنان في ميدان الحرب، بدأت المساعي حثيثة للتوقيع على معاهدة لإيقاف الحرب. ألف أرسطوفان هذه المسرحية لوصف الصعوبات أمام هذه المساعي وليعبر عن تفائله بنجاحها.

- الطيور THE BIRDS: في هذه المسرحية الهزلية الخيالية ينتقد أرسطوفان الطموح الجامح لدى حكام أثينا الذين يعودون إلى إرسال الحملات العسكرية للاستيلاء على أسبارطة سنة 415. وفيها يتخيل الشاعر أن رجلين من سكان أثينا يطمحان إلى إنشاء ((مدينة فاضلة)) بين الأرض والسماء لكي يتمتعا بحياة مريحة. ويطلب الرجلان من طيور السماء أن تساعدهما في تحقيق مشروعهما. وتتضمن هذه المسرحية أفكاراً لا تخلو من مغزى سياسي وأخلاقي، وفيها انتقاد لطموحات البشر المفرطة، وتهكم على أحلامهم المضللة.

- الضفادع THE FROGS: ألفها أرسطوفان بعد وفاة الشاعر يوربديز. وملخصها أن الإله ديونيسوس يلاحظ أن مستوى المسرحية التراجيدية انحدر إلى مستوى مؤسف، فيقرر أن ينزل إلى العوالم السفلى (طبقات الجحيم) ليعود بالشاعر يوربديز إلى الحياة الدنيا. وهناك يشهد نزاعاً بين هذا الأخير ومنافسه إسكلس حول من كان له المركز الأول في المنافسات المسرحية. وبما أن هدف أرسطوفان هو السخرية من يوربديز (حتى بعد وفاته) فإنه يجعل الإله ديونيسوس يميل إلى إسكلس، ويفضل أن يعود به إلى الدنيا بدلاً من يوربديز.

- ليسستراتا LYSISTRATA: ألفها أرسطوفان بعد الهزيمة النكراء التي لحقت بالحملة التي أرسلتها أثينا لغزو أسبارطة. وفي هذه المسرحية وضعت سيدة أثينية تدعى ليسستراتا خطة لإجبار الرجال على إنهاء الحرب بين أثينا وأسبارطة. جمعت هذه السيدة الشجاعة النساء، وطلبت منهن أن يستولين على خزانة الدولة. ثم طلبت منهن جميعاً أن يمتنعن عن مضاجعة أزواجهن إلا إذا سعوا لإنهاء الحرب. ولم تتردد جموع النساء في تحبيذ اقتراحها، بعدما عانين من ويلات الحرب..

وجمعت ليسستراتا موكباً من الحسنات والفاتنات واستعرضتهن عاريات أمام جيش أسبارطة وجيش أثينا. فاشتاق الجنود إلى زوجاتهم.. ورضى القواد بتوقيع معاهدة صلح.

وفيما يلي اقتباس موجز من بعض حوادث هذه المسرحية الهزلية ذات المغزى العظيم.

عندما يرفع الستار تبدو الفتاة الحسنة الشجاعة، ليستتراتا وحدها، وعلى محياها علامات القلق. وتظهر في المشهد هضبة الأكروبوليس التي تصعد من أسفل مدينة أثينا. والفتاة قلقة لتأخر وفود النساء اللواتي دعتهن إلى الاجتماع لأمر هام (الوقت، في الصباح الباكر).

(تدخل كالونيسا)

- كالونيسا: صباح الخير، ما الأمر يا عزيزتي؟ لا تعقدي أسارير وجهك الجميل، هذا لا يلائمك.
- ليستتراتا: إنني حزينة لمصير النساء.. فهؤلاء الرجال يعتبروننا تافهات، ماكرات، مخادعات.

- كالونيسا: وحق الإله زيوس إننا كذلك.

- ليستتراتا: لقد طلبت منهن أن يأتين مبكرات لتحدث في أمور هامة، وهن الآن في سبات عميق.

- كالونيسا: ستحضر النساء، ولكن ليس من السهل أن تغادر الزوجة منزلها باكراً، تعرفين لا بد من إيقاظ الخدم، ورعاية الزوج والأولاد....

- ليستتراتا: ولكن أليس لهن واجبات أخرى هامة؟

- كالونيسا: ماذا سنفعل إذاً؟ وما هي خطتك؟

(تبدأ النساء يتوافدن من مدن وقرى قريبة ونائية)

- ليستتراتا: هل اشتقتن إلى أزواجكن الغائبين في ساحة القتال؟
- جوقة النساء: أجل يا سيدة، وكيف لا نشتاق إليهم، ونحزن لغيابهم؟
- ليستتراتا: وإذا أشرتُ عليكم بخطة لإنهاء الحرب، فهل تساعدنني؟
- جوقة النساء: أجل، وحق زيوس.

- ليستتراتا: توجد طريقة واحدة لإجبار الرجال على اللجوء إلى السلم.

(تبدي النساء بعض التردد، وتقول إحداهن)

- امرأة: أنا مستعدة للمشي على الجمر.... ولكن لا تبعديني عن فراش زوجي.

- ليستتراتا: أيتها السيدات، أيها الجنس اللطيف، ألا تفكرن إلا في إمتاع الأزواج وتربية الأطفال؟!

(بعد حوار طويل وافقت جموع النساء على خطة ليستتراتا.

فطلبت منهن أن يتعهدن بمساعدتها، وأن يرددن بعدها القسم التالي):

- ليستتراتا: نقسم... أن نمتنع عن جميع ملذات الحب والفراش مع أزواجنا، ونلتزم بأن لا نمارس معهم أي متعة، حتى ولو ألحوا على ذلك.

- جوقة النساء: (يرددن القسم بعدها).

- ليستتراتا: نقسم أن ننام نوم العذارى طوال الليل، بعيداً عن أزواجنا.

- جوقة النساء: (يرددن القسم).
- ليستتراتا: نقسم أن نمتنع عن القيام بأية واجبات أو ممارسات زوجية.
- جوقة النساء: (يرددن القسم).
- ليستتراتا: هل أقسمتن جميعكن؟ ساعدنا أيها الإله زيوس العظيم، أيتها القوى السماوية.
- جوقة النساء: أجل أقسمنا .. أجل أقسمنا.
- (تسمع أصوات من الخارج تبشر بالابتهاج)
- ليستتراتا: (بصوت مرتفع).
- ها قد استولت جموع النساء الأخرى على هضبة الأكروبوليس.
- (تطلب ليستتراتا من لمبيتو LAMPITO أن تسرع إلى أسبارطة لتبلغ النساء هناك بخطة إحلال السلم بين أثينا وأسبارطة؛ وتخرج جوقة النساء من المسرح)
- (ينزل الستار)
- (ثم يظهر حشد من الرجال يحملون حزماً من الحطب وجرات مملوءة بالجمر، ويبدأون في إشعال النيران حول هضبة الأكروبوليس، ويستعدون لمواجهة تمرد النساء، وهم يرددون الأناشيد. وبعد فترة يتقابل حشد الرجال وحشد النساء، فتبدأ مواجهة والتهديد).

- جوقة الرجال: هل سنقف هنا طويلاً لنسمع كلامهن البغيض؟ وهل سنكسر عصينا على ظهورهن؟
- جوقة النساء: أيتها الأخوات تهيأن للمواجهة بالأظافر والأنياب! قد يلجأ الرجال إلى الشر والعدوان.
- جوقة الرجال: نُراهن على أننا إذا صفعنا وجوههنّ صفعتين أو ثلاثا سيمسكن ألسنتهنّ البغيضة.
- جوقة النساء: (إحداهن) هو ذا وجهي ... اضربا، أراهن أنك لو تجرأت لما تركت من جلدك قطعة تمزقها الكلاب.
- جوقة الرجال: (أحدهم) وماذا يا حبيبتي لو أنني بقبضتي هذه أدق عظامك الغضة حتى تتحطم؟!!
- جوقة النساء: (إحداهن) وحق السماء لأقضمّ أحشاءك ولأمزقن كبك إربا!
- جوقة الرجال: لقد صدق الحكيم يوربديز عندما قال: لا حياةً لجنس النساء، إنهن أسوأ المخلوقات فوق البسيطة.
- (تظهر على المسرح إحدى الشخصيات المحترمة من لجنة الإنقاذ التي عينت لإصلاح وضع أثينا بعد هزيمتها السابقة. يدور الحوار بينه وبين ليستتراتا، زعيمة التمرد. وتتضم جموع نساء أسبارطة إلى حركة السلم. وتستعرض ليستتراتا جمعاً من الحسنات، وهنّ عاريات، أمام جيش أسبارطة وجيش أثينا، فينزح الرجال إلى السلم، ويوقع الطرفان معاهدة سلم بين الدولتين).

نقحات من الأدب العالمي

حكيمان وشاعر
من الصين والهند



شاباً. وتذكر بعض المصادر أن لاوتسى انتقد الشاب كونفوشيوس على شدة طموحه وكبريائه؛ وأن هذا الأخير أعجب بالمعلم القديم وشبهه بالتنين الذي يحلق فوق السحاب.

ويروى أن لاوتسى سافر نحو الغرب حتى وصل إلى موقع حصين (على الحدود الغربية)، وأن حارس الحصن سأله أن يؤلف كتاباً عن "المعرفة". فألف لاوتسى كتابه الشهير الذي يحمل عنوان "TAO-TE CHING"، ومعناه كتاب الطريق والفضيلة.

وهناك أسطورة مفادها أن الفيلسوف لاوتسى، عندما تجاوز الحدود نحو الغرب، دخل الهند وأنه هو نفسه الشخص الذي أصبح يعرف "بالبوذا" صاحب تعاليم البوذية. وتوجد أسطورة أخرى تروى أنه، بعد وفاته، عاد إلى هذا العالم مراراً عديدة في هيئة شخصيات مختلفة لينشر تعاليمه المعروفة "بالتاوية". ومهما اختلفت الروايات، فقد ظل الشعب الصيني يقدس هذه الشخصية الصوفية الجليلة، ويعتبره أحياناً إلهاً فوق القديسين.

أما عن كتابه (إن كان هو المؤلف الوحيد)، "كتاب الطريق والفضيلة"، فهو عميق المضمون، واسع الانتشار، اهتم به الناس شرقاً وغرباً، وتناول موضوعات الحياة المختلفة، ما يتعلق منها بالروح أو بالمادة، بالعميقة والأخلاق، بالحكم وبالتصوف وغير ذلك. وفيما يلي مقتطعات اقتبستها من كتابه (الطاو)، لخصتها من اللغة الإنكليزية.

لاوتسى LAO-TZU

يُكتب اسمه أيضاً "لاوزي" أو "لودزه"، (LAOTSE أو LAO-TSEU)، عاش في القرن السادس ق.م. اشتهر هذا الفيلسوف بكونه مؤلف كتاب شهير عنوانه "TAO-TE CHING" ومعناه: كتاب الطريق والفضيلة. وهو يمثل فلسفة دينية مبنية على تعاليم لاوتسى؛ وقد أصبح هذا المذهب يعرف بـ "التاوية" أو "الداوية" (TAOISM)، وهو أحد الأديان الرئيسية في الصين. أما كلمة TAO (الطاو) فتعني: المبدأ الأول الذي ينبثق منه كل وجود وكل تغيير في هذا الكون. واسم المؤلف (لاوتسى) يعني المعلم القديم.

وبما أن شكوكاً كثيرة تحوط بوجود هذا الفيلسوف، وبتأليفه للكتاب المذكور، وبحوادث كثيرة في حياته، يفضل أن نستعمل أفعالاً مثل "يحكى"، و"يروى"، و"يعتقد" وغيرها.

يعتقد أن لاوتسى، المعلم القديم، عاش في القرن السادس ق.م، وأنه عمّر حتى بلغ سبعة وثمانين سنة. ويروى أنه نشأ في قرية في شرق مقاطعة هونان، بالصين، وأنه في شبابه عين موظفاً في مكتب يهتم بالكتب المقدسة وبالعرفاء.

ويقال إنه اجتمع بالفيلسوف كونفوشيوس، وكان هذا الأخير

القانون الأبدى

حاول بلوغ أسمى الدرجات بالتواضع،
وتمسك بالسكينة والهدوء.

كم من المخلوقات تنشط وتنتعش،
ثم تعود إلى الاسترخاء والسكون.
النباتات تنمو وتزدهر،

ثم تعود إلى التراب.

العودة إلى الجذور تعني الراحة الكبرى،
وهذا يعني العودة إلى مصيرها وجوهرها.

والمصير هو قانون الطبيعة الأزلي،⁽¹⁾

ومعرفة هذا القانون الأزلي يعني التنوير.

من يعرف هذا القانون يكون متسامحاً،

ومن يكن خلقه التسامح يكن محايداً؛

يعتبر جميع المخلوقات متحدة؛

وتكون حياته منسجمة مع ((الطاو)).⁽²⁾

(1) يفسر هذا القانون على أنه تناوب الأضداد: النمو والاندثار.

(2) الطاو (TAO): المبدأ الأول الذي ينبع منه كل وجود وكل تغيير في الكون.

اللين واليابس

عندما يولد الطفل يكون بدنه ليناً مرناً؛
وعند وفاته يكون جسمه يابساً متصلباً.

النباتات الحية طرية مرنة،

وعندما تموت تصبح جافة وقاسية.

الجيش الثقيل المتصلب يخسر المعركة؛

عندما تيبس الشجرة تقطع؛

فالقاسي والصلب والجاف ينكسر ويسقط؛

والخفيف، المرن، الناعم يحيا ويرتفع.

* * * *

قلوب الناس

الرجل الحكيم ليس له مشاعر محددة،

بل يعتبر مشاعر الناس وأفكارهم مشاعره وأفكاره.

الصالحون من الناس أعتبرهم صالحين؛

والمسيئون منهم أعتبرهم صالحين كذلك؛

هذا هو طريق الفضيلة.

أصدق الصادق، وأصدق الكاذب،
هذا هو سبيل الحكمة والخلاص.

الفراغ

يوجد حول العجلة ثلاثون شعاعاً،
وتتحقق فائدة العجلة عندما
ينسى كل شعاع وجوده وفرديته.

عندما نصنع من الطين إناء
لا يكون مفيداً إلا إذا أفرغنا
داخله من الطين.

نفتح النوافذ والأبواب في جدران المنزل،
وإنما تأتي فائدتها من الفراغ في الجدار.
وهكذا يستفيد الإنسان من الأشياء،
ولكن ينتفع كذلك من الفراغ في الأشياء.

المشاكسة والنزاع

من يستسلم يحافظ على وجوده؛

من ينحن يستقم؛

وإنما يملأ المرء الإناء الفارغ.

وتتجدد المادة بعد أن يصيبها البلى.

الحكيم من يؤمن بالمبدأ الأول (الخالق)،

لا يسعى وراء الشهرة،

فيسطع نوره وتعمق بصيرته،

يثق به الناس، تكون كلمته مسموعة،

الحكيم لا يشاكس ولا ينازع أحداً،

فلا يخاصمه ولا يشتكى منه أحد.

يعيش سليماً محترماً،

ويعترف الناس بفضله.

وهذه نماذج أخرى من تعاليم المعلم الكبير لاوتسى:

- الطبيعة نبض الحياة، وجميع المخلوقات وحدة متكاملة متضامنة،
مهما اختلفت أجناسها وبيئاتها. فاجعل حياتك متناسقة مع نبض
الطبيعة: سكون وخمود وصمت، يتلوه نمو وانتعاش منسجم مع سنن
الكون الفسيح الذي أنت جزء منه .. تمسك بالحياة البسيطة في
الغذاء واللباس والملذات والسلوك، وفي جميع ما يمثل الطريق الأمثل
للحياة التلقائية المطمئنة.

- في المادة منفعة، وفي الفراغ منفعة. الفراغ الفسيح في الكون تسبح فيه المجرات وتجري فيه النجوم ...، وفي الجسم فراغ يجري فيه الدم والهواء ...، والإناء لا يكون نافعا إلا إذا أفرغنا داخله من المادة. وكذلك ينبغي أن يفرغ فكر الإنسان من الطموح ليحل محله الاطمئنان والسكون والتأمل الهادئ.

- العلم مضرٌ بالبشرية، فهو يهدف إلى تغيير نظام الطبيعة والمخلوقات، وقد يؤدي إلى إفساد سنن الكون التي ظلت تتبع نظامها دون خلل منذ ملايين السنين. والعلم يشجع الصناعات والاختراعات التي تبعد الإنسان عن الطبيعة، وينغمس في تيارات حضارية تضرُّ به وبيئته. والعلم يعمق التفكير، ويعقد شئون الحياة ويفسد العلاقات الاجتماعية، بما يضع من نظريات وقوانين تدفع الناس إلى التحايل والمخادعة لتجنب هذه القوانين والتلاعب بمضمونها. وهذا يساعد الشرير الذكي على التغلب على الضعيف الغبي.

- عندما تسوس شئون الناس حاول أن تقتصد، ولا تفرط. لأنه يمكنك أن تستدرك، إذا لم تبالغ في ما قضيت. من يستدرك يكن قويا وينتصر؛ ومن ينتصر تزدد قدراته، ويمكنه أن يسوس البلاد.

- لا شيء ألين من الماء، ومع ذلك لا تفوقه مادة في التغلب على الحواجز والصعوبات.

- ليكون المرء سيّد القوم ينبغي أن يتحدث وكأنه أقلهم مرتبة، وأن يسير خلفهم، فلا يشعر الناس أنه عبء عليهم.

- الحكيم يعمل ولكنه لا يملك، وينجز ولكنه لا يطلب المجد، ولا يرغب في أن يكون أفضل من غيره.

- انبذ الطموح والازدحام والنضال، وتجنب الجدل والمنافسة والمشاحنة والتنازع .. لأن ذلك يقلل من متع الحياة، ويوتر العلاقات.

- تظاهر بالجهل، بالضعف، بالفشل، انبذ المظاهر الخلابية. التخفي والانسحاب والتسليم بالواقع أليق بالمرء من التباهي. لا تستبِقِ الحوادث، دع الأمور تسير على وتيرتها، عندما تنضج التينة يسهل قطفها.

- تجنب الكبرياء، انخفضْ تعلُّ، انبذ الاعتداد بالنفس، واخفض جناحك للصديق والعدو.

- الحكيم ليس له مشاعر خاصة به، بل يتبنى مشاعر الناس.

- صدق الرجل الصالح ولا تكذب الشرير.

- المرونة علامة الحياة، واللسان أطول عمرا من الأسنان.

- انحنِ تستقم، واستسلمْ تسلم.

- ليس النجاح في العلم وحده، بل في الحكمة والاطمئنان.

وتجدر الإشارة إلى بعض الأقوال مما ينسب إليه، وهي تبدو متناقضة وكأنها تجمع بين الأضداد. ومن ذلك قوله:

بوذا، سيدهارتا غوتاما

ولد بوذا (سيدهارتا غوتاما) حوالي عام 563 ق.م، بالقرب من مدينة كاييلافاستو، في سفوح جبال الهمالايا، على حدود دولتي الهند ونيبال حالياً. وينتمي أبوه إلى قبيلة غوتاما التي تنتمي بدورها إلى قبيلة شاكيا. وكان أميراً، وربما رئيس المجلس الذي يحكم جمهورية شاكيا.

وسمي الولد سيدهارتا، وتعني المولود الذي تحققت رسالته. وتحيط بميلاده وحياته أساطير عديدة. منها على سبيل المثال أن أمّه (الأميرة) وضعتة وهي واقفة إلى جانب نخلة؛ وأنه لم يخرج من بطنها كسائر المواليد؛ وأن نوراً عظيماً أضاء السماء عند ميلاده؛ وأن الملائكة والملوك جاءوا إلى القصر مرحبين بميلاده؛ وأن أحد مستشاري أبيه سجد للمولود لما شاهد على جسده من علامات العظمة؛ وأن أباه، الملك، سجد له كذلك. ومن ذلك أن المريية تركته وحده أثناء احتفال، وعندما عاد أهله وجدوا الطفل جالساً جلسة اليوغا مستغرقاً في تأملات عميقة، فسجدوا له مرة أخرى.

لذلك استدعى أبوه عددًا من الرهبان وطلب منهم أن يفسروا له مغزى هذه الظواهر، وأن ينبؤوه بمستقبل ولده. وكان مما قال الرهبان إن المولود إذا بقي في حضن المملكة (الجمهورية) سيكبر ليصبح ملكاً عظيماً؛ أما إذا غادرها ليجول في الأرض، فسيصبح من كبار الرهبان، وسيكون له شأن عظيم.

- من يتعمق في المعرفة ليس حكيماً.

- من يعلم لا يتكلم، ومن يتكلم لا يعلم.

- لا تحاول أن تكون الأول أبداً.

- أشدّ حالات الذكاء تظهر كأنها غباء.

- بقدر ما يتعمق المرء في العلم يزداد جهله.

- ليس في النصر جمال، وهل تسمى المذابح جمالاً.

- من تريد لهم السماء الهلاك تسلحهم بالحب.

- أجمل حالات الفصاحة تبدو كأنها فهاهة.

اهتم الأب بتربية سيدهارتا (البوذا) ورعايته ووفر له جميع وسائل الرفاهية، وأحضر له كبار المعلمين، وأحاطه بكل ما يوفر له الراحة المادية والنفسية، لأنه ظل يتذكر تنبؤات الرهبان، ويخشى أن يغادر الشاب القصر، ويصبح ممن يجوبون البلاد من المتقشفين والرهبان.

تزوج سيدهارتا أميرة جميلة تدعى Yasodhara وعاش في البداية حياة هادئة في العاصمة كايلافاستو، غير أن سعادته لم تكن كاملة ونفسه لم تكن راضية مطمئنة، وما انفك يفكر في أهداف الحياة ومصير الإنسان، وما يواجهه في الحياة من هموم وآلام وقلق وأمراض. وكان كثير التأمل في قضايا الحياة والفناء. وهل خلق الإنسان لمجرد أن يتمتع بملذات الحياة، ويسعى وراء مزيد من الثروة والسلطة، أم أن للحياة غاية أخرى أعظم وأسمى؟

وحدث أن خرج من القصر ذات يوم، بصحبة سائق عربته، فشاهد في الشارع رجلاً مسناً متعباً، ورجلاً مريضاً يتألم، وجثة رجل ميت. وفي يوم آخر شاهد رجلاً متقشفا يرتدي عباءة صفراء، يسير بهدوء واطمئنان، وعلامات الرضى بادية على محياه. حركت هذه المشاهد مزيداً من التساؤلات في نفسه، خاصة وأنها مشاهد ملموسة من وقائع الحياة خارج القصر: إنه مثل هؤلاء الأشقياء سيعاني من الكبر والضعف والمرض، وسيموت. وخطر له أن الموت والخوف من الفناء هو الذي يدفع الناس إلى اختراع الديانات، وتقديس الآلهة، والتمسك بالشعائر والطقوس، عليهم بذلك ينالون بعض الأمان والتعويض، وربما الخلود.

قرر سيدهارتا أن يسعى لاكتشاف أسرار الوجود وسبيل

الخلاص. أسرج فرسه ذات ليلة، وغادر القصر ومدينة كايلافاستو، واتجه نحو الجنوب، وأصبح يعرف باسم GAUTAMA. لقيه الشيطان ("مارا") وحاول إغراءه وصدّه عن هدفه. فقاومه وأعرض عنه.

ورأى أن يتبع أسلوب الزهد في ملذات الحياة، وأن يمارس عيشة التقشف. وراح يجوب البلاد باحثاً عن مشاهير رجال المعرفة والحكمة، وأخذ عنهم ما استطاع من العلم وأساليب التأمل. ومارس نظام اليوغا، وغالى في تعذيب النفس والبدن بما تحمل من تقشف قاس، حتى تراكمت الأوساخ على جسده، واستولى عليه الضعف وأنهكه الجوع.

وبعد سنوات عديدة اكتشف أن حياة التقشف والحرمان لم توصله، بل ولم تقربه من الغاية التي كان يسعى إليها، ولم تبلغه درجة الاستنارة الروحية التي كان ينشدها. وتبين له أن الطريق القويم والأسلوب السليم هو ("طريق الوسط") الذي لا يلجأ إلى تعذيب النفس وقهرها، وإهمال الجسد وإنهاكه، ولا يشجع على الانغماس في ملذات الحياة، والإفراط في السعي وراء الشهوات ومتاع الدنيا. غير سيدهارتا أسلوب معيشتته، وعاد يقتات بما يعيد إليه قوته، وغسل ملابسه، حلق شعره، قلم أظافره ونزل إلى النهر ليستحم.

ويروى أنه بينما كان ذات يوم جالساً تحت شجرة وسط الطبيعة الهادئة، قرر أن يقضي ليلته في تأمل عميق. وعاد إليه الشيطان ليحول بينه وبين وصوله إلى درجة الاستنارة الروحية. غير أن سيدهارتا كان أقوى من أن يصدّه أي إغراء عن هدفه. واصل تأملاته إلى أن بدأ يشاهد ببصيرته ما يحدث من تغيير في مسلسل تتابع حلقات الحياة والموت.

شاهد سيدهارتا (البوذا)، أثناء تأملاته في تلك الليلة، بعين بصيرته، أن المخلوقات تعود إلى الحياة، وأن كل ميت منها يرجع إلى حياة جديدة في شكل جديد وصورة جديدة حسنة أو سيئة، جميلة أو قبيحة، خيرة أو شريرة، سعيدة أو شقية، مصلحة أو مفسدة ... حسب ما قدم من أعمال في حيواته السابقة.

وعند طلوع الفجر كان سيدهارتا قد أدرك "الحقيقة" التي كان يبحث عنها، والاستنارة التي كان ينشدها. زال عن فكره غشاء الجهل والحيرة، وأصبح يعرف باسم "المستير". وتشير تقاليد البوذية إلى أنه وصل إلى تلك المنزلة وهو في سن الخامسة والثلاثين.

بعد ذلك راح البوذا يتجول بين القرى والمدن في شمال شرق الهند، وذهب إلى مدينة بنارس، وانضم إليه عدد من التلاميذ والأتباع، وبدأ ينشر تعاليمه التي أسس عليها مذهبه. ثم انتشر أتباعه بدورهم في أصقاع الأرض لينشروا رسالة معلمهم.

ويمكن للقارئ أن يتساءل عن مغزى الرسالة التي جاء بها البوذا، وعن أهداف تعاليمه التي سعى لنشرها، هو وأتباعه، في مختلف أصقاع العالم.

لقد هجر البوذا (سيدهارتا) حياة الراحة ومتاع الدنيا ليركز على مشكلة كانت تشغل تفكيره فترة طويلة، وهي ما زالت تشغل معظم الناس: كيف يتجنب المرء الآلام، والشقاء، والمعاناة؟ كيف يجد الراحة البدنية والروحية؟ كيف يصل إلى السعادة ويرقى إلى "النيرفانا"⁽¹⁾ Nirvana.

(1) حالة يتخلص فيها المرء من رغبات النفس الواعية، ويتحرر من قبضة حلقة الحياة والموت ثم الحياة (التقمص) ليصل إلى حالة من الرضا والسلام والاستنارة الكاملة.

وتجدر الإشارة قبل كل شيء إلى أن تعاليم البوذية لا تهتم بالعقائد اللاهوتية، ولا بالطقوس والشعائر الدينية، ولا بأشكال العبادات التي ركزت عليها الديانات السماوية. بل يركز البوذا على الفكر والعقل والنفس الواعية، ويسعى لإخراج الإنسان من خضم الحيرة ولجج الأوهام ومتاهات الجهل، ولتحريره من جحيم الآلام والتعاسة والشقاء، ليجعل منه مخلوقاً حراً، مستتيراً، ينعم بحياة راضية طاهرة، ترتقى بهدوء إلى سماء النيرفانا.

لقد استنتج البوذا من تأملاته الطويلة أن الحياة في جوهرها محنة وآلام وقلق وشقاء، وأن الإنسان غارق في رغباته منقاد لشهواته، وهذا ما يزيد في تعاسته، لأن كل شهوة تتبعها خيبة، وكل لذة يقابلها ألم، وكل بهجة يعقبها حزن.

رأى أنه اكتشف سبب آلام الإنسان ومنبع قلقه، وهو كونه يولد، يموت، ثم يخلق من جديد في شكل كائن آخر خير أو شرير. وهذه هي فكرة التقمص لدى البوذية. وهي ترى أن الإنسان لا يولد على الفطرة، صفحة بيضاء، بل يعود إلى هذا العالم وهو يحمل معه نتائج أعماله (خيراً أو شراً) التي عملها أثناء حيواته السابقة.

ويما أن العودة إلى الحياة مأساة لما يواجهه أثناءها من عذاب ومتاعب بدنية ونفسية، فإنه ينبغي له أن يوقف عجلة التقمص ويتحرر من مسلسل الحياة والموت، ثم الحياة والسبيل إلى ذلك هو الالتزام بالعمل الصالح، والسلوك القويم، والأخلاق الفاضلة أثناء حلقات من حيواته المتكررة، إلى أن يصبح سلوكه مثالياً، ويوصله إلى درجة النيرفانا.

ومن تعاليم البوذا الأساسية ما يلي:

الحقائق النبيلة الأربعة

- 1- تنطوي الحياة على كثير من الآلام والمعاناة.
 - 2- هذه المعاناة تتبع من تعلق الإنسان بالملذات والشهوات.
 - 3- لا تنتهي معاناة الإنسان وآلامه إلا عندما يتجنب الملذات والشهوات.
 - 4- يوجد طريق لإنهاء معاناة الإنسان.
- ويشرح البوذا طريق الخلاص من معاناة الإنسان على النحو التالي :
- 1- أن يعرف الإنسان حقائق الوجود الجوهرية.
 - 2- أن يعقد العزم على القيام بالتدريبات المطلوبة، وأن يشرع في تطبيق العناصر الأخلاقية الثلاثة التالية:
 - 3- أن يلتزم بصدق الكلام وقول الحق.
 - 4- أن يلتزم بالعمل الصالح.
 - 5- أن يمارس الحياة المتزنة السليمة، ومن هنا يصل إلى العناصر الثلاثة التالية المتعلقة بعمليات التأمل وتطوير التفكير.
 - 6- القيام بالجهد السليم.
 - 7- توجيه الوعي توجيهاً سليماً.
 - 8- تركيز الفكر في الاتجاه السليم.

ومن المبادئ التي أوصى بها البوذا من أجل إصلاح سلوك الإنسان وترقية مستوى حياته:

- اعرف نفسك، واعرف العالم من حولك.
- انتق أهدافك، ووجه نشاطك نحو الطريق المستقيم.
- لا تأخذ ما ليس لك.
- لا تؤذ المخلوقات الحيّة.
- اعتدل في إشباع الحواس وملاحقة الملذات.
- ابدل الجهد المناسب مرفوقاً بالحزم والمثابرة.
- تجنب المنكرات والفواحش.
- لا تحرص على اقتناء الذهب والفضة ومتاع الدنيا.
- تجنب المسكرات والمخدرات.

عاش البوذا المستنير حياة متواضعة (بعد أن غادر القصر) هادئة راضية، وأوصى أتباعه بأن يعيشوا حياة بسيطة، وأن لا يقتني الراهب منهم أكثر من ثلاث عباءات، وإناء يتلقى فيه غذاءه، وأداة الحلاقة، والإبرة والخيط.

كان سنه حوالي ثمانين عاماً عندما أحسّ بدنو أجله، فاتجه شمالاً، وزار بعض المدن بصحبة عدد من تلاميذه وأتباعه. ووافته المنية وهو في كوزنارا، وأحرق جثمانه. وكان آخر ما أوصى به أتباعه هو أن ينجزوا مهامهم بحزم ومثابرة.

فيما يلي مقتطفات من مواعظه وحكمه.

مواعظ بنارس⁽¹⁾ BENARES

أيها الرهبان، هناك نوعان من الغلو والإفراط لا يجدر بمن يزهد في شؤون الدنيا ومتاعها أن يمارس أيًّا منهما. النوع الأول هو أن ينغمس المرء في ملذات الدنيا ويطلق العنان لشهواته؛ والنوع الثاني من الغلو هو الإفراط في تعذيب النفس وقهرها، وهي ممارسة مؤلمة لا فائدة ترجى منها.

فلا الإقلاع عن أكل اللحوم والأسماك، لا الامتناع عن ارتداء الملابس، ولا حلق شعر الرأس أو نسجه في ضفائر طويلة، ولا ارتداء الملابس الخشنة، ولا طلاء الجسم بالأوساخ، ولا تقديم القرابين للإله AGNI⁽²⁾ لا شيء من هذا يطهر الغارق في الأوهام.

وهل تكفي قراءة كتاب الفيذا، وتقديم الهدايا لرجال الدين، والضحايا للآلهة، وتعذيب النفس بالحر والبرد، وغير ذلك من التضحيات، لتطهير الإنسان الغارق في الأوهام؟

إن الغضب، والسكر، والعناد، والتعصب، والخداع، والحسد، وحب الذات، والانتقاص من قدر الناس، والتكبر، وغير ذلك من النوايا والممارسات الشريرة هي التي توسخ النفس، وليس أكل اللحوم.

(1) مدينة بنارس المقدسة.

(2) إله النار والنور في كتب الهندوس الدينية.

دعوني أعلمكم، أيها الرهبان ما هو الطريق الوسط الذي يُجنبكم التطرف. إن تعذيب النفس يضعف البدن، ويرهق النفس، ويخلق لدى المؤمن الضعيف أفكاراً مبلبلة. بل إن تعذيب النفس لا يساعد حتى على اكتساب المعرفة الدنيوية، فكيف بالتغلب على مشاعر الإنسان وانفعالاته.

من يملأ مصباحه بالماء لا يقهر الظلام، وليس من السهل أن نوقد النار بحطب فاسد. وكيف يتحرر المرء من نفسه إذا كان يعيش حياة البؤس والشقاء؛ وكيف يطفئ نيران شهواته إذا كان قلبه متعلقاً بمتع الحياة الدنيوية والسماوية؟

ملاحقة الشهوات ممارسة متعبة ومرهقة، لأن المرء يصبح عبداً لنزواته وغرائزه ورغباته. أما إشباع ضروريات الحياة فلا شرّ فيه. لأن المحافظة على صحة البدن واجب، وإلا لما استطاع المرء أن يهذب مصباح الحكمة، ولما استطاع أن ينعم بفكر سليم. الماء يحيط بزهرة اللوتس، غير أنه لا يبلى أوراقها. هذا هو طريق الوسط الذي يبعدكم عن التطرف في أيّ من الاتجاهين.

من يدرك حقيقة الألم، وأسبابه، وسبل الخلاص منه، فقد عرف الحقائق النبيلة، وأصبح يسير على الطريق المستقيم. النظر السديد هو المصباح الذي ينير طريقه؛ والتطلعات السديدة هي رائدة؛ والمنطق السليم هو مركز راحته على الطريق.

وإيكم أيّها الرهبان الحقيقة المثلى فيما يتعلق بمنبع الألم.

إن الرغبة الجامحة التي تساعد على تجديد الحياة، بما

يُصاحبها من متع وملذات وحشية، ومن حرص على إشباع الرغبات وإرضاء الغرائز والشهوات والمشاعر، والرغبة الملحة في حياة مستقبلية، مع السعي لبلوغ السعادة في هذه الحياة ...

هذه هي الحقيقة فيما يتعلق بأصل الألم.

أما القضاء على هذا الألم فيمكن في القضاء على هذا التعطش الجامح إلى إشباع الشهوات، وفي قهر الرغبات الملحة، والتخلص من التفكير فيها. عندئذ فقط يصبح الإنسان حراً، سيد نفسه.

★★ ومن كلام بوذا الحكيم:

الزهور

- يعيش الرجل الحكيم في قريته مثلما تعيش النحلة التي تجمع رحيق الزهور من غير أن تؤذيها، أو تفسد لونها أو عطرها.
- القول الذي لا يتبعه الفعل مثل الزهرة الجميلة التي لا عطر لها.
- عطر الزهور لا ينتقل عكس اتجاه الرياح، وأقوى منه سمعة الرجل الطيب، فهي تنتشر في كل اتجاه.

- أفكار البوذا الحقيقي تسطع وسط الجاهلين فهي مثل زهرة الزنبق التي تنتعش وسط الفضلات على جانبي الطريق وتنتشر عطراً طيباً.

السعادة

❖ لتتعم بالسعادة:

- طهر قلبك من الحقد وسط من يحقدون عليك.
- وسط المرضى، قِ نفسك من الداء.
- وسط الطماعين، أخل قلبك من الجشع.
- وسط المتكالبين على متاع الدنيا، ازهد فيه.
- لا تطمح إلى الانتصار، لأن المغلوب يعاني الشقاء والحزن، والانتصار يجلب الحقد والكراهية.
- العواطف نيران متأججة؛ الحقد سهم طائش يعود إلى صاحبه؛ كل الألم في الجسد؛ الراحة أكبر مصدر للسعادة.
- الصحة أغلى الهدايا؛ القناعة أعز ثروة؛ الثقة أسمى العلاقات؛ النيرفانا أسمى مراتب السعادة.
- مصادقة الحكماء متعة، ومرافقة المجانين متعبة.

التفكير

- إذا لم تروض تفكيرك يُصبح مثل الفرس الجامح، يهرول بك في جميع الاتجاهات.

- الفكر المضطرب مثل السمكة خارج الماء، والرجل الحكيم يقوم تفكيره مثلما يقوم صانع السهام سهمه، لأن التفكير السليم يجلب لصاحبه الاطمئنان والراحة.

- مهما فعل الغاضب بعدوه أو بالمغضوب عليه، فإن الأفكار الفاسدة تضر بصاحبها أضعافاً مضاعفة.

- إذا لم تكن أفكار المرء مبعثرة، ولم تستول البلبلة على عقله، وتوقف عن التفكير في الخير والشر، فلا خوف عليه ما دام واعياً.

- إن الفكر الذي يوجهه صاحبه توجيهاً سليماً، يهيئ له من الهناء والاطمئنان ما لا تستطيع أمه ولا أبوه أن يهيئ له.

الرجل الحكيم

- كما أن الصخرة القوية لا تهزها الرياح، فإن الحكيم لا يفقد توازنه بين العذل والمدح.

- الحكيم لا تستولى عليه الكآبة إذا نزل به الحزن، ولا تهز نفسه البهجة إذا شعر بالسعادة.

- إذا كان المرء لا يطلب الولد والثروة والسلطة لنفسه ولا لغيره، ولا يسعى وراء النجاح بطرق ملتوية، فهو من أهل الفضل والحكمة.

- من هم الأحرار حقاً في هذا العالم؟ هم أولئك الذين أصبح فكرهم راسخاً في عناصر المعرفة السبعة، واستنارت عقولهم، وقهروا رغباتهم، وحرروا أنفسهم من متاع الدنيا.

الطريق

- أفضل السبل هو سبيل الفضائل الثمانية: المذهب القويم؛ الهدف السليم؛ السلوك القويم؛ الكلام السليم؛ الطهارة الصحية؛ التفكير السديد؛ العزلة السليمة؛ البهجة السليمة.

- أفضل الفضائل ضبط العواطف والشهوات؛ وأفضل الرجال من كان له عينان ليبر بصير بهما جوهر الحياة.

- المخلوقات جميعها بين حزن وألم؛ من يدرك هذه الحقيقة لا يعاني الألم؛ هذا هو سبيل الطهارة والصفاء.

- انتبه إلى غابة الشهوات وأدغال الرغبات واقطع جذورها، عندئذٍ فقط تنال الاطمئنان النفسي.

- يظل فكر الإنسان مكبلاً ما دامت رغبته في المرأة قوية، فهو عندئذٍ أشبه بالعجل الرضيع.

وظيفة، آملاً أن يجدها في بلاط الإمبراطور. وألحق بمجموعة من الشعراء لإنشاد الشعر في المناسبات؛ ويروى أن أحد رجال البلاط قدم لي بو إلى الإمبراطور، فاستمع إلى شعره، وكرمه وهياً له إقامة مريحة.

غير أن الشاعر تعود أن يعيش بين أحضان الطبيعة طليقاً، بعيداً عن ضجيج المدن، يصعد الجبال ويعبر الأنهار ويحلق بشعره فوق السحاب، فحنت نفسه إلى الأسفار. وفي هذه الفترة التقى بالشاعر الكبير توفو (Tu Fu)، ولم يكن هذا الأخير قد ذاع صيته وسطع نجمه. وتصادق الشاعران، وعاشا في رفقة ومودة فترة طويلة، إلى أن أصبح توفو في نهاية المطاف منافساً قوياً لصديقه على عرش الشعر.

وفي سنة 757، التقى لي بو بأمير من أبناء الإمبراطور يقود حملة لإخماد تمرد في جنوب الصين، فقربه إليه ليكون شاعر الحملة العسكرية. غير أن الأمير اتهم بالخيانة وأعدم، وألقى بالشاعر في السجن، ثم أطلق سراحه.

توفى لي تاي - بو سنة 762، في منزل أحد أقاربه في شرق الصين. غير أن هناك أسطورة شعبية شائعة تروى أنه بينما كان الشاعر العظيم ذات مساء في قارب يحتسى الخمر، ويتمتع بما حوله من أجواء شعرية، وضوء القمر يتلألأ فوق سطح النهر، انحنى لي بو على حافة المركب ليعانق القمر، بل صورته التي انعكست على سطح النهر، فغاب في عناق خيالي شعري غيبة لم يعد منها.

فيما يلي ثلاث قطع من شعره، ترجمتها من اللغة الإنكليزية. ويؤكد من درسوا شعر لي تاي - بو أن أسلوبه وتعاييره نغمات موسيقية ساحرة يصعب نقلها إلى لغة أخرى.

لي تاي - بو⁽¹⁾

Li TAI-PO

أمير شعراء الصين، عرف بين الصينيين بالشاعر الرقيق؛ وعُرف صديقه ومنافسه على عرش الشعر في الصين، الشاعر توفو (TuFu) بالشاعر الحكيم.

كانت الصين مقبلة على عهد مزدهر في بداية عهد أسرة تانغ التي حكمت الصين أثناء الفترة 681 إلى 907 ميلادية.

ولد الشاعر الرقيق لي تاي - بو سنة 701؛ وغادر منزل الأسرة وهو شاب لا يتجاوز العشرين، وعاش بصحبة ناسك من أتباع ((الطاوية))⁽²⁾، وكان ذلك بداية رحلات وأسفار طويلة في حياة الشاعر.

تزوج لي بو، ولم تتوفر لديه موارد العيش فحاول الحصول على وظيفة ولم يوفق. لم يسعد في زواجه، وتركته الزوجة. وعاد إلى الترحال، ينشد الشعر ليكسب قوت يومه، ولم يكن ليضيع فرصة لاحتساء الخمر ليسلى نفسه ويغسل همومه.

وفي سنة 742 وصل إلى شانغان، العاصمة، وأخذ يبحث عن

(1) تاي - بو تعني ((النجم الأبيض)).

(2) ((الطاوية)) فلسفة دينية مبنية على تعاليم Laotse، وهي أحد أديان الصين الرئيسية.

أحضروا الخمر

انظر إلى مياه النهر كيف تتحدر من السماء، وتغوص في المحيط
من غير رجعة!

وغدائر الشعر السوداء، كيف تصبح بيضاء كالثلج.

إذا دَع المرء النشط يغامر عندما تُسَعْفُهُ الأيام، ولا تترك القدح
الذهبي ينتظر فارغا تحت ضوء القمر؛ لقد منحتنا السماء المواهب،

فلمَ لا نستغلها؟

فلنشو الخرفان، ولننحر عجلاً، ولنشحن شهيتنا! اسكب 300
قدح، واجعل منها مشرباً يدوم طويلاً؛ ودعنى أسكر إلى الأبد، دون
عودة إلى العقل.

هذا فرسى المزركش بالأزهار،

ومعطفي المصنوع من الفرو الثمين،

نادى الغلام ليبتاع بهما أقداح الخمر اللذيذة

لنُغْرِقَ فيها هموم عشرة آلاف جيل.

تشوق لا ينتهي

تشوقي إلى مدينة شانغان يتزايد؛

ها هي ذي حشرات الخريف تطنّ حول فتحة البئر؛

وجليد خفيف يلمع فوق الحصير،

وضوء المصباح يخفق، وحنيني إليها يزداد.

أرفع الستائر، تتوالى تهدياتي، أحرق في القمر،

إنه وحيد مثل زهرة بين أحضان السحب،

ومن حوله أشاهد زرقاة السماء وعمقها.

وعلى الأرض مشاهد خضراء، ومياه متراقصة ...

وبين السماء العالية والأرض الفسيحة تحلق أحزاني.

هل أنا أحلم عبر البوابة الواسعة أم أخلق فوق الجبال؟

تشوقي لا ينقطع، إنه يرهق قلبي.

أغنية شانغ - كان

عندما كنتُ صغيرة، شعري مرسلًا على جبهتي،

ألعب أمام بيتنا، أقطف الزهور؛

أتيتَ يا حبيبي على فرس من قصب،

تطوف حولي وتلقى بحبات البرقوق الخضراء،

كنا جارين في شارع، في مدينة شانغ - كان.

وعندما بلغتُ الرابعة عشرة أصبحتُ زوجتك،

وغلبني الحياء، لم أجرأ على الابتسام،

فوجهت نظري نحو زاوية مظلمة،

ولم أستجب لنداءاتك المتكررة.

وبلغتُ الخامسة عشرة، فجملتُ حاجبيَّ وضحكت،

لأنني عرفتُ أن حبنا سيبقى طاهرًا ما بقيت الحياة.

وعندما بلغتُ السادسة عشرة سافرتُ

في رحلة بعيدة عبر الجبال والمياه المتدفقة،

وغطى العشب أثار قدميك أمام بيتنا،

وجاءت رياح الخريف ... وتساقطت الأوراق ...

والآن قد حل الشهر الثامن منذ غيابك، بدأت الفراشات تحوم في

بستاننا ... وبدأ قلبي يتألم لفراقك؛

أخشى أن يُذبل الشحوب خديَّ المتألقين.

حبيبي ابعث بخبر عودتك حتى أركض

مسافات طويلة لأسعد بلقائك.

نحات من الأدب العالمي

شاعران ومؤرخ
من روما القديمة



الشهير مارك أنطونيو⁽¹⁾. وحذا الفتى هوراس (وسنه نحو عشرين سنة)، بحكم وجوده في أثينا، حذو شباب الأسر الرومانية الأرستقراطية في أثينا، فانضم إلى جيش بروتوس الذي سلمه قيادة أحد الفيالق. غير أن هوراس لم يكن من دعاة الحرب، ولا متمرساً بفنونها، فما أن اشتبك الجيشان واشتد القتال حتى رمى ترسه، وغادر ساحة المعركة. وفي النهاية انتصر أوكتفيان وحليفه مارك أنطونيو في معركة فيليببي Philippi، سنة 42 ق.م .

وعاد هوراس إلى روما (بعد صدور عفو عام)، وكانت تحت سيطرة ولي العهد أوكتفيان، الذي سيعرف بعد أن يسيطر على جميع أعدائه بالإمبراطور أغسطس. وفي روما فوجئ هوراس بأن المزرعة التي ورثها عن أبيه قد صودرت وسلمت لبعض الجنود. فسعى للحصول على وظيفة في الإدارة المالية يكسب منها عيشه.

وفي سنة 39 التقى هوراس بالشاعر الشهير فرجيل الذي قدمه بدوره إلى ماسيناس⁽²⁾، وتطورت علاقات الصداقة تدريجياً بين ثلاثتهم. وساعد ماسيناس الشاعر هوراس على التعرف على أهل الأدب والسلطة، وقدمه إلى الإمبراطور الذي عرض عليه أن يكون أمين سره، فاعتذر بلطف متذرعاً بسوء صحته، وشكر له ثقته به.

وفي منتصف الثلاثينيات أهدى ماسيناس إلى هوراس ضيعة

(1) ماركوس أنطونيوس.

(2) ماسيناس Maecenas فارس روماني اشتهر برعايته لأهل العلم والأدب، كان من أصدقاء الإمبراطور، وشمل برعايته الشعارين فرجيل وهوراس، وتوثقت بينهم علاقات الصداقة.

هوراس

Quintus Horatius Flaccus

كان هوراس قصير القامة، بديناً، لين الجانب، سريع الغضب، طيب القلب، متواضعاً، يشتهي الأطعمة اللذيذة، يشتكي من حساسية في معدته، يزعجه ضجيج روما، يفضل حياة الريف، يتمتع بصحبة الغواني. وكان غيوراً على حريته، مستقلاً في أفكاره، واقعياً ومعتدلاً في سلوكه، اشتهر بخواطره وتوجيهاته الأخلاقية، وكان شاعر روما والقيصر أغسطس بعد وفاة فرجيل.

ولد هوراس في فنوزيا (فنوزا حالياً) التي تقع في مقاطعة أبوليا، جنوب شرق إيطاليا، سنة 65 ق.م . وكان والده من الرقيق، ولكنه استطاع بعمله وجده أن ينال حريته قبل ولادة هوراس، وأن يجمع ثروة مكنته من أن يرسل ابنه إلى روما لمواصلة دراسته، ثم أرسله إلى أثينا ليدرس علوم البلاغة والفلسفة، كان ذلك عام 46 ق.م .

وفي سنة 44 ق.م . قتل الإمبراطور يوليوس قيصر، واستولى القائدان بروتوس وكاسيوس (اللذان تأمرا على قتله) على الإقليم الشرقي من الإمبراطورية (ويشمل اليونان)، فبدأت بذلك الحرب الأهلية بين جيش هذين القائدين وجيش ولي العهد أوكتفيان والقائد

واسعة على بعد نحو 35 كيلو مترا من روما⁽¹⁾، وبهذا تمكن من أن ينعم بحياة الهدوء بين أحضان الطبيعة، ويخصص جزءاً من وقته للمتعة والتسلية في مدينة روما الصاخبة، وجزءاً أكبر للتأمل والتأليف في الضيعة الهادئة، بين الظلال الوارفة، والمياه الجارية والهواء العليل.

لم يتزوج الشاعر، غير أنه لم يحرم نفسه من متع الحياة وملذاتها، ولكنه كان يفعل ذلك دون إفراط، متبعاً الطريق الوسط ومبدأ القناعة والاعتدال الذي كان ينصح به غيره.

نشر هوراس، سنة 35 ق.م مجموعة من القصائد الهجائية Satires (الكتاب الأول منها)، وهي أشبه بالمواعظ ينتقد فيها سكان روما، بمختلف طبقاتهم، ويصف أساليب حياتهم، وما شاهد في تصرفاتهم من مساوئ، مثل التهالك على جمع المال، والصراع من أجل السلطة والإفراط في إشباع الرغبات، ويسخر ممن يلهيهم الطمع عن التمتع بالحياة، وينصح بالاعتدال وسلوك سبيل الوسط.

وخلال الفترة 29-30، نشر المجموعة الثانية من الكتاب المذكور، كما نشر كتابه ((الإيبودات)) الذي يضم 17 قصيدة (شبه غنائية) ضمنها كثيراً من السخرية بما كان يشاهد من مساوئ اجتماعية.

وتجدر الإشارة إلى ما حدث في هذه الفترة من تحول في نظرة الشاعر إلى الإمبراطور أغسطس (أو أوكتيفيان). فبعد أن حقق هذا

(1) في منطقة سايبينا.

الأخير انتصاراً ساحقاً على خصمه مارك أنطونيوس، وحليفته كليوباترا، في معركة أكتيوم Actium سنة 31 ق.م. رأى هوراس أنه من واجبه أن يساند بشعره هذا الإمبراطور الذي أنهى الحروب الأهلية وحقق السلم للسكان.

وبدأ الشاعر يدعم بقصائده الجهود والمساعى التي يمارسها أغسطس من أجل إصلاح المجتمع وتحقيق الأمن والازدهار. وبدأ هذا الدعم يظهر في القصائد الغنائية odes التي ألفها خلال الفترة من 31-23. ونشر الشاعر عام 23 الأجزاء الهامة منها في ثلاث كتب تحمل العنوان المذكور. ويعالج هوراس في هذه القصائد موضوعات الحب، والجمال، والصداقة، وأسلوب الحياة بصفة عامة، ويشيد بسياسات الإمبراطور ويمجد إنجازاته.

اشتهر هوراس بكتابه ((الرسائل)). ظهر الكتاب الأول سنة 20 ق.م، وضمنه الشاعر كثيراً من التأملات والإرشادات الأخلاقية والملاحظات العملية حول الحياة، كما ضمنه نظرات فلسفية واقعية استمدتها من قراءاته وتجاربه. وهو يدعو، بصفة عامة، إلى الحياة البسيطة في ظلال الاعتدال والتوازن الأخلاقي، دون إفراط ولا تفريط. ويتألف الكتاب الثاني من رسالتين، إحداها موجهة إلى الإمبراطور، والأخرى إلى يوليوس فلوروس. وهناك رسالة ثالثة تحمل عنوان ((فن الشعر)) وهي عبارة عن نظرات حول الشعر المسرحي.

وألف هوراس، بناء على طلب الإمبراطور، ((النشيد المئوي، أو القرنى))، وذلك بمناسبة الاحتفالات التي كانت تعقد في إطار التقاليد

الدينية والاجتماعية لمباركة الأجيال الجديدة، وتقدم أثناءها الأضاحى إلى الآلهة (مثل أبولو، وديانا). وقد جرت هذه الاحتفالات، هذه المرة، تحت رعاية الإمبراطور أغسطس سنة 17 ق.م. وتغنى الشاعر في هذا النشيد القومي بعظمة الآلهة، وعظمة الإمبراطورية الرومانية وأمجادها، وأشاد بحياة السلم والازدهار التي ينعم بها الناس في ظل الإمبراطور العظيم.

وفي سنة 8 ق.م اشتد المرض على الشاعر، فأوصى بجميع ممتلكاته إلى الإمبراطور؛ ووافته المنية في شهر نوفمبر من تلك السنة، وكان عمره سبعا وخمسين سنة.

مقتطفات من قصيدة هوراس الغنائية

رقم 1⁽¹⁾

... لقد أخفى الله المستقبل في ظلمات الليل، وهو يسخر من الإنسان الذي تتجاوز مخاوفه الحدود التي رسمها له الإله بحكمته. وإذا كان بوسع المرء أن ينظم الحاضر، فإن الماضي قد جرفه نهر ينحدر بقوة نحو البحر ...

الرجل السعيد من يستطيع أن يقول كل يوم: لقد تمتعت بيومي، وليفعل الإله جوبيتر⁽²⁾ غداً ما يشاء، فليرسل سحباً سوداء، أو ليملاً السماء بشمس ساطعة. وهل يستطيع المرء أن يعيد ما أخذ الزمان؟ إن القدر أو الحظ الذي يداهنا بشدائده وتقلباته، يفاجئنا بما يسرّ حيناً، وبما يزعج طورا.

إني أحمد هذا الحظ إذا وقف إلى جانبي؛ أما إذا نفض جناحيه وتخلّى عني، فإني أتجلبب في فضائلي، وأرضى بظروف معيشية شريفة ومتواضعة. وإذا هزت رياح إفريقيا شرع مركبي، فإني لست ممن يركع ليهمس بصلوات بئيسة، متوسلاً إلى القدر ألا يلقى بحمولة مركبي في أعماق بحر لا يشبع.

بل يكفيني أن يكون لمركبي مجدافان، وأن يساعدني نسيم عليل

(1) موجهة إلى صديقه غيوس ماسيناس، ينصحه فيها بأن يعطي لنفسه حقها من المتعة والراحة من المسؤوليات التي ينهض بها، ويذكره بأن سبيل الحكمة هو أن يتحكم المرء في رغباته، وألا يحمل هموم المستقبل فيضيع الحاضر.

(2) جوبيتر، كبير آلهة الرومان.

على اجتياز بحر إيجي، والوصول إلى مرفأ آمن.

مقتطفات من إحدى رسائله (من الكتاب الثاني)

وجهها إلى يوليوس فلوروس⁽¹⁾

إن السنين في مجراها المنحدر تنزع منا مزاينا واحدة تلو الأخرى. وقد نزع مني قدرًا كبيرًا من قدراتي على التمتع بمباهج الحياة وملذاتها. وهي الآن تسعى لتتزع مني قدرتي على تذوق الشعر. فماذا تريدني أن أفعل؟....

وهناك أمر آخر: هل تعتقد حقًا أن المرء يستطيع أن يكتب الشعر في روما، وسط الضجيج والقلاقل؟ هذا شخص يطلب أن أشهد لصالحه في المحكمة؛ وآخر يرجو مني أن أحضر الجلسة التي يتلو فيها كتابه الجديد على الناس؛ أحدهم مريض في حيِّ quirinal وآخر في نهاية شارع aventino، وعليّ أن أزورهما، وأنت تعرف المسافة بين هذا الحيِّ وذاك.

وضجيج الشوارع؟ أشخاص يركضون ويتدافعون، وآخرون يسوقون بغالهم وينقلون حمولاتها، رافعة هنا وأخرى هناك لرفع الصخور أو عارضة ضخمة، جمهور يشيع جنازة تعترض طريقه عربة ضخمة، كلب مريض يركض يمينًا وشمالًا، وخنزيرة ... يغطيها الوحل، بربك هل

(1) هذه ثاني رسالة يوجهها هوراس إلى فلوروس، الذي كان يهتم بالأدب. وكان فلوروس هذا قد رافق تيبيريوس، ولي عهد الإمبراطور، في رحلة سابقة إلى أرمينيا.

بوسعك أن تسافر في هذه الشوارع وتتأمل قطعة من الشعر الغنائي؟ كلا!

... جميع الشعراء يفضلون العيش بين أحضان الطبيعة، ويفرون من المدينة؛ إنهم رفقاء باخوس، الإله الذي يحب الظلال والنوم. أتريدني أن أكتب الشعر، وأن أطلع على آثار الشعراء وسط ضجيج لا يهدأ ليلاً ولا نهاراً؟ أن أنتج قصائد غنائية في أحياء روما الصاخبة؟...

ويواصل هوراس رسالته الطويلة إلى فلوروس:

... ومع ذلك يطيب لي دائماً أن أعرف الفرق بين رجل متهور، وآخر يتقبل الحياة بصدر رحب وقلب بشوش، رجل بخيل وآخر يقتصد في الحياة بحكمة، إن الفرق كبير بين المبذر الذي يتلف ما يملك، ومن ينفق دون أسف ما ينبغي إنفاقه من أمواله، ولا يرهق نفسه لتوسيع ثروته. فلنقلد الأطفال الذين يتمتعون بعطلتهم مهما كانت قصيرة. وسأواصل أسفاري مهما كان المركب صغيراً. إننا في آخر الصف الأول فيما يتعلق بالصحة والمعنويات، والثروة والمنزلة الاجتماعية، والفضائل الأخلاقية ... ولكننا على الدوام أمام أصحاب الصف الأخير.

لست ممن يتمسكون بالجوانب المادية من الحياة، وهذا شيء جميل. ولكن هل أصلحت من أمري فيما يتعلق بالنقائص الأخرى؟ هل أخليت فكري من سراب الطموح؟ وقلبي من القلق؟ ومن الخوف من الموت؟ والسحر والساحرات؟ ... وهل صرت أسخر من الخرافات والمعجزات؟ وهل أعدّ سنوات حياتي دون أن أشكو؟

هل أنا متسامح مع أصدقائي؟ وهل أنا لطيف بشوش في علاقاتي ومعاملاتي؟ على الرغم من تقدم السن. وإذا كنت لا

أستطيع أن أعيش بحكمة، وأن أتمتع بما حولي، فالأفضل أن أترك المكان لمن هو أقدر مني ليأخذ نصيبه.

لقد لهوت كثيراً، وأكلت وشربت كثيراً، وأن لي أن أغادر المكان لغيري. وإذا أطلت الجلوس إلى المائدة، سيسخر مني الشباب، ويطردونني. فقد أصبحت كثير من المتع والملذات تليق بسنهم أكثر مما تليق بي.

★★ من الأفكار المقتبسة من رسائل هوراس:

- بما أننا محكوم علينا بالموت والعدم، فلنتمتع بكل يوم من حياتنا، ولا يفيدنا شيئاً أن نثور ضد القدر المحتوم.

- هل الثروة هي التي تجلب السعادة؟ يكفيك أن تنظر من حولك إلى من يملكون ثروات ضخمة لترى أنهم لا يقنعون أبداً، بل إنهم يعانون القلق والخوف، ويركضون وراء رغبات لا تنتهي. فلنترك الأغنياء يسبحون في لجج قلقهم، ولنقنع بالضروري.

- رغبات الإنسان وأذواقه وطموحاته تتغير وتتطور، وهو يغير مكان إقامته أحياناً آملاً أن يجد السعادة في مكان جديد. غير أن السعادة ليست في العالم الخارجي، بل إنها في داخل أنفسنا. وإذا كان التفكير السليم والحكمة هما اللذان يطردان القلق والهموم، فإنه يجدر بالمرء أن يغير أفكاره ونفسه، لا مكان إقامته.

- لا تنفك مشاعرنا وعواطفنا ورغباتنا وطموحاتنا ومخاوفنا تغير علينا بهجمات عنيفة... فلنحاول أن نسيطر على مشاعرنا، وأن نتحكم في رغباتنا، ولنستخدم الفرامل والسلاسل لكبح جماحها.

- إن الحياة الاجتماعية في المدينة تجلب للإنسان كثيراً من الانزعاج والقلق والمتاعب. إنها تلهينا عما ينبغي أن يكون هدفنا الأساسي وهو تحسين أخلاقنا ومعنوياتنا. فلنلجأ إذا إلى العيش في الأرياف حيث الهدوء، وجميع الظروف التي تساعدنا على التأمل.

- ابحث عن السعادة في الاعتدال، في السبيل الوسط، من غير إفراط ولا تفريط. وبالاعتدال يصل المرء إلى حالة نفسية تجعله في مأمن من تقلبات الحظ.

★★ كلمات من «قصائد هوميروس الغنائية»

- حبل الحياة قصير، فقسْ آمالك بحبل حياتك.

- لا تسأل عما يأتي به الغد، بل اعتبر يومك هذا هدية، واغتمم حاضرك! ولا تثق «بربما»، و«بلعل».

- الموت شبح محايد، يدق على باب الكوخ والقصر.

- هل نحن فوق الأرض غبار أم ظلال؟!

- كم من العظماء عاشوا قبل أغممنون⁽¹⁾، ضاعت أخبارهم في ظلمات القبر، لأنهم لم يجدوا شاعراً فحلاً يخلد ذكرهم.

- لا تضع جهدك في البحث عن آخر زهرة في الحقل.

- عندما يكون درب الحياة شديد الانحدار، تذكر أن تجعل فكرك مستقيماً.

(1) أغممنون، ملك أرغوس، وقائد الجيش اليوناني الذي حاصر طروادة لاستعادة الحسناء هيلين، زوجة أخيه منلاوس Menelaus.

أوفيد

OVID, Publius Ovidius Naso



شاعر الحب وفنون الغرام، وفيّ لفنه، واسع الاطلاع، خصب الخيال، عقلاني متشكك، مرح دمّث الأخلاق، موسر الحال، على قدر من الوسامة، أعتبر شاعر روما بعد وفاة هوراس، وكان لشعره تأثير كبير على الأدب في أوروبا.

ولد أوفيد سنة 43 ق.م ، في مدينة سولمو، (أسمها الحديث سولمونا)، تقع على بعد 140 كيلو مترا شرق روما. ينتمي أوفيد إلى عائلة عريقة موسرة. أرسله أبوه إلى روما ليواصل تعليمه في مجال القانون وفنون الكلام والبلاغة. وكان أوفيد ينتمي إلى طبقة الفرسان، فأراد له أبوه أن يسلك سبيل الوظيفة العامة في الدوائر الرسمية. غير أن الفتى لم يظهر رغبة كبيرة في هذا الميدان. وكان عمره 18 عاماً عندما قام برحلة إلى أثينا، حيث مكث فترة، ثم زار آسيا الصغرى، وصقلية.

تولى أوفيد بعض الوظائف القضائية في المحاكم، ولم يرق له ذلك، فقرر أن يوجه اهتمامه إلى الشعر والأدب، وانضم إلى أحد النوادي الأدبية كان يرعاه ميسالا Messala، وصادق بعض الشعراء مثل هوراس (الذي كان يكبره بنحو 22 سنة)، وبروبرتيوس Propertius، وتيبولوس Tibullus.

- لن يأخذني الموت كلياً، بل سيفلت من قبضته أفضل ما في كياني.
- بنيت لنفسي تمثالاً أشد مقاومة للزمن من البرونز.
- من يسر على درب القناعة، لا يهمله ما في داخل القصور.
- سعيد من يقول لنفسه: لقد تمتعت بيومي هذا، أما غداً فسيأتي الإله بسحب نافعة، وشمس ساطعة.

وعاشر أوفيد شلة كانت تنعم بحياة اللهو والمجون، ومرافقة الحسناوات، وبدأ الشاعر يتغنى بالغزل والغرام، والعاشقين والعاشقات، في ظلال الترف والملذات. وساعدته على ذلك ظروفه المادية والعائلية، وإقبال الناس على قصائده الغرامية، واختار أن يندمج في مجتمع المتع واللهو والمسرات والمجون. وتزوج الشاعر مرة أولى وثانية، ويبدو أن الزواج لم يحقق له ما كان يطلبه من الانتعاش والحب والاستقرار.

وكانت الموضوعات التي يتناولها أوفيد في قصائده تختلف عن موضوعات تناولها من سبقوه، مثل فرجيل وهوراس، وذلك فيما يتعلق بأشعاره التي كتبها قبل سن الأربعين. وقد كان سكان روما من مختلف الطبقات يتمتعون بما يمدهم به من قصائد الشعر الغرامي، وكانت له علاقات طيبة مع جميع من صادقوه وأحبوا فنه، باستثناء بعض العائلات المحافظة.

أما الشاعران فرجيل وهوراس وأمثالهما من الجيل السابق، ممن عاشوا ويلات الحرب الأهلية (قبل أن يسيطر الإمبراطور أغسطس على السلطة) فقد كانوا ينظمون قصائد، ويتناولون موضوعات قومية تشيد بما حققه الإمبراطور، وتدعم مساعيه الرامية إلى إصلاح الأوضاع الاجتماعية والأخلاقية. أما أوفيد الذي لم يعان من مساوئ تلك الحرب، فلم يهتم، حتى سن متأخرة، بنظم قصائد تساند إصلاحات الإمبراطور وتمجد إنجازاته. بل على عكس ذلك، كان أسلوب حياة الشاعر وأشعاره تتنافى أحياناً مع المساعي التي تبذلها السلطات لإحياء التقاليد البطولية والأخلاق الفاضلة.

وتقدمت السن بالشاعر، زاد نضجه، فبدأ يفكر في تناول موضوعات أوسع نطاقاً من قصائد الغرام، قصائد يتناول فيها تاريخ روما وأمجادها وتشيد بإنجازات الإمبراطور.

تزوج الشاعر للمرة الثالثة، وكان حظه هذه المرة أوفر فنعم (إلى حين) بعلاقات زوجية فيها كثير من الود والاستقرار. ورفع هذا التغيير في تفكيره وموضوعات شعره مكانته، وزادت سمعته انتشاراً، بعد وفاة الشاعر هوراس، فأصبح شاعر روما الأول.

ومن المفيد أن نلقي نظرة سريعة على عدد من مؤلفات أوفيد، قبل أن نتحدث عن الظروف السيئة التي عانها في السنوات الأخيرة من حياته.

– AMORES : أول مجموعة من القصائد الغزلية الغرامية ألفها الشاعر سنة 23 ق.م . ويصف أوفيد في هذه القصائد علاقاته الغرامية مع فتاة تدعى كورينا Corinna. ولعل هذه الفتاة ترمز في خيال أوفيد إلى عدد من النساء اللواتي تغني بمحاسنهن وتمتع بعلاقات حميمة بين أحضانهن.

– ARS AMATORIA (فنون الغرام) نشر أوفيد هذه المجموعة سنة واحد ق.م، ويصف فيها أساليب الحب والعشق والإغراء والمجون، وحيل الغواية في العلاقات الغرامية. وقد ساعدت هذه القصائد على شهرته، ولقيت رواجاً كبيراً لدى أهل اللهو والمجون، غير أنها في نهاية المطاف أثرت سلبياً على سمعته لدى العائلات المحافظة، وذوى

السلطة ممن يخشون تأثيرها على سلوك شبابهم وتقاليدهم.

REMEDIA AMORIS (علاج الحب) نشره أوفيد بفترة وجيزة بعد كتابه السابق. موضوعه وأسلوبه مرتبط ارتباطاً وثيقاً بما قدم الشاعر في الكتابين السابقين في مجال العلاقات الغرامية.

EPISTULAE HEROIDUM (رسائل الحب) وهي مجموعة من الرسائل (الخيالية) أرسلتها نساء عاشقات شهيرات إلى عشاقهن، مثل هيلينا Helen (في حكاية طروادة)، وبنلوب زوجة أوليس (الشهير في قصة "الأوديسة" لله)، وعليسة (مؤسسة قرطاج). وقد استوحى أوفيد هذه المراسلات من الأساطير.

وألف أوفيد كذلك كتاباً عن "أساليب التجميل ووسائله لله؛ وكتاباً ضاع، عنوانه ميديا Medea.

FASTI (التقويم الروماني) ويتضمن هذا الكتاب اثني عشر جزءاً حسب عدد الشهور. ولم يبق منه سوى الأجزاء الستة الأولى. ويتناول فيه الأحداث التاريخية والأعياد الدينية، والاحتفالات الرومانية التقليدية، كما يشمل موضوعات قومية، وجميعها مستلهمة من التاريخ والأساطير. وكان الشاعر يهدف من نظم هذه القصيدة الطويلة إلى الإشادة بمنجزات الإمبراطور أغسطس والأسرة الحاكمة، وتمجيد الأفكار والمساعي التي رسمها لإصلاح شؤون

البلاد، ومن ثم إلى تحسين صورته في نظر السلطات بعدما عرف عنه من عدم المبالاة بالقيم الأخلاقية والتقاليد الرومانية العريقة. وقد ألف أوفيد هذا الكتاب خلال الفترة من سنة 1-8 ميلادية، وذلك بعد أن تجاوز سن الأربعين، وقرر أن يتناول موضوعات تاريخية قومية.

METAMORPHOSES (التحولات) ألف أوفيد هذا الكتاب أثناء الفترة المذكورة (1-8م) وبنفس الدوافع وللأهداف ذاتها. ويعتبر أهم مؤلفاته. ويتضمن هذا الكتاب 15 جزءاً، وهو عبارة عن قصيدة طويلة تناول فيها الشاعر مجموعات واسعة من الحكايات والقصص الخيالية التي استوحاها من الأساطير والخرافات اليونانية والرومانية ذات المغزى، ووصف فيها ما حصل من تغييرات وتحولات سببتها الآلهة والقوى الخفية منذ بدء الخليقة، مع تحليل الحوادث العظيمة مثل خلق الإنسان، وحادثة الطوفان ... ويواصل سرد الحوادث إلى عهد وفاة الإمبراطور يوليوس قيصر، وتولى أغسطس زمام الحكم، مشيراً إلى ما حققه من سلم وازدهار، وما يسعى إليه من إصلاحات لخدمة الإمبراطورية.

ولم يكد أوفيد ينتهي من تأليف كتابيه: "التقويم الروماني"، و"التحولات"، وينعم بهذا الإنجاز العظيم، في سنة 8 ميلادية، عندما بلغ ذروة شهرته، وأصبح يعتبر شاعر روما الأول، حتى استدعاه الإمبراطور أغسطس ذات يوم، وبعد توبيخ شديد، أصدر إليه الأمر

بمغادرة روما خلال ثمانية أيام، دون رجعة. فنزل عليه الخبر كصدمة أذهلته ودمرت أحلامه ومستقبله.

لقد قضى أوفيد نحو نصف قرن بين الأصدقاء والمحبين والحسنات مكرماً في ظلال الشهرة والمتع وحياة الترف، في بيئة روما بقصورها وحدائقها ومناخها المعتدل ... وها هو الآن ينفي إلى قرية نائية موحشة باردة، هي قرية (أو مدينة) تومي Tomis التي تقع بالقرب من مصب نهر الدانوب، على ضفاف البحر الأسود، في أقصى حدود الإمبراطورية، ويسكنها قوم غلاظ قساة⁽¹⁾. ولعل الشاعر كان يفضل أن يحكم عليه أغسطس بالسجن المؤبد في روما، بدلاً من أن يبعده إلى حيث يموت موتاً بطيئاً.

ودّع الشاعر زوجته وأصدقاءه، وأبحر من ميناء أوستيا Ostia، قرب روما، في أواخر سنة ثمانية ميلادية؛ وترك زوجته على أمل أن تتصل بالأصدقاء من ذوى الجاه ليتوسطوا لدى الإمبراطور عسى أن يخفف على أوفيد هذا الحكم القاسي. وقد عانى أثناء سفره الطويل متاعب كادت تودي بحياته، وسرق منه ماله وما كان بحوزته من متاع ثمين. وأخيراً وصل إلى مقر منفاه في ربيع العام التالي.

وتجدر الإشارة إلى أن قرار النفي اتخذته الإمبراطور شخصياً، وعلى الرغم من قساوته، فإنه لم يحرمه من أملاكه، ولا جنسيته، ولم يمنعه من نظم الشعر، ولا من مراسلة أهله وأصدقائه في روما. ولكن أغسطس أمر بإبعاد مؤلفات الشاعر من المكتبات والمراكز الثقافية

(1) قرية تومي هي مدينة Constanta حالياً في رومانيا.

العامة. ويلاحظ أن الإمبراطور نفى حفيدته جوليا كذلك. فهل كان سلوك أوفيد وقصائده المجونية علاقة بإبعاد حفيده الإمبراطور؟ وهل شجعها ذلك على غرامياتها التي جلبت عليها سُخط جدها؟

وبما أن الشاعر كان له علاقات ودية طيبة مع العائلة المالكة، فهل حدث أن أطلع على أسرار تمسّ شرف الأسرة وحرمتها؟ أم هل أدلى برأي أو اتخذ موقفاً معادياً لولي العهد تيريوس؟ وهل كان السبب الأول في نفيه هو ما تضمنته أشعاره من مجون وتشجيع على الانحلال الأخلاقي؟ ولا شك أن هذا السلوك كان منافياً لأذواق الأسر المحافظة، وكذلك لمساعي الإمبراطور الرامية إلى إصلاح المجتمع الروماني.

ويشير أوفيد نفسه إلى أن سبب نفيه يكمن فيما تضمنه كتابه "فنون الغرام" من هزل ومجون وغزل، كما يذكر أنه ارتكب خطأً آخر، من غير أن يوضح طبيعة هذا الخطأ.

ومهما كانت الأسباب التي دفعت الإمبراطور إلى إصدار حكمه القاسي على شاعر روما، بنفيه إلى تلك القرية الكئيبة، فلا شك في أن أوفيد ارتكب خطأً لا يغتفر في نظر أغسطس والعائلة الحاكمة. ولم تُجدّ توسلات الشاعر وقصائده التي أرسلها من منفاه، وشرح ما يعانيه من ظروف قاسية في ذلك المكان الموحش؛ كما لم تتجح توسلات من حاول التوسط له لدى الإمبراطور ولا لدى خلفه تيريوس.

وخلال الفترة التي قضاها أوفيد في تومي، من 8 إلى 17 ميلادية، نظم مجموعة من القصائد في كتاب عنوانه Tristia "الأحزان"، وألف كتاباً آخر عنوانه Epistulae Ex Ponto "رسائل من

البحر الأسود)، ويتضمن الكتابان قصائد أرسلها الشاعر إلى زوجته وأصدقائه، والإمبراطور، يشرح فيها آلامه وأحزانه ومعاناته وسوء مصيره، متوسلاً إلى أغسطس وتبيريوس للعضو عنه، ولكنه عاش في منفاه وحيداً، ولم يشاهد زوجته، إلى أن وافته المنية سنة 17 ميلادية. ونقلت رفاته إلى إيطاليا حيث دفنت بمكان قريب من روما التي طالما اشتاق إليها في منفاه، وكم تمنى أن يعود إليها حياً.

من بنلوب Penelope⁽¹⁾ إلى أوليس Ulysses⁽²⁾ من كتاب أوفيد «رسائل الحب»

أخشى أن يكون سبب غيابك الطويل هو ما تزخر به الأرض من أخطار، وما تخفيه البحار من مفاجآت. وبينما تشغل نفسي هذه الأفكار الجنونية، ربما يكون سبب طول غيابك حباً جديداً شغل قلبك في مرفأ بعيد. ولعلك تتحدث بسخرية عن بساطة زوجتك التي لا تحسن سوى تنظيف الصوف.

ولكن أرجو أن تتبخر هذه الأوهام، ويتأكد لي أن طول غيابك ليس بمحض إرادتك. إن أبي إكار يلح عليّ بأن أغادر المنزل الذي هجرته، وهو قلق لغيابك الطويل. أما أنا فلا أريد أن أكون لغيرك، أجل زوجتك Penelope لن تكون لغيرك أبداً. وقد بدأ أبي يخفف من إلحاحه عليّ بعد أن سمع صلواتي المتواضعة، وأحسّ بما في قلبي من مشاعر طيبة.

غير أن حولى جماعة من الطامعين الوقحين، ما زالوا يطوفون بالقصر، ولم يجدوا أمامهم من يقاوم وقاحتهم. جاءوا يخطبون

(1) بنلوب، زوجة أوليس.

(2) أوليس (اسمه اليوناني Odysseus) ملك جزيرة إيثاكا Ithaca، وزوج بنلوب. اشترك في حرب طروادة، إلى جانب اليونانيين. وبعد انتهاء الحرب، وهو في طريق عودته إلى مملكته، واجه مغامرات غريبة، ووصل حتى سواحل شمال إفريقيا. وأخيراً عاد إلى بلده بعد عشرين عاماً ظلت خلالها زوجته وفيه له. وحكاية مغامراته مفصلة في الأوديسة التي ألفها هومروس.

ودى، ويتنافسون على رزقك. وقد شجعهم طول غيابك، فهم يحاولون الاستيلاء على رزقك الذي حزته ببذل دمك. نحن في هذا المنزل ثلاثة: زوجة ضعيفة، وابنة الفتى Telemaque، والشيخ Laërte، ولا قوة لنا لمواجهة هؤلاء الطغاة. أما الشيخ فلا قدرة له على حمل السلاح والمحافظة على ملكك في وجه الأعداء؛ وأما ابنك فإنه يزداد قوة بمرور السنين، ولكنه في الوقت الحاضر في حاجة إلى وجودك إلى جانبه.

عُد إلينا على جناح السرعة، فأنت ملجؤنا ومرفاً أماننا ونجاتنا. إن لك ولداً، حفظه الله، ينبغي أن ينشأ في ظلال حكمة أبيه، فكر كذلك في الشيخ Laerte الذي ينتظر عودتك لتغمض عينيه وتسدل الستار على وجهه. أما زوجتك الوفية، فقد تركتني يوم سفرك في ريعان الشباب، والآن، بعد غيابك سنين طويلة، فمهما كان رجوعك وشيكاً، سأبدو لك عجوزاً.

من عليسة⁽¹⁾ Elissa إلى إنياس Aeneas⁽²⁾

من كتاب أوفيد «رسائل الحب»

هذا نشيد عليسة ترسله إليك، وهي تلفظ أنفاسها، وقد انقطع أمني في أن تعود إليّ.

قررت أن تبعد عن عليسة الحزينة. فضلت أن تجرى الرياح بمراكبك، وأن تعصف بوعودك. سافرت تبحث عن مملكة في إيطاليا، مملكة تجهل حدودها؛ وتركت مملكة قرطاج الناشئة التي سلمتكم مفاتيحها. تركت ملكاً جاهزاً لتبحث عن ملك في علم الغيب ... بقى عليك أن تجد حباً آخر، عليسة أخرى.

متى يأتي اليوم الذي تشيد فيه مدينة مثل قرطاج؟ وتنتظر من أعلى شرفات القصر إلى الجماهير الخاضعة لسلطانك. ومتى ستجد زوجة مثلي؟ إنني أحترق مثل مشعل من شمع.

ما زلت يا إنياس ماثلاً أمام عينيّ. ما زالت الأيام والليالي تلاحق صورتك وتقربها إليّ، إلى قلبي وروحي.

(1) عليسة (أوديون كما عرفت بعد ذلك) ابنة ملك صور؛ بعد أن قتل زوجها، غادرت المدينة برفقة عدد من أصدقائها وأسست مدينة قرطاج الشهيرة.

(2) إنياس بطل الإنياذة لمؤلفها الشاعر الروماني فيرجيل، تحكى مغامرات البطل بعد سقوط مدينة طروادة، وكيف وصل إلى قرطاج، ووقعت عليسة (ديدون) في حبه.

وبعد أن أنكرت جميع ما قدمته إليك، كان عليّ أن أنسأك لو كنتُ
أملك قلبي وأتصرف بعقلي. إنني لا أكرهك، ولكنني أشكو الخيانة.
غير أن شكواي تقربك إلى قلبي أكثر من ذي قبل.

أطلقت أشرعة مراكبك للرياح، وكم من خطر يهددك في
ظلمات البحار. لا تنس أن الأمواج تعاقب من يخون الوعود، وتنتقم
للحب الجريح.

أخشى أن تبتلعك الأمواج. أفضل أن تعيش ولو كنت بعيداً عني،
على أن أبكيك ميتاً. بل أفضل أن تكون أنت سبب وفاتي.

مراحل تاريخ الإنسان من كتاب أوفيد «التحويلات»

المرحلة الأولى في تاريخ الإنسان هي مرحلة العصر الذهبي، لم
تكن أنتد قوانين لضبط سلوكه ولا قوات أمن. كان الإنسان يتصرف
بغفوية، ويعيش في أمن وسلام، لا يعرف العقوبات، ولا يرهب وجه
القاضي العبوس، ولا عصى الشرطي القاسي.

ولم يكن في حاجة إلى قطع أشجار الصنوبر، ونقلها إلى سواحل البحر
لصنع المراكب من أجل اكتشاف عوالم مجهولة. ولم يكن أهل ذلك العصر في
حاجة إلى بناء ثكنات تحوط بها خنادق عميقة، ولا إلى السيف والخوذة
وأبواق الحرب.

وكانت الأرض تخرج خيراتها من غير أن يخذش أديمها المحراث
أو تحفر سطحها الفؤوس. وكانت تجري بين أشجارها أنهار من
أصناف الشراب اللذيذ، وكانت قطرات العسل تتساقط من أشجار
البلوط، وكان يكسو الطبيعة ربيع مستديم.

وتلا ذلك المرحلة الثانية التي عرفت بمرحلة العصر الفضي، أقل
من قيمة العصر الذهبي، ولكنها أفضل من العصر الذي تلاها. وأثناء
هذه المرحلة عمل الإله جوبتر⁽¹⁾ على تقليص فصل الربيع، فجعل في

(1) Jupiter: كبير آلهة الرومان.

السنة فصولاً أربعة. ظهرت لأول مرة على سطح الأرض رياح ساخنة وثلوج متجمدة. وبدأ الناس يسكنون الكهوف والمغارات ويحتمون بأغصان الأشجار الكثيفة؛ كما شرعوا في حرث الأرض وزراعة البذور.

جاء بعد ذلك جنس آخر من البشر، عاش في عصر البرونز، كان يتصف بأخلاق شرسة، ويميل إلى استخدام السلاح، غير أن الناس في ذلك العصر لم يصلوا بعد إلى درجة العنف الإجرامي.

وفي العصر الرابع، وهو عصر الحديد، بدأت تظهر جميع أشكال العنف، وانتهاك الحرمات. اختفى الوفاء والشرف والأمان والصراحة، وحل محلها الغش والخداع والمكر. وتسابق الناس إلى الاستيلاء على شؤون الدنيا، وتنافسوا على حيازة الممتلكات.

وركب البحارة الأمواج وانطلقوا نحو مناطق مجهولة؛ وسارع الناس إلى استغلال خيرات الأرض، وصنعوا معدن الحديد، وتنافسوا على اكتساب الذهب، وتشابكوا في نزاعات وحروب مستغلين أسلحة الحديد، ذا البأس الشديد، وسلاح الذهب الأشد فتكا بالأرواح والقلوب.

اختفى الأمان، وساد الخوف، وأصبح المضيف يخشى ضيفه، والنسيب نسيبه، والزوج زوجته، والزوجة زوجها، فالابن يسأل عن سن أبيه قبل وفاته... وفرت العذراء Astrée، رمز العدالة، بعد أن لطح البشر وجه الأرض بدماء بني جنسهم.

تاسيتوس (كورنيليوس)

Tacitus (Cornelius)

ولد تاسيتوس سنة 56 ميلادية، ولا يعرف مكان مولده بدقة، ربما في شمال إيطاليا. تلقى تعليماً جيداً في ميدان اللغة والأدب والبلاغة، وغير ذلك من العلوم التي أهلته ليكون إدارياً ماهراً. وقد بذل جهداً كبيراً ليحقق طموحه. واشتهر بالخطابة، ويشهد له بأسلوبه البليغ (كتب باللغة اللاتينية).

تزوج عام 77 ابنة الجنرال أغريكولا⁽¹⁾، وارتقى تدريجياً إلى مراتب هامة. تولى منصب بريطور؛ وعين قائداً لإحدى فصائل الجيش على حدود نهر الراين؛ وأصبح عضواً في مجلس الشيوخ. وتولى منصب قنصل أثناء حكم الإمبراطور نيرفا. وفي سنة 112 عين والياً (حاكماً) على منطقة آسيا الصغرى.

وقد حكم الإمبراطورية الرومانية أثناء حياة تاسيتوس تسعة أباطرة. وأثناء حكم دوميتيان Domitian، شاهد الكاتب ما ارتكبه هذا الإمبراطور الطاغية من كبح للحريات وتكيل برجال مسؤولين من أصدقاء تاسيتوس وغيرهم. وكان مثل كثير غيره خائفاً على حياته

(1) الجنرال Agricola (حمو الكاتب) حكم بريطانيا من عام 77 حتى 84 ميلادية. وبعد أن وسع الاحتلال الروماني في بريطانيا عزل من عمله فعاد إلى روما، وفضل أن يعتزل السلطة.

مضطراً للسكوت. وتركت تلك المشاهد المرعبة تأثيراً عميقاً في نفسه.

ألف تاسيتوس رسالة عن حياة القبائل الجرمانية وموطن سكنهم وتقاليدهم تعرف بعنوان "جرمانيا". وله كتاب "التواريخ" سجل فيه الحوادث من عهد الإمبراطور Galba حتى وفاة دوميتيان. وألف كتاب "الحوليات" وصف فيه الاضطرابات التي حدثت في روما من وفاة الإمبراطور أغسطس إلى نهاية حكم نيرون سنة 68 للميلاد.

ومما يؤخذ على هذا المؤرخ، فيما سجل من جوانب حياة الإمبراطورية الرومانية أثناء القرن الأول للميلاد، أنه كان يخلط "التاريخ" بملاحظاته الشخصية وآرائه الأخلاقية، ولا يلتزم بالموضوعية التاريخية، خاصة عندما يسجل استبداد الأباطرة وجرائمهم.

وأورد فيما يلي نبذة من رسالته "جرمانيا" التي وصف فيها حياة القبائل الجرمانية (البربرية) ويقارن ذلك بحياة الرومان وسلوكهم. وقد استرعى اهتمامي إلى هذه الرسالة تعليق في إحدى القنوات التلفزيونية، مفادة أن بعض زعماء النازية في عهد هتلر اهتموا بما كتبه المؤرخ الروماني عن هذه القبائل، واعتبروه شهادة قوية على نقاوة عرقهم، وأن هتلر طلب من موسوليني أن يعيد إلى ألمانيا مخطوطاً قديماً من الرسالة المذكورة يعود تاريخه إلى القرن الثامن. وعد موسوليني بإعادته، غير أن المخطوط بقي في إيطاليا.

يشير المؤلف، تاسيتوس، في رسالته "جرمانيا" إلى أن القبائل الجرمانية (البربرية) ليس لها حضارة ولا كتابة، ولا فنون ولا يستخدمون النقود، وليس لهم مدن، بل يقطنون أكواخاً مبعثرة هنا وهناك. يعيشون في ظروف قاسية من الفقر والجهل وقساوة المناخ.

وهم لا يهتمون كثيراً بمعدني الفضة والذهب، بل يفضلون استعمال الأواني الفخارية؛ ويندر استخدام معدن الحديد مع أنه أساسي لصنع السلاح.

ويكسبون معيشتهم من تربية الماشية، وقليل من زراعة الحبوب، ذلك لأن الرجل الجرمانى ليس له صبر على استغلال الأرض وانتظار فصل جني المحصول. وبدلاً من كسب معيسته بالعرق وطول الانتظار، يفضل كسبها بالطرق العاجلة مثل الصيد، والسلب والقتل ... فبدلاً من عرق الجبين يفضل الكسب ونيل الشهرة بسفك قليل من دمه. ولذلك فهو يخرج أحياناً من قبيلته ويلتحق بقبيلة أخرى جرمانية ليشارك في المعارك.

ويقول المؤرخ تاسيتوس إنه يغلب على أخلاق هذه القبائل الشجاعة والشهامة، والوفاء للأسرة، والتفاني في الدفاع عن القبيلة، وعفة النساء، وأنهم يقدسون حريتهم، ويحترمون القائد والرئيس، ولكنهم يحافظون على كبريائهم، ولذلك فإن المسؤولين يضربون المثل للسكان بالعمل والتفاني، وليس بإعطاء الأوامر.

ويقارن المؤلف بين سلوك هذه القبائل وعاداتها، وما في حياتهم من أخلاق البداوة الصافية البسيطة من شدة البأس، وخشونة العيش، والوفاء للقبيلة، والاستهانة بالتضحيات، والاستماتة في القتال، واحترام المرأة وعهود الزواج ... بما وصلت إليه أخلاق الرومان من فساد وترف وانحلال ونفاق وسعي وراء الملذات والمكاسب الشخصية.

وبصد الحديث عن أسلوب الحكم والسلطة، يشير تاسيتوس إلى أن القبيلة تختار الملك لنبل مولده، والقائد بشجاعته، وأنه بالنسبة

للقضايا البسيطة، يكفي أن يجتمع زعماء القبيلة، أما المشاكل والقضايا الهامة، فبعد أن يتداول المسؤولون في الأمر، تنشر الدعوة إلى جميع السكان للاجتماع. وتعطي الكلمة للملك أو الرئيس أو القائد بناء على سنه ومركزه وبلائه في الحروب. ويعبر الحاضرون عن موافقتهم بصليل أسلحتهم؛ وعن رفضهم بالزمجرة ورفع الأصوات.

ويتداول الحكام والجمعية القبلية في شؤون الحياة العامة ودعاوي الجرائم الكبيرة مثل الخيانة الكبرى، والفرار من ساحة الحرب، والفسوق المخزي مثل اللواط ... ففي حالة الفرار من المعركة يعاقب الشخص بأن يشنق على غصن شجرة ليشاهده جميع السكان؛ أما في حالة الفسوق والرذيلة المخزية، فيوضع المحكوم عليه مقيداً في الوحل، وتوضع فوقه حزمة من الأغصان حتى يموت. ويرمز هذا المشهد إلى أن الشخص الذي أغرق نفسه في الرذيلة ينبغي أن يموت غرقاً في الوحل.

ويذكر المؤرخ أن هؤلاء القوم ذوو شجاعة وبأس شديد، يهرعون إلى الغارات والقتال كلما سنحت لهم الفرصة. وبما أنهم لا يصنعون الحديد، فإن السيوف قليلة لديهم مقارنة بأسلحة الجيش الروماني. وتكمن قوتهم أساساً في الهجوم السريع وبقوة تقوم به صفوف المشاة المتراسة. وعند تنظيم صفوف القتال يُجمع أفراد الأسرة والأقارب جنباً إلى جنب؛ وتكون النساء بمقربة لرفع معنويات الرجال وتضميد جراحهم. ومن لا يتحمس للهجوم ويستमित في القتال وهو يسمع زوجه وأولاده يصرخون؟ وكيف يتخاذل الرجل في المعركة وهو يشاهد أمه وأخته وبناته يؤخذن أسيرات؟

ويقاتل القائد وفرقته من أجل النصر، ويتفانى المحاربون

الجرمان في المعركة لحماية قائدهم. وإذا سقط القائد في ساحة القتال، فإن كل من يترك المعركة يحكم عليه بالموت، أو يعيش حياة الخزي والعار. ويشير تاسيتوس إلى أن من أسباب ضعف هذه القبائل، رغم ما يمتاز به أفرادها من شجاعة، قلة السلاح الفعال، وعدم توحيد قياداتها، وقلة مواردها. ويذكر أن الرومان ظلوا، منذ أكثر من مائتي سنة، يحاولون إخضاع هذه القبائل الجرمانية (البربرية) دون جدوى.

ولعله مما أثار اهتمام دعاة "صفاء العرق" الجرمانى، بصفة خاصة، ما أورده المؤرخ الروماني في رسالته من أن أفراد القبائل الجرمانية لم يختلطوا في زواجهم مع أجناس أخرى، وأن الدم الجرمانى وحده ظل يجري في عروقهم، وأشار إلى التشابه في سماتهم البدنية مثل زرقة العيون وحمرة الشعر، وطول القامة وغير ذلك.

وفي معرض الحديث عن عادات الزواج يذكر تاسيتوس أن الرجل يتزوج امرأة واحدة، باستثناء كبار المسؤولين ممن تعرض عليهم نساء ليتزوجوهن، نظراً لمركزهم وشهرتهم ومسؤولياتهم في القبيلة. ويكون مهر الزوج لزوجته عادة زوجاً من البقر، فرساً، سيفاً، ترساً أو أي سلاح آخر. وتجلب الزوجة لزوجها مهراً من نفس النوع إن استطاعت.

ولا يفوت رجال القبيلة أن يقيموا حفلات صاخبة يكثرون أثناءها من تناول مشروب الجعة، في مناسبات الزواج والاحتفال بالنصر، أو بعد انتخاب الرؤساء ... وقد تثار خلال هذه الاحتفالات مشادات ونزاعات عنيفة.

نقحات من الأدب العالمي

رجل لاهوت، رجل دولة،
وأديبان من إيطاليا



ثقافية واسعة، خاصة في ميدان الفلسفة واللاهوت. وأثناء وجوده في هذه الجامعة انضم إلى جماعة الدومينيكان واعتنق مبادئهم، وكان هذا قراراً هاماً في حياته.

وقرر المسؤولون في هذه الجماعة إرساله إلى باريس ليواصل تعليمه، لما شاهدوا فيه من حرص وجدّ وذكاء، غير أن عائلته لم توافق على سفره، وطلبت أمه من إخوته أن يمنعوه من السفر، فاخطفوه وسجنوه في قصر روكاسيكا المذكور طيلة سنة (كان سنّه نحو 20 عاماً). ولكن أمّه رضخت لطلبه في نهاية الأمر، لما شاهدت من إلحاحه على السفر. فالتحق توما بجماعة الدومينيكان في باريس، وأخذ العلوم على يد الأستاذ الشهير ألبير الكبير.

انتقل توماً إلى مدينة كولوني حيث نشط في مجال التعليم من 1248-1252؛ ثم عاد إلى باريس للدراسة من أجل الحصول على شهادة الماجستير في علوم اللاهوت. وفي عام 1256 شرع في تدريس علوم الدين في معهد تابع لجماعة الدومينيكان في باريس. وفي سنة 1259 سافر إلى إيطاليا، عندما عين مستشاراً في علوم اللاهوت، وتولى التدريس في عدد من المعاهد الإيطالية التي أنشأها الديوان البابوي.

وكان توما يحاول في كتاباته أن يجدَ قدرًا من التوافق والتكامل والانسجام بين العقائد والمبادئ المسيحية وبين الأفكار الفلسفية (مثل أرسطو وابن رشد) التي بدأت تنتشر آنئذ في أوساط المثقفين، وفي عدد من الجامعات الأوروبية. ومن هذه الأفكار أن الحقائق العلمية والنظريات الفلسفية ليست بالضرورة متوافقة مع المعتقدات الدينية والمبادئ اللاهوتية.

القديس توما الأكويني

Saint Thomas Aquinas

وصف القديس توما الأكويني (أو تومس أكويناس) بأنه راهب متواضع، هادئ الطبع، بشوش، كريم، ذو بدن ضخم، شبه بالثور (الأشقر) لأنه من أصل ألماني. كان ذا ذاكرة حادة وعزيمة لا تكل في مجال الدرس والبحث والكتابة. وكان يكثر من الصلاة والدعاء، زاهداً في المناصب والمظاهر التي تشغل الناس.

ولد توما (أو تومس) ⁽¹⁾ في قصر روكاسيكا الذي كان يملكه أبواه بالقرب من "أكوينو" (ومن ثم لقب "الأكويني")، في جنوب إيطاليا، في منتصف الطريق بين روما و نابولي. وأرسل الفتى إلى دير مونتي كاسينو، القريب من مسقط رأسه ليتلقى تعليمه الابتدائي، على أمل أن يصبح يوماً ما راهباً.

وعندما بلغ 15 سنة من العمر انتقل إلى جامعة نابولي، حيث درس مواد عديدة منها الهندسة والمنطق وعلم الفلك والموسيقى. وكانت هذه الجامعة تضم بين أحضانها عدداً من العلماء، ونشاطات

(1) سنة 1224 أو 1225.

ولم يكن الرهبان وعلماء اللاهوت من المسيحيين، في ذلك العهد، قد اعتادوا على تدخل العلم والفلسفة والتفكير العقلاني في مسائل العقائد الدينية، وكانوا يرون أن العقائد مصدرها الوحي الإلهي، ولا يجوز النزول بها إلى مستوى مقارنتها (ودعمها) بأفكار هي من صنع الإنسان.

وفي سنة 1268 طلب من توما أن يعود إلى باريس، مرة أخرى، ليدخل في المعركة الجدالية بين من يحبذون اللجوء إلى قدر من الفلسفة والأفكار العقلانية لشرح ودعم بعض المعتقدات الدينية، وبين من يرفضون مقارنة علم الإنسان بما ينزل به الوحي. وجرّد هذا العالم قلمه ليتصدى لمن ينتقدون محاولاته الهادفة إلى التوفيق بين العقائد المسيحية وعدد من الأفكار الفلسفية، وليجادل من يرفضون خلط حقائق الإيمان بالحقائق العلمية والفلسفية.

وفي عام 1272 طلب منه الدوق شارل الأول دانجو⁽¹⁾ أن يعود إلى إيطاليا، ليتولى تنظيم جامعة نابولي. بعد ذلك، سنة 1274، طلب منه البابا غريغوري العاشر أن يسافر إلى مدينة ليون، ليشترك في مجلس ليون (فرنسا) الذي كان يسعى إلى المصالحة بين الكنائس اللاتينية والكنائس اليونانية. غير أن توما الأكويني أصيب بوهن وهو يمتطى بغلة، في الطريق بين نابولي وروما، فتوقف عن السفر، وتوفي في السنة المذكورة، ولم يتجاوز التاسعة والأربعين من العمر. وضمّ اسم توما الأكويني (تومس أكويناس) إلى سجل القديسين سنة 1323.

(1) حكم نابولي وصقلية، ورافق أخاه لويس التاسع، ملك فرنسا، في حملته الصليبية ضد مصر 1248 - 1250.

كان القديس توما الأكويني من أكبر علماء العقيدة المسيحية في القرون الوسطى⁽¹⁾. وقد اطلع على مؤلفات العديد من الفلاسفة مثل ابن رشد، وابن ميمون، وإسحاق الإسرثيلي، وتأثر إلى حد كبير بأراء أرسطو؛ وركز اهتمامه على المعتقدات اللاهوتية المسيحية، وعلى الأفكار الفلسفية المؤيدة أو المناهضة لهذه المعتقدات.

وانطلاقاً من سنة 1250 تقريباً، بدأ يكتب في موضوعات لاهوتية - فلسفية أحدثت هزة في الأفكار العقائدية المسيحية، وواجه انتقادات من جهات عديدة، لأن علماء اللاهوت أنفسهم لم يكونوا قد اعتادوا على تدخل العلم والفلسفة والتفكير العقلاني في المعتقدات المسيحية إلى هذه الدرجة.

لقد لجأ توما، أكثر ممن سبقوه من علماء المسيحية، إلى العقل من أجل إيضاح وتفسير كثير من المعتقدات الغامضة. غير أنه ظل متمسكاً برأيه في أن الإيمان (الوحي) هو أساس المعرفة، كما ظل يلح في كتاباته على أنه لا يوجد تناقض بين الإيمان والعقل، وأنه من الممكن التوفيق بين التفكير العقلاني وكثير من المعتقدات السماوية؛ ولو أنه اعترف بأن هناك قضايا عقائدية هامة لا يستطيع العقل أو الفلسفة تفسيرها، مثل قضية يوم القيامة، وفكرة التثليث (الرب، والابن، وروح القدس)، وفكرة التجسد (وهي الفكرة القائلة بأن جسم المسيح موجود

(1) القرون الوسطى بالنسبة لتاريخ أوروبا تمتد على وجه التقريب من القرن السادس إلى القرن الخامس عشر الميلادي، وهي فترة تفصل بين عصر الحضارة المزدهرة في اليونان والإمبراطورية الرومانية، وبين عهد النهضة الحضارية التي بدأت تزدهر في القرن السابع عشر في أوروبا.

لحمًا ودمًا في كل مرة يقام فيها العشاء الرباني)، ومن ذلك معجزات الأنبياء، وغير ذلك من المعتقدات المتعلقة بما فوق الطبيعة.

وإذا كان العقل وحده لا يستطيع تفسير هذه المعتقدات، فلا مناص للإنسان من أن يعتمد على الإيمان وما جاء به الوحي، وأن يلجأ إلى الرعاية الإلهية والهدى الرباني لإدراك أسرار الأمور الخفية. وسيجد الإنسان في نهاية المطاف، حسب رأي توما، أنه لا تناقض بين المعرفة التي جاءت من السماء، والمعرفة التي ينالها عن طريق حواسه وتجاربه وتفكيره.

ومن أهم مؤلفات القديس توما كتابه "خلاصة اللاهوت"، الذي حاول أن يجمع فيه العديد من العلوم والمعارف. وقد اعتمد في تأليفه على فلسفة أرسطو، وعلى ما وصلت إليه الحركة الفكرية في أوروبا آنذ نتيجة ما وصلها من تطورات الحضارة الإسلامية والفلاسفة المسلمين.

ويتناول المؤلف في هذا الكتاب موضوعات عديدة متنوعة منها:

- 1- الله، التثليث، خلق العالم والملائكة
- 2- الإنسان، الأخلاق، الإرادة، الروح، الحكومة الإلهية المقدسة في الأرض...
- 3- المسيح، أهداف حياته، أقواله، المقدسات الكنسية. غير أن الموت عاجل توما فلم يتم هذا القسم.

يحدثنا هذا العالم اللاهوتي عن النفس (الحياة) فيشير إلى أنها تتمثل في خمس صور، أو مستويات، تتدرج من النباتات إلى الإنسان، ويصنفها على النحو التالي:

- 1- القوى النباتية (في النباتات) تغذيها وتنمي طاقتها.
- 2- القوى الحاسة التي تستقبل الإحساسات والمعلومات من العالم الخارجي، غير أنها تحتاج إلى الحركة مثل المحاربات.
- 3- قوى النفس التي تحتاج إلى الحركة لتأمين حاجاتها، أي المتحركة.
- 4- القوى التي ترغب في الأشياء، قوى النفس المشتبهة أو الراغبة.
- 5- قوى النفس العاقلة المفكرة (الإنسان).

ويتناول القديس توما قضية الخير والشر، ويشرحها معتمداً على المبادئ المسيحية وعلى ما سبقه من أفكار في هذا الموضوع الشائك. وهو يرى أن أي عمل يعتبر خيراً أو شراً بناء على نية الفاعل، وعلى ما كان يهدف إليه من عمله. وقد يؤدي فعل المرء إلى نتائج حسنة، ولكن لا نعتبره فعل خيراً إلا إذا كان ينوي الوصول إلى هذه النتيجة. وكذلك إذا كانت نتيجة عمل ما شراً وفساداً، فإنها لا تدخل في نطاق الخير ولو كان صاحبها ينوي ذلك. ويقول بأن الخير الأمثل هو أن يسعى الإنسان إلى تحقيق الهدف الذي خلقه الله ليحققه.

وفيما يلي اقتباسات من بعض أفكاره وآرائه.

❖ السعادة

في معرض الجواب على السؤال: هل بوسع الإنسان أن يحقق السعادة المثلى؟ يقول القديس توما ما مفاده:

«السعادة هي بلوغ (تحقيق) الخير الأمثل .. والإنسان قادر على الوصول إلى هذه المرحلة السامية، لأن عقله قادر على إدراك الخير

الكوني الشامل، ولأنه يرغب في ذلك، وهو لذلك قادر على تحقيق السعادة لأنه قادر على مشاهدة الإله^{١١}.

ثم يطرح الكاتب عدداً من الاعتراضات ويجب عليها.

- **اعتراض:** يستقى الإنسان المعرفة بواسطة الحواس والمنطق، ولا يمكن لهذه المعرفة المحدودة أن توصله إلى السعادة المثلى.

- **الرد:** إن القدرات العقلانية تتجاوز القدرات الحسية بالنسبة لمجالات المعرفة. فالحواس غير قادرة على إدراك المعارف الكونية اللانهائية، ولكن العقل قادر على ذلك.

- **اعتراض:** إن السعادة المثلى تتحقق بمشاهدة الله جلّ جلاله، أي الحقيقة المثلى، غير أن الإنسان بحكم طبيعته يرى الحقيقة في صور مادية، ولهذا لا يستطيع بلوغ السعادة المثلى.

- **الرد:** إن طريقة إدراك الإنسان للحقيقة العليا في هذه الحياة لا تكون إلا عن طريق الصور الذهنية، أما في الحياة الأخرى فله طريقة أفضل لمعرفة الحقيقة السامية المثلى.

- **اعتراض:** تتمثل السعادة في الوصول إلى الخير الأمثل، وهو الله. وبما أن الإنسان لا يستطيع بلوغ القمة دون تجاوز المرحلة الوسطى، أي مستوى الملائكة، وليس بوسعها أن يرتقى إلى طبيعتهم، فإنه ليس بإمكانه أن يبلغ السعادة المثلى.

- **الرد:** ليس بوسع الإنسان أن يتجاوز منزلة الملائكة ليرتفع فوق مستواهم من حيث طبيعة الأشياء، غير أنه يمكنه أن يسمو

على مستواهم بنشاطه العقلاني، وبإدراكه أنه توجد بعد درجة الملائكة حياة تجعل الإنسان سعيداً.

بعد ذلك يطرح القديس توما سؤالاً آخر فيقول: هل بوسع الإنسان أن يحقق السعادة في هذه الحياة؟ ويجب:

« من الممكن أن يحقق الإنسان قدرًا من السعادة في هذه الحياة، ولكنه لا يبلغ مستوى السعادة المثلى، لأن السعادة هنا تعني الخير الأمثل الشامل، وهذا يعني إلغاء جميع الشرور، وتحقيق جميع الرغبات السامية. وهذا شيء يصعب تحقيقه في هذه الحياة، لأن الإنسان يطمح إلى الخير المستديم، وهذه الحياة فانية؛ والإنسان يرهب الموت، وإذا كانت نهاية هذه السعادة هي الفناء، فليست السعادة المثلى. ومن جهة أخرى، إذا اعتبرنا أن السعادة الكاملة تتمثل في أن يشاهد الإنسان الإله جلّ جلاله، يكون جلياً أن لا أحد يمكنه أن يبلغ هذه الدرجة السامية في هذه الحياة.»

❖ الحب وآثاره

في معرض الحديث عن الحب، يطرح الكاتب أسئلة منها: هل عاطفة الحب تؤذي المحب؟ وهل الحب هو السبب في جميع ما يفعله المحب؟ ثم يطرح ثلاثة "اعتراضات" على النحو التالي:

- **الاعتراض الأول:** الحب يسبب الضنى للمحب، لذلك فهو عاطفة مؤذية.

- **الاعتراض الثاني:** الحب عامل يغمر المحب ويذيبه ويجعله يستسلم، إذًا فهو عاطفة مؤذية.

– الاعتراض الثالث: الحب يرفع مستوى الحماس والانفعال إلى درجة عالية، لذلك فهو عاطفة مفسدة.

وينتقل المؤلف إلى الرد على الاعتراضات التي سجلها فيقول:

« يمكن القول أنه توجد أربعة آثار مباشرة يمكن أن تنسب إلى الحب، هي: الذوبان، المتعة، الضنى، والحماس. فالذوبان مضاد للتجمد، والأشياء المتجمدة قاسية يصعب اختراقها، لذلك فهي لا تتناسب مع الحب. أما حالة الذوبان فتعني مرونة القلب واستعداده لاحتضان المحب. وإذا كان المحبوب حاضرًا تنشأ المتعة عند اللقاء، وإذا كان غائبًا بعيدًا تنشأ عن ذلك عاطفة الحزن الذي يسبب الضنى، وعاطفة الحماس التي تتمثل في رغبة عارمة في الوصول إلى المحبوب وامتلاكه. »

هل الحب هو السبب في كل ما يفعله المحب؟

– الاعتراض الأول: الحب عاطفة وانفعال، والإنسان لا يفعل كل شيء بدافع العاطفة وحدها. بل له دوافع أخرى.

– الاعتراض الثاني: الرغبة في الشيء (أو الشهية) هي منطلق الحركة والعمل لدى جميع الحيوانات. وإذا قلنا أن الحب هو الدافع لكل ما يفعله الإنسان، يصبح دور الانفعالات الأخرى ثانويًا، ولا يصح هذا.

– الاعتراض الثالث: قد يقوم الإنسان بأعمال بسبب الكراهية، فالحب إذاً ليس السبب الوحيد في جميع أعمال الإنسان.

ويرد المؤلف على هذه الاعتراضات التي افترضها، فيقول:

– الرد على الاعتراض الأول: يتحدث هذا الاعتراض عن عاطفة الحب بمعناها الحسي، ونحن هنا نتناول الحب بمعناه العام الذي يشمل الحب العقلاني، والثقافي، والطبيعي والحيواني.

– الرد على الاعتراض الثاني: سبق الحديث أن الحزن، والألم، والمتعة وغيرها من الانفعالات تتجم عن الحب، وتعتبر دوافع لما يأتيه (أو يتركه) الإنسان من نشاطات. فهي إذاً من الأسباب الأساسية، وليست مجرد انفعالات ثانوية.

– الرد على الاعتراض الثالث: تجدر الإشارة إلى أن الكراهية قد تتجم كذلك عن الحب، وهي مرتبطة به، ومحرك أساسي لنشاط الإنسان.

❖ الملذات

وبصدد الكلام عن الملذات يتناول القديس توما بعض الجوانب الطيبة والسيئة فيها، وي طرح عدة أسئلة منها:

– هل كل لذة أو متعة شرّ؟

– هل كل لذة أو متعة خير؟

ويجيب على السؤال الأول قائلاً:

« يبدو أن من يقولون بأن كل لذة شرّ إنما يأخذون في

نيقولو مكيافيللي

Nicolo Machiavelli



درس مكيافيللي التاريخ واستخلص أن الإنسان مخلوق شرير، عدواني، محتال، متقلب، مخادع .. يخضع للقوة ويفريه الطمع. واستنتج أنه لا يمكن إنشاء الدول وتأسيس الممالك، وطرد الغزاة وتحرير الأوطان بالعطف والإحسان والتسامح والاستسلام (وهل في هذا من جديد)؟ بل الجديد هو أنه سجل أفكاره ونصائحه ((للأخلاقية)) بجرأة وشجاعة، وكانت النتيجة أنه واجه سيلاً من الانتقادات الصاخبة، واعتبر كثير من النقاد أن فلسفته السياسية ((من أعمال الشيطان)).

ولكن الإيطاليين اعترفوا بشجاعته ووطنيته، ولا أدل على ذلك من النصب الذي وضع فوق قبره، وقد كتب عليه:

« ليس في مقدور أيّ مديح أن يوفي هذا الاسم العظيم حقّه »

ولد نيقولو مكيافيللي في مدينة فلورنس، سنة 1469، كان أبوه محامياً منع من ممارسة مهنته لعدم الوفاء بديون عليه، وكان للأسرة منزل وقطعة أرض صغيرة، غير بعيدة من المدينة. ولم تسمح ظروف الأسرة المادية لمكيافيللي بمواصلة تعليمه، غير أنه بذل جهوداً خاصة لدراسة اللغة اللاتينية والقانون، ولو أنه لم يحصل على شهادة في هذا الأخير.

الاعتبار الملذات الحسية فقط ... ولهذا ينبغي لنا أن نقول بأن من الملذات ما هو خير، ومنها ما هو شرّ ومُضَرّ. واللذة هي أن يتمتع الإنسان بشيء طيب، سليم ومحبوب. ويرجع هذا إلى سببين، الأول هو أن الطيب أو الخبيث من الناحية الأخلاقية يتوقف على انسجامه مع العقل أو مخالفته له ...

والسبب الثاني أننا نأتي من الأفعال ما هو خير وصالح، وما هو شرّ وسيء. وإذا كانت الرغبة التي تسبق الفعل الطيب رغبة طيبة، تكون الملذات التي تنجم عنها طيبة. وإذا كانت الرغبة التي تسبق الفعل السيئ خبيثة سيئة، تكون الملذات الناتجة عنها سيئة ومفسدة »

ويجيب على سؤاله الثاني: هل كل لذة خير؟ فيقول:

« بينما يرى بعض الرواقيين ⁽¹⁾ أن جميع الملذات شرّ، ويقول الأبيقوريون ⁽²⁾ أن اللذة خير في حدّ ذاتها، فمن الواضح أن المذهبين لم يميزا بين ما هو خير مطلق، وما هو خير بالنسبة لشخص بعينه. فما هو خير مطلق يعتبر خيراً في حدّ ذاته، وما هو خير بالنسبة لشخص ما، يمكن القول أنه يلائمه نظراً لظروف خاصة به، أو لأن المرء يرغب في لذة غير صالحة لأنه يجد فيها متعة أنية »

- (1) المذهب الفلسفي الذي أنشأه زينون حوالي سنة 300 ق.م ، والذي يقول بأن الرجل الحكيم ينبغي أن يتحرر من الانفعالات، وأن يخضع للضرورات من غير تدمر.
- (2) مذهب أبيقور الذي قال بأن المتعة هي الخير الأسمى، وأن الفضيلة وحدها هي مصدر المتعة.

وفي سنة 1498 حصل على وظيفة في مجلس "للحرية والسلام" وهو مجلس حرب يتكون من عشرة أشخاص، وعين أميناً له. وكان من مهام هذا المجلس، بادئ الأمر، إعداد المراسلات، وحفظ السجلات ومحاضر الجلسات وغيرها، ثم توسعت أعماله لتشمل مهام دبلوماسية. وقد استقر مكيافيللي في هذا العمل مدة 14 عاماً. واتسعت دائرة أعماله فقام بنحو ثلاثين مهمة دبلوماسية، منها رحلاته إلى فرنسا وألمانيا.

ومن أهم مراحل حياة مكيافيللي أنه عندما أصبح سوديريني Soderini رئيساً لدولة فلورنس قربه إليه، وأوكل إليه أعمالاً هامة. وجعله ساعده الأيمن. وفي سنة 1502 أرسله في مهمة لدى الدوق الشاب (الطاغية) سيزاري بورجيا⁽¹⁾ ابن البابا الإسكندر السادس. وكان هذا الدوق قد حقق انتصارات باهرة خلال فترة قصيرة، وحضر مكيافيللي مشاهد الانتقام الدموي الذي سلطه سيزاري على أعدائه، وأعجب بما أظهر هذا الشاب من قوة العزيمة وتدبير في الحرب وشدة البأس، فأعجب به، وظن أنه بطل أحلامه، والقائد المثالي الذي يمكنه أن ينقذ إيطاليا من السيطرة الأجنبية ويوحد صفوفها، ويحقق الهدف الأسمى الذي يحلم به مكيافيللي.

وفي سنة 1503 توفي البابا الإسكندر السادس (أبو الدوق سيزاري بورجيا)، وعين محله البابا يوليوس الثاني عدو أسرة بورجيا، ودارت الأيام على البطل الطاغية سيزاري وسجن، وتحطمت

(1) الدوق Valentino.

أحلام مكيافيللي، وتكر للشاب الذي كان يعتبره القائد المثالي لتوحيد إيطاليا.

كان مكيافيللي لا يحبذ الاعتماد على جيش من المرتزقة للدفاع عن الجمهورية، ويدعو إلى إنشاء ميلشيات وطنية. وفي النهاية سمح له بذلك فقام بإنشاء الحرس الوطني سنة 1505، وعهد إليه بمهمة تنظيمها. وكان من أبرز ما حققه هذا الجيش أنه حاصر مدينة بيزا، واستولى عليها، بقيادة مكيافيللي نفسه، وألحقها بجمهورية فلورنس.

وأرسل البابا يوليوس الثاني جيشه للاستيلاء على جمهورية فلورنس، وعادت أسرة ميديتشي Medici إلى الحكم، فحكمت البلاد من سنة 1512 حتى 1527. وفقد مكيافيللي منصبه، واتهم بالتآمر ضد هذه الأسرة وسجن، ولم تثبت التهمة عليه فأطلق سراحه.

ولما توفي البابا المذكور وعين محله البابا ليو العاشر (Leo)، عاود الأمل مكيافيللي في أن ينال رضا الباب الجديد، وأسرعة ميديتشي، ولكن محاولاته ذهبت سدى، فانتقل مع زوجته وأولاده إلى منزل الأسرة القريب من فلورنس، حيث قضى بقية حياته إلا السنة الأخيرة، في ظروف مادية عسيرة. وفي هذا المنزل المتواضع كتب أشهر مؤلفاته، ومنها كتاب "الأمير" الذي أهداه إلى الدوق لورانسو Lorenzo de'Medici حاكم فلورنس، عام 1513، آملاً أن يحصل على منصب يحسن به وضعه المادي والمعنوي.

وبعد وفاة الدوق لورانسو، تولى حكم فلورانس الكاردينال جوليو de'Medici. وكان لمكيافيللي صديق على صلة بالحاكم الجديد فقدمه إليه، وطلب الحاكم من مكيافيللي أن يكتب تاريخ فلورنس. واعترافاً بهذا

الجميل. أهدى مكيافيللي كتابه "فنون الحرب" إلى هذا الصديق، واسمه Lorenzo Strossi. وفي سنة 1523 عين الكاردينال جوليو بابا تحت اسم البابا كليمانت السابع، مما شجع مكيافيللي على إتمام كتابه "تاريخ فلورنس"، وقدمه إلى البابا الذي منحه مبلغاً من المال، وطلب منه مواصلة العمل.

وطلب منه البابا أن يعمل على إنشاء "حرس وطني" حسبما وصف في كتابه "فنون الحرب"، وقد سبقت له تجربة عملية في هذا الميدان، فاستجاب مكيافيللي للطلب. غير أن جهوده لم تأت بنتيجة أمام تقلب الأحداث، وفي النهاية هجمت جيوش الإمبراطور شارل الخامس⁽¹⁾ على روما فنهبتها، وقضت على آمال البابا كليمانت السابع.

وفي سنة 1527 تخلصت فلورنس من حكم أسرة Medici ميديتشي، واستعادت حريتها، فطلب مكيافيللي من النظام الجمهوري الجديد أن يعيده إلى وظيفته القديمة في الحكومة، غير أن الجمهوريين لم يستجيبوا لطلبه، فشرع بخيبة شديدة. وبعد زمن قصير أصيب بالمرض، وتوفي في شهر جوان (يونيو) من السنة المذكورة.

كانت توجد قوى مختلفة، محلية وأجنبية، تتصارع على الساحة الإيطالية، من بينها قوات البابوات، ودوق ميلان، والبندقية، وناپولي، وإمبراطور الحلف المقدس، وغيرها من القوى الأجنبية. ولا شك في أن مكيافيللي كان يعيش بحزن عميق الظروف السيئة التي كانت تتخبط فيها بلاده.

(1) الإمبراطور شارل الخامس (1500-1558) هو نفسه شارل الأول إمبراطور أسبانيا، وإمبراطور الحلف الروماني.

وكان هدفه الكبير أن يبرز قائد وطني قوي يحرر إيطاليا من الغزو الأجنبي، ويوحد مختلف ولاياتها في دولة قوية. وهو يعتقد أن جميع الوسائل والمبادئ الأخلاقية والدينية مقبولة إذا كانت تساعد هذا "الأمير" المحرر على تحقيق الهدف المذكور. ولعل هذا الهدف الأسمى الذي كان يحلم به مكيافيللي يبرر كثيراً مما دعا إليه وسجله في كتابه "الأمير" وغيره، ومما اعتبره كثير من النقاد مخالفات أخلاقية، وجعله بعضهم داعية شيطانياً يستحق أن ينكل به.

فهل كان مكيافيللي شيطاناً يعلى رذائل الأخلاق، ويصد عن فضائلها؟ هل ابتدع في الأرض الفساد والوحشية والعدوانية وإراقة الدماء؟ ومتى كانت الحروب عملية أخلاقية نظيفة تخلو من المكر والخداع والعنف وإراقة الدماء؟ أو تتقيد بالأخلاق الفاضلة وتتصت إلى أوامر الضمير؟ وهل تشيّد الممالك بالإحسان والتسامح والعطف والاستسلام؟

هذا على مستوى "الغاية تبرّر الوسيلة" بالنسبة لسلوك القائد الذي ينتظر أن يحرر إيطاليا ويوحدها؛ أما بالنسبة لسلوكه الشخصي فيعتبر مكيافيللي قبل كل قول وانتقاد رجلاً وطنياً طموحاً وغيوراً على بلاده. أما في معاملاته اليومية، فيروى أنه كان، ككثير من الناس، يداري، ويحابي، وينافق، ويرتكب المعاصي. وكان في علاقاته مع أصحاب السلطة، يراعى مصالحه، فيقبل عليهم عندما تقبل عليهم الدنيا ويبذل جهده في خدمتهم، غير أنه كان ينكر الجميل أحياناً فينتقد من كان يدعمهم، وكان هذا سلوكه عندما هزم سيزاري بورجيا، وكذلك عندما دارت الدوائر على أسرة ميديتشي.

❖ مؤلفاته

ألف مكيافيلي في التاريخ، والمسرح، والفلسفة السياسية وغيرها. وتناول في كتبه موضوعات الحرب والأخلاق والسياسة والدين... واشتهر من بين مؤلفاته كتابه ("الأمير"). وله مسرحية عنوانها Mandragola يصور فيها بعض الجوانب من سلوك أهل فلورنس وعصر النهضة، ويفضح بطريقة ساخرة الإغراء المادي والجنسي. وقد حققت هذه المسرحية نجاحاً كبيراً لدرجة أنها عرضت أمام البابا ليو Leo العاشر سنة 1520. كما كتب قصة فكاوية يصور فيها حوادث الزواج بأسلوب هزلي.

وأثناء حكم أسرة ميديتشي طلب منه أن يكتب عن تاريخ فلورنس، فألف ("تاريخ فلورنس")، وأهداه إلى البابا كليمانت السابع عام 1525. وألف رسالة عن ("فنون الحرب")، قدم فيها نصائح عن كيفية تدريب الجيش، والاحتفاظ به في حالة تأهب واستعداد للحرب، ووضع قواعد جديدة لمواجهة العدو وخوض المعارك.

ومما أثار اهتمام القراء كتاباته السياسية التي تركز على كيفية بناء الدولة، والأساليب التي تمكن الأمير من المحافظة على دولته وسلطانه. وقد كان شجاعاً وجريئاً في التعبير بصراحة وقوة عن آرائه. ويبدو في مؤلفاته كأنه يدعو إلى الأخلاق غير الحميدة، ولكنه إنما يوجه نصائحه إلى الملوك والقواد عندما ينصح باللجوء إلى الكذب والمكر والحيلة والبطش والنفاق والعدوان، بل وإلى كل ما هو ضروري لبناء الممالك وتدعيم قواعدها.

كان مكيافيلي مهتماً بالسياسة، ومعجباً بتاريخ الرومان، يستمد

منه ما يساعده على شرح آرائه وتبريرها، ويحاول أن يتخذ من بعض حوادث الماضي نماذج وأمثلة صالحة لظروف إيطاليا التي كان يعيشها، وذلك بهدف تحريرها وتوحيدها. ويستنتج من دراسته للتاريخ أن سلوك الإنسان عبر التاريخ، فيما يتعلق بالأمور الأساسية لم يتغير. فهو ما زال أنانياً، عدوانياً، جشعاً، جحوداً، يخضع للقوى ويتمرد على الضعيف، ولذلك لا سبيل إلى إخضاعه إلا بالقوة.

وينصح باستغلال الدين، لأن العقيدة توصى بالخضوع لذوي الأمر، وتلطف من غرائز الفرد وحدة أنانيته، وتسهل انقياده لقوانين البلاد. كما أن الإيمان يحمس الناس على إنجاز مشاريع الدولة، وعلى تقديم التضحيات من أجل بقائها.

ومما يؤخذ عليه أنه يتنكر للأخلاق التي حضت عليها المسيحية مثل الصدق والعطف والتسامح والزهد والقناعة والتواضع، ويرى أنها من علامات الضعف والجبن والمسكنة والفضل وضعف العزيمة، وأنها تذهب بهيبة الحاكم، وتضعف أركان الدولة. ويرى انه لا فضيلة بدون القوة والحماس والطموح. فهو يبرر للحكام استخدام جميع الأساليب والوسائل المشروعة وغير المشروعة، لأن الغاية تبرر الوسيلة، ولأن الدولة القوية تضمن لشعبها الأمن والرفاهية والاستقرار، وتجنبه الفوضى والتمزق والانزهاض.

وتجدر الإشارة إلى أن مكيافيلي أهدى كتابه ("الأمير")، وهو أشهر مؤلفاته، إلى الدوق لورانسو De'Medici حاكم فلورنس (ومن خلاله إلى أسرة ميديتشي)، وكان يرجو من وراء ذلك أن يحصل على منصب يحسن ظروفه المادية، كما كان يأمل أن تسعى هذه الأسرة إلى توحيد إيطاليا وإصلاح ظروفها.

وقد أعجب بهذا الكتاب عدد لا يحصى من الأمراء والحكام والملوك، وما زال ذوو السلطان يحتفظون به في مكتباتهم دليلاً ومرشداً يذكرهم بما عليهم إذا لانت قلوبهم أمام واجبات الحكم وحماية الدولة من الفتن والمؤامرات. كما واجه هذا الكتاب مئات الكتب والمقالات تنتقد محتواه وتصف مؤلفه بأنه عدو الدين والأخلاق. وفيما يلي نبذة مما قاله مكولي⁽¹⁾ في مقال له عن مكيا فيلي.

يبدأ مكولي مقاله بقوله: لعله لا يوجد في تاريخ الأدب اسم بغيض مثل اسم مكيا فيلي. "منبع الشر، داعية الانتقام، شيطان يغوى الناس ويغيرهم، مخترع القسم الكاذب.." ويشير إلى عدد من الحكام والزعماء الذين تعلموا سياسة الخداع والكذب والتنكيل والعدوان من كتابه "الأمير". ويقول إن الكنيسة صبت اللعنة على أفكاره الشيطانية. وبذلك أصبح اسمه في نظر كثير من الناس مرادفاً لكلمة "الشيطان".

وبعد أن يستعرض مكولي صورة كالحة عن مكيا فيلي، مبيناً أن ذلك بناء على آراء كثير ممن اطلعوا على مؤلفاته، يذكر القراء بأن مكيا فيلي كان جمهورياً متحمساً، وأنه سجن وعذب وهو يدافع عن الحريات العامة، ويتساءل الكاتب: هل يعقل أن يوصف من يعذب في سبيل الحرية بأنه رسول الاستبداد؟ ويذكر أن بعض الكتاب يلجأون إلى فرضيات لينصفوا مكيا فيلي فيما سجل من أفكار "لا أخلاقية".

ومن هذه الفرضيات ما قاله الكاتب الفيلسوف الإنكليزي

(1) هو T.B. Macaulay (1800 – 1859) كاتب إنكليزي اشتهر بكتابه "تاريخ انكلترا" الذي يشمل الفترة من 1688 إلى 1820.

فرانسيس بيكون من أن بعض أفكار مكيا فيلي ليست سوى ضرب من "السخرية الذكية" كان يهدف من ورائها إلى تحذير الدول من مناورات الزعماء الطموحين. ويضيف مكولي:

"ولكن أقوى حجة تنفي الاتهامات الموجهة إلى مكيا فيلي هي أننا لا نجد في جميع مؤلفاته بمختلف موضوعاتها جدية وهزلية، عبارة واحدة تشير إلى أن الخداع والنفاق والكذب.. كانت تعتبر في اعتقاده من الصفات التي تسيء إلى سمعة المرء". ويبدو مكيا فيلي لهذا الكاتب الإنكليزي وكأنه لغز، جمع في كتاباته وسلوكه صفات وأقوالاً متنافية، بين الأنانية والكرم، والقسوة وفعل الخير، والدهاء والبساطة، والخبث والشهامة، والغرور والإخلاص للوطن، وكأن شخصيته مركبة من شخصين متناقضين.

ويتابع مكولي تعليقه على شخصية مكيا فيلي وسلوكه قائلاً: ليس هناك ما يدعونا إلى الاعتقاد بأن الناس الذين عاش بينهم مكيا فيلي وجدوا في كتاباته آراء متنافرة، أو في حياته حوادث تنفرهم منه وتصدهم عن معاشرته. بل هناك دلائل على ما كانت تحظى به آراؤه من تقدير؛ ولقد تولى البابا العظيم كليمانت السابع بنفسه رعاية نشر كتب مكيا فيلي؛ غير أن مجلس ترانت قرّر بعد جيل أنها غير صالحة لأن يقرأها المسيحيون.

ويشير مكولي إلى أن أوضح ما يلاحظه القارئ في كتابات مكيا فيلي السياسية هو صراحته وعدم تحييزه فيما يعرض من أفكار سواء كان على جانب الصواب أو الجانب المخطئ. وهو لا يقدم رأياً خاطئاً لمجرد أنه رأى جديد رائع، أو لأنه يستطيع أن يصوغه في عبارات

رنانة، أو لأنه بوسعه أن يدافع عنه بذكاء ومهارة. ويشرح مكيافيللي أخطاءه بالرجوع إلى الظروف التي يعيشها، وهي ظروف وجدها في طريقه، وليس بوسعه أن يتجنبها. ويضيف الكاتب الانكليزي: «إن مثل هذه الأخطاء يتعرض لها جميع من يجازفون بتأملاتهم في نشأة علوم جديدة. ولعله من المناسب مقارنة كتاب «الأمير» و«الأحاديث» بكتاب «روح القوانين» للكاتب الفرنسي مونتسكيو، ويقول: فهذا الأخير يتمتع بشهرة واسعة أكثر من أي كاتب سياسي آخر في أوروبا الحديثة. وهي شهرة نالها عن جدارة، ولكن الحظ ساعده إلى حد كبير. وإذا أخطأ مكيافيللي فلأنه اكتسب تجاربه في ظروف اجتماعية عسيرة لم تمكنه من أن يقرأ طبيعة وآثار مؤسسات تختلف عن المؤسسات التي عاشها.

مقتطفات من بعض الموضوعات التي يحتويها كتاب «الأمير»

★ حول الأمير وموضوع الحرب :

يجب على الأمير أن يركز تفكيره وهدفه ودراسته على موضوع الحرب وفنونها وقواعدها واستراتيجيتها. إن فنون القوة الحربية الناجحة تدعم انتصار الذين يولدون أمراء؛ بل في أحيان كثيرة تمكن رجالاً من عامة الناس من الارتقاء إلى قمة الحكم. وكثيراً ما يفقد الحكام سلطانهم عندما يميلون إلى حياة الاسترخاء ويهملون فنون الحرب. إن الأمير الذي يهمل تسليح بلاده تسليحاً جيداً يصبح منبوذاً...

وعلى الأمير (الحاكم) أن ينمي أفكاره ويوسع معلوماته بأن يطالع كتب التاريخ، ويدرس إنجازات عظماء الرجال ليعرف أساليب تصرفهم ومناوراتهم في قيادة الحروب؛ وعليه أن يفكر في أسباب انتصاراتهم أو انهزامهم ليكون ذلك له قدوة وعبرة. ومن الأهمية بمكان أن يعمل الأمير بحزم ونشاط أثناء فترات السلم لينمي موارده، ويعد جيشه لمواجهة أوقات الشدة، ومفاجآت الزمان، وتقلبات الملك.

حول سلوك القسوة والوحشية، وسلوك الرحمة والتسامح، وهل من الأفضل للأمير أن يحبه الناس أم أن يرهبوه



ما دام الأمير قادراً على أن يحافظ على وحدة شعبه وولائهم، فلا خوف من أن يتهمه الناس بالقسوة، لأنه عندئذٍ قادر على أن يقدم بضع أمثلة على كرمه وحسن معاملته، ينال بها سمعة التساهل والرحمة والعطف على الناس. أما الحكام الذي يتجاوزون الحدود في تسامحهم ولينهم وتساهلهم، فإنهم بذلك يسمحون بانتشار الفوضى التي قد تتلوها الفتن والنهب والقتل، وهي أعمال تؤذي عامة الناس، في حين أنه إذا قام الأمير بتنفيذ أحكام الإعدام في عدد من الناس، بهدف الردع والتخويف، فهذا عمل يؤذي بضعة أشخاص فقط.

وهنا يتساءل المرء: هل من الأفضل للأمير أو الحاكم أن يكون محبوباً لدى شعبه، أو من الأفضل أن يخافه الناس ويرهبوه؟ وبما أنه من العسير أن يجمع السلطان (الأمير) بين محبة الشعب له وخوفه منه، وجب القول بأنه من الأفضل، إذا دعت الضرورة للاختيار، أن يخافه الشعب من أن يحبه. وقد أثبتت التجارب، بصفة عامة، بأن سلوك الناس يتسم بالتقلب ونكران الجميل وبالجبين والأنانية. فهم معك ما دام النجاح والنصر حليفك، يضحون في سبيلك بأموالهم وأولادهم ودمائهم ما دامت الحاجة إلى هذه التضحية بعيدة، ولكن عندما تشتد الأزمة ويتطلب الوضع هذه التضحيات يصدون عنك،

وربما وقفوا ضدك أما الصداقة التي يكتسبها المرء بدفع تعويضات فإنها ليست مضمونة في وقت الشدة. ومن المعروف أن الناس لا يترددون كثيراً في التخلي عن شخص يحبونه من أجل المصلحة، بينما نجدهم يفكرون طويلاً قبل الإساءة إلى شخص يرهبون بطشه...

غير أن الأمير (الحاكم) في سعيه لبث الخوف في النفوس، ينبغي له أن يتجنب إثارة الكراهية في قلوبهم، لأنه بإمكانه أن يتحمل خوف الناس ما داموا لا يبغضونه، ولهذا يجب عليه ألا يمس ممتلكاتهم، وألا يعيب بنسائهم، إذ من الممكن أن ينسى المرء بسرعة وفاة أبيه أو قريبه، وليس الأمر كذلك فيما يتعلق بفقدان ممتلكاتهم أو نسائهم.

الوفاء بالوعود ...

هناك طريقتان لحل النزاعات: الأولى بالأساليب القانونية، والثانية بالقوة. وبما أن الأسلوب الأول لا يكفي في معظم الحالات، يصبح من الضروري اللجوء إلى القوة، وعلى الأمير أن يلبس تارة جلد الأسد وطورا جلد الثعلب ... وبما أن الناس طبعوا على الشر، ولا يحفظون العهد، فالأمير كذلك ليس ملزماً بالوفاء بوعوده، خاصة إذا كان الوفاء يعود بالضرر على مصالحه.

وعلى الأمير (والحاكم) أن يتظاهر بأنه يتصف بجميع الأخلاق الفاضلة، مثل الرحمة والوفاء والتقوى والاستقامة والإنسانية وغيرها، ويفتتم الظروف الملائمة ليؤكد ذلك للناس، ولكن تطبيق هذه الصفات في واقع الحياة يضرُّ بمصالح الحكم.

كامبانيا

Giovanno Domenico

Campanella (Tommaso)

كامبانيا فيلسوف، شاعر وكاتب إيطالي، ولد في ستيلو، بمقاطعة كلابريا، سنة 1568. انضم إلى فرقة الدومنيكان وهو لا يتجاوز الرابعة عشرة من العمر؛ وأضاف كلمة Tommaso (توما) إلى اسمه.

تأثر كامبانيا بأعمال فيلسوف يدعى تليسيو (Telesio) كان يدعو إلى اتباع أسلوب تجريبي في تناول المشاكل الفلسفية، وألف كتاباً عنوانه «الفلسفة عن طريق التجارب الحسية».

وبما أنه لم يكن على وفاق مع سلطات البلاد التي كان يحكمها الأسبان، فقد غادر مدينة نابولي وسافر إلى روما، ثم إلى بادوفا حيث التقى بالعالم الشهير غاليلي. وخلال هذه الفترة اتهم بالفسق وسجن.

رجع إلى نابولي سنة 1598. وتشير المراجع إلى أنه قاد ثورة بهدف طرد الأسبان من جنوب إيطاليا. وفشلت محاولته فاتهم بالهرطقة والتحريض على العصيان، فزج به في السجن، وحكم عليه بالإعدام. وتظاهر كيمانيا بالجنون، فخفف الحكم إلى السجن المؤبد.

وفي غياهب السجن، ورغم ما سلط عليه من عذاب وما تحمل من معاناة، ألف كيمانيا أهم كتبه «مدينة الشمس»؛ وكتب قصائد من

الدعوة إلى تحرير إيطاليا من الغزاة

وفي نهاية كتابه «الأمير» وجه مكيافيلي نداء حاراً إلى الدوق لورانسو حاكم فلورنس (وأسرة ميديتشي) داعياً إياه إلى العمل على إنقاذ إيطاليا من التمزق والاستبداد الأجنبي: وإذا كان من الضروري أن يعاني بنو إسرائيل من الاستعباد لكي تظهر قدرة موسى (عليه السلام)، وأن يعاني الفرس من الظلم الذي سلطه عليهم الميديون لكي تظهر عظمة الملك قورش، وأن يعاني الأثينيون من التشرذم لكي تبرز قدرة الملك Theseus، فلعلة أصبح من الضروري أن يعاني الإيطاليون من الاستبداد والتمزق والاستعباد أكثر مما عانت الشعوب المذكورة، وأن تعيش بدون قائد وبدون نظام، مهانة ممزقة مغلوبة على أمرها، يستغلها الأعداء».

ويواصل مناقشته إلى الدوق لورانسو، وأسرة ميديتشي فيحثهم على النهوض لتحرير إيطاليا وتوحيدها قائلاً:

« إذا رغبت أشرتكم العظيمة في أن تتبع خطى عظماء الرجال الذين أنقذوا بلادهم، يجب قبل كل شيء أن تعدو جيشكم الوطني، بدل الاعتماد على المرتزقة، وستجدون في جنودنا كل الوفاء والشجاعة من أجل طرد المحتلين الأجانب، وإخراج إيطاليا من مستنقع الفوضى والضعف والمهانة الذي تتخبط فيه.»

الشعر حول العقيدة الكاثوليكية في ضوء نظرياته الفلسفية؛ كما ألف رسالة في الدفاع عن العالم غاليلي.

وبعد أن قضي سبعة وعشرين سنة في سجن نابولي، أطلق سراحه عام 1626. واقتيد بعد ذلك إلى سجن في روما حيث قضي ثلاث سنوات. وعند خروجه من السجن عطف عليه البابا أوربان الثامن، ونصحه بالسفر إلى باريس ليتجنب الاتهام بالمشاركة في مؤامرة أخرى. وفي باريس، حيث وصل سنة 1634، لقي ترحيباً من الكاردينال ريشوليو، وقيل كذلك من لويس الثالث عشر. وتوفى كامبانيلا سنة 1639 في هذه المدينة.

كان كامبانيلا يشعر أنه صاحب رسالة، فحاول تجديد بعض التعاليم العقائدية والأفكار الاجتماعية والسياسية. وصدّ عن نظريات أرسطو التي لجأ إليها كثير من علماء اللاهوت للتوفيق بين الإيمان والعقائد السماوية وبين العقل، فوجه اهتمامه إلى بناء فلسفة تركز على العوامل الحسية والتجريبية. كما تتميز فلسفته بطابع الصوفية وأفكار تنبؤية. وبسبب عزوفه عن فلسفة أرسطو واتجاهه إلى وقائع الطبيعة وظواهرها، واجه انتقاداً من طرف رجال الدين المسيحي، واتّهم أحياناً بالهرطقة والفجور، وأودع السجن.

❖ مدينة الشمس (للفيلسوف كامبانيلا) (La citta dél Sole)

من أشهر مؤلفات كامبانيلا كتابه "مدينة الشمس"، ألفه عام 1602 وهو في السجن. ويعتبر الكتاب رسالة اجتماعية وسياسية، تتحدث عن مدينة خيالية (في الشرق الأقصى) يتصور كامبانيلا فيها

مجتمعاً مثالياً في نظره. وقد تناول كثير من الكتاب، قبل كامبانيلا وبعده، موضوع "المجتمع المثالي الفاضل والجمهورية المثالية".

وقد تأثر كامبانيلا في إنشاء مدينته بأفكار بعض من سبقوه مثل أفلاطون وتوماس مور⁽¹⁾.

والمجتمع الذي يتخيله الفيلسوف (ويسعى إلى تحقيقه على أرض الواقع) يعيش في ظلال نظام شيوعي، تلغى فيه الملكية الخاصة، ويلغى نظام الأسرة، لأن السكان شركاء في جميع نشاطات الحياة ومتطلباتها. فهم شركاء في العمل والغذاء والسكن والنساء، وفي الحرب والتدريبات الرياضية وغير ذلك. وجميع هذه النشاطات والعلاقات تتم وفقاً لمبادئ وقيود اجتماعية محكمة، ذلك لأن السلطة تتدخل في جميع شؤون الحياة من أجل تحقيق المصلحة العامة.

يتولى السلطة في "مدينة الشمس" (الافتراضية) كاهن ذو علم ومعرفة واسعة بشؤون الناس والبلاد، يساعده في الحكم ثلاثة وزراء مسؤولين على تنظيم نشاطات السكان ومراقبة أفكارهم ومشاعرهم في سبيل خدمة المصلحة العامة. ومن المبادئ التي أوردها الكاتب في "مدينة الشمس" هذه:

- لا تضاجع امرأة رجلاً حتى تبلغ تسعة عشر سنة من العمر.
- لا يجوز للرجل أن ينجب أطفالاً قبل بلوغه سن الواحدة

(1) توماس مور، 1477 - 1535، رجل دولة ومن دعاة الحركة الإنسانية في مطلع عصر النهضة الأوروبية، اشتهر بكتابه يوتوبيا Utopia.

والعشرين. ولكن يسمح لبعض الرجال قبل هذه السن بمضاجعة المرأة الحامل أو العاقر لمنعهم من الإنجاب.

- علاقات ((الواط)) في هذا المجتمع محرمة. ومن تثبت عليه يعاقب أول مرة بأن يعلق حذاؤه حول عنقه، ويؤمر بأن يتجول في المدينة مدة يومين. وإذا كرر الإثم المذكور ازداد العقاب شدة إلى أن ينتهي بالإعدام.

- من يمتنعون عن العلاقات الجنسية (الجماع) حتى يبلغوا سن الواحدة والعشرين يجازون بالتكريم والتبجيل.

- التدريب على المصارعة ضروري للرجال والنساء، وينبغي أن يكونوا (رجالاً ونساءً) جميعهم عراة. ويحرص أساتذتهم على مراقبة أجسامهم أثناء التدريب لمعرفة من منهم (ومنهن) أصبح ناضجاً للزواج. ويسجلون صفاتهم الجسدية ليحددوا من الرجال يتزوج من النساء. فعلى سبيل المثال تزوج الفتاة الرشيقة الطويلة بفتى يشبهها؛ وتزوج الفتاة البدينة بشاب نحيل حتى لا تغلب صفة البدانة على نسلهما. والهدف هو الحرص على إنجاب أجيال قوية سليمة جسماً وعقلاً، والقضاء على العلل والعاهاات.

ويتضمن كتاب ((مدينة الشمس)) تفاصيل متنوعة عن أسلوب حياة المجتمع السعيد الذي يتخيله المؤلف. وقد بذل كمبانيلا مساعي حثيثة لدى أصحاب السلطة للمساعدة على إنشاء هذه المدينة وتحقيق أحلامه. وأثناء إقامته في باريس، في أواخر حياته، سعى لدى الكاردينال رشوليو من أجل تحقيق هذا المشروع. غير أن كمبانيلا

توفى، وذهبت أحلامه أدراج الرياح، وجاء كتاب آخرون ساروا على دربه ... وسيظل العالم والجاهل، الفقير والغني، الضعيف والسلطان، الخير والشري، يسعون أو يحلمون، ما دامت الأرض صالحة للحياة، وما أضيقت العيش لولا فسحة الأمل.

★ دفاع عن العالم غاليلي (1)

مقتبس من رسالة كتبها كامبانيلا عنوانها

« الدفاع عن غاليلي »

يقول الفيلسوف كامبانيلا في مطلع رسالته: من الضروري أن نناقش قضيتين، الأولى هي: ((هل يُسمح للفلسفة الجديدة أن تبحث عن الحقيقة))؟ والقضية الثانية هي: ((هل من المرغوب فيه أن تقمع الفئة المتشعبة لأرسطو؟ وأن تعلم المدارس المسيحية الفلسفة الجديدة التي تتسجم مع تعاليم العقيدة المقدسة لله؟ ثم يلاحظ الكاتب أنه يوجد اختلاف في الآراء أثاره أولئك الذين يشجبون فلسفة غاليلي لأنهم يرون أنها تتعارض مع تعاليم العقيدة المسيحية.

ويتساءل كمبانيلا: هل حقاً أن الفلسفة التي أضفى عليها غاليلي أهمية وشهرة مناقضة لتعاليم الكتاب المقدس؟ أم أن الأمر عكس ذلك. ويشرح في شرح وجهات نظره على النحو التالي:

(1) غاليلي عالم فيزيائي وفلكي كان معاصراً للفيلسوف كامبانيلا. أكد غاليلي نظرية العالم كوبرنيك بأن الأرض ليست مركز الكون، وأن الكواكب تدور حول الشمس؛ وقال باستقلال العلم عن الدين. حاربه رجال الكنيسة وحاكموه بسبب آرائه، وحكم عليه بالسجن المؤبد. خفف الحكم عليه بعد أن تراجع عن أفكاره.

❖ البراهين التي تدين غاليلي

يقول معارضوه ما يلي:

1- قلب غاليلي التعاليم اللاهوتية المقدسة، وحاول نشر نظريات مضادة لفلسفة أرسطو التي أسس عليها القديس توما الأكويني، وعلماء لاهوت آخرون، العقيدة المسيحية.

2- قال غاليلي بأن الشمس والنجوم ثابتة، وأن الأرض هي التي تتحرك حول الشمس وأن الأرض ليست مركز الكون. وهذا يخالف ما قال به آباء الكنيسة البارزون وفلاسفة اللاهوت المسيحيون.

3- آراؤه تناقض بوضوح تعاليم الكتاب المقدس الذي يؤكد بأن الأرض ثابتة لا تتحرك.

4- يتحدث الكتاب المقدس عن حركة الشمس، وينصّ على أنها تشرق وتغرب، وتعود إلى مكانها لتشرق من جديد.

5- من معجزات يشوع أنه أمر الشمس بأن تقف؛ فوقفت في كبد السماء⁽¹⁾.

6- يزعم غاليلي أن الماء موجود على سطح القمر وعلى الكواكب ويتحدث عن الأراضي والجبال على القمر، وهذا يحط من قيمة الملائكة، ويقلل من أملنا فيما يتعلق بالسماء والجنة.

7- إذا كانت العناصر الأربعة التي يتكون منها عالمنا موجودة في النجوم، فإنه ينتج من نظرية غاليلي، وكما قال محمد (ﷺ)

(1) يشوع رئيس قبيلة يروى أنه قاد الإسرائيليين لاحتلال بلاد كنعان (فلسطين والأردن حالياً) وذلك بعد خروجهم من مصر في عهد سيدنا موسى (ﷺ). وحكاية وقوف الشمس هذه من الأساطير القديمة، وهي خرافة ترمز إلى السحر وقوة تأثير الرجل على الحوادث.

أنه توجد عوالم أخرى بأراضيها وبحارها وسكانها من البشر. وهذا مخالف لما جاء في الكتاب المقدس من أنه يوجد عالم واحد يسكنه بنو آدم.

8- ينصحنا الكتاب المقدس أن نسعى إلى توسيع نطاق معارفنا أكثر مما نحتاج إليه، وأن لا نتعدى الحدود التي ترسمها الكنيسة. ولكن غاليلي يتجاهل هذه النصيحة، ويخضع السماء لاختراعاته.

* * * *

★ البراهين التي تدعم موقف غاليلي

1- لقد أكد العالم كوبرنيك، قبل غاليلي، أن الأرض تتحرك، والمساء ثابتة، وجعل الشمس (لا الأرض) مركز العالم. وغاليلي لم يضيف شيئاً إلى نظام الكون الذي وضعه كوبرنيك. وقد رحب عدد من رجال الدين وعلماء اللاهوت بما كتب هذا الأخير ونشروا كتابه. وإذا كانت أفكار كوبرنيك لا تؤثر سلباً على العقيدة الكاثوليكية، فكيف يؤثر عليها ما كتب غاليلي؟

2- لقد رحب البابا بولس الثالث بكتاب كوبرنيك؛ وطلب الكاردينال شونبيرغ أن ينسخ الكتاب على نفقته؛ وتبنى نظرية كوبرنيك عدد من علماء اللاهوت البارزين.

3- إن نظرية غاليلي حول حركة الأرض، ومركزية الشمس، ووجود الأرض والماء في الكواكب الأخرى، مفهوم قديم لم ينشأ مع غاليلي، بل تحدث عنه موسى (ﷺ) والعالم بيتاغور.

4- الكتاب المقدس يسمى السماء ((الأفق)) لأنها لا تتحرك. لذلك

لويجي بيرانديلو

Luigi Pirandello

ولد بيرانديلو في Agrigento (إيطاليا) عام 1867. درس في ثانوية باليرمو، ودخل كلية الأدب فيها. بعد ذلك انتقل إلى روما فدرس فقه اللغة. ثم سافر إلى ألمانيا حيث تابع دراسته في جامعة بون. وحصل على شهادة الدكتوراه في موضوع فقه اللغة سنة 1891، وكانت رسالته عن موضوع لهجة (Agrigenti) girgenti. واضطر للعودة إلى روما لأسباب صحية.

وفى عام 1894 تزوج من فتاه تنتمي إلى عائلة ثرية، فساعده ذلك على توجيه اهتمامه إلى الإنتاج الأدبي، وبعد بضع سنوات حصل على كرسي تدريس الأدب في معهد التعليم العالي بروما، واحتفظ بهذه الوظيفة حتى سنة 1924. ولعل مما أثر على مسيرته الأدبية أن زوجته بدأت منذ عام 1919 تعاني متاعب نفسية، فنقلت إلى مصحة للعلاج، ولم تغادرها حتى وفاتها سنة 1959.

شغل بيرانديلو جل حياته بتأليف القصص، وقد خطط لإنتاج 365 قصة، رغبة في أن يضع بين يدي القارئ قصة لكل يوم من أيام السنة. غير أن الظروف لم تسمح له بذلك فأنتج نحو 250 قصة. كما أنتج سبع روايات. وقد ساعده هذا الإنتاج في أعماله المسرحية بعد

لابد للأرض أن تدور، وأن تكون الشمس مركز عالمنا، لأن هذا الوجود هو الذي يوضح حوادث السماء، ويتفق مع معطيات علم الرياضيات والفيزياء.

5- إنَّ البقع والعواصف التي تظهر على سطح الشمس، والنجوم التي تتشأ وتتكون (تخلق)، والمذنبات، توضح لنا أن النجوم عوالم تتكون من مادة. ويؤكد هذا كلام سيدنا موسى عن حركة الأرض والنجوم.

6- يعلمنا القديس جوستين أنه عندما دار الجدل بين الوثنيين والمسيحيين حول حركة الأرض والنجوم، قال الأولون: السماء كروية ومتحركة؛ وقال المسيحيون: قبة السماء ثابتة. وهذا ما أكده كثير من آباء الكنيسة، وهو أن السماء ثابتة والنجوم والكواكب تتحرك.

ذلك، إذ نجد كثيراً من شخصيات القصص في مسرحياته.

ويختلف النقاد فيما إذا كانت شهرة هذا الأديب تعود، في الدرجة الأولى، إلى قصصه ورواياته، أم إلى إنتاجه المسرحي. ويلاحظ أن بيرانديلو لم ينل شهرة عالمية إلا بعد أن دخل ميدان الإنتاج المسرحي. وجاءت بداية هذه الشهرة أثناء الفترة 1917 - 1922 عندما أنتج مجموعة من المسرحيات الهامة مثل:

- ستة أشخاص يبحثون عن مؤلف.

- لذة الصدق.

- هنري الرابع.

- هكذا تجري الأمور، إذا بدا لك ذلك.

وانطلاقاً من هذه المرحلة، ترك التعليم الجامعي، وكرّس جهوده للإنتاج المسرحي. وفي عام 1925 أنشأ شركة "المسرح الفني" في روما، وطاف بفرقته المسرحية عدداً من البلدان الأوروبية، وبلدان أمريكا الشمالية والجنوبية. غير أن هذه الشركة فشلت بعد بضع سنوات لأسباب مالية.

وفي عام 1934 أحرز جائزة نوبل للأدب. وبينما كان، ذات يوم، يشاهد تصوير فيلم عن روايته "IL Fu Mattia Pascal" أصيب بالتهاب رئوي حاد، وتوفي في شهر ديسمبر من عام 1936.

وفيما يلي نبذة عن مسرحيته: "الرجل، الحيوان، والفضيلة"؛ وملخص لقصته: "الجرة".

الرجل ، الحيوان ، والفضيلة (بيرانديلو)

★ أفراد المسرحية:

- Paolino، أستاذ دروس خاصة.

- Perella، قبطان في البحرية.

- زوجته، السيدة Perella.

- Nino Pulejo، طبيب.

- Toto، صيدلي، أخو الطبيب.

- Nono، ابن Perella، عمره 11 عاماً.

- Rosaria، خادمة Paolino.

- Grazia، خادمة لدى Perella؛ (وغيرهم)

يرفع الستار على منزل الأستاذ Paolino وهو يشكو من جاره Toto، الصيدلي، الذي يدخل منزله كل صباح ليترك مفتاح شقته لدى الخادمة Rosaria، لتسلمه إلى أخيه الطبيب عند عودته. والواقع أن الصيدلي يستغل وجود الخادمة فيطلب منها أن تقدم له القهوة على حساب الأستاذ.

يدخل تلميذان لدى الأستاذ Paolino؛ وبينما هو يشرح لهما درساً، تدخل السيدة Perella برفقة ابنها Nono. وكانت تبدو على

الأستاذ علامات القلق، لأن السيدة المذكورة حبلى منذ شهرين، وقد جاءت لتؤكد لعشيقها صحة الحمل.

وسبب قلق الأستاذ هو أن زوجها Perella قبطان في البحرية، يغيب عن زوجته فترات طويلة. وكان يتوقع عودته مساء ذلك اليوم. وفكر الأستاذ أن يعرض قضية حمل السيدة Perella على صديقه الطبيب Pulejo (أخي الصيدلي)، ويطلب المساعدة. وأخبره أن القبطان كون أسرة أخرى، في بلد بعيد، وأنجب من زوجته الثانية أطفالاً. وشرح له كيف أصبح يهمل زوجته هذه، وابنه Nono، وأنه لا يرغب في الإنجاب منها. ولذلك كان القبطان كلما أتى لزيارتها يختلق الأسباب لمخاصمتها، وينام في غرفة منعزلاً ليتجنبها. وعندما عرفت أن لزوجها أسرة أخرى، اعتبرت ذلك خيانة لميثاق الزواج، وقررت أن تنتقم لنفسها، وها هي اليوم حبلى. وطلب الأستاذ من الطبيب أن يفعل شيئاً يشجع القبطان على الإقبال على زوجته، ليتمكن في النهاية نسبة الحمل إليه، وإصلاح العلاقة بينهما.

والتقى الأستاذ بالسيدة Perella فنصحها بأن ترتدي ملابس تظهر زينتها، وتبرز محاسن جسمها عندما يحضر زوجها. وكان يعتقد أنها امرأة محتشمة متواضعة. وخاطبها قائلاً: "يجب علينا أن نفعل ما يدفع زوجك إلى الإقبال عليك هذه الليلة. إنها الفرصة الأخيرة قبل سفره. إن اللقاء الأول مهم، وعليك أن تغري هذا الحيوان، وتظهر في صورة جديدة". وقدم لها علبة من أدوات التجميل والمساحيق.

ودخل الزوج يلهث مثل الفرس في حلبة السباق. ولاحظ أن زوجته قد تزينت وكشفت عن محاسنها، فضحك وقال ساخراً: ما هذا الذي

فعلته بنفسك يا امرأة! وردّ عليه الأستاذ: كلا يا صديقي، إنها تبدو على أحسن صورة لمقابلة زوجها.

وبعد العشاء كان القبطان يبدو منزعجاً، فدخل غرفة نومه وأغلق الباب. وبقيت الزوجة جالسة آملّة أن يفتح لها الباب. وكان الأستاذ يشعر هو الآخر بالقلق، فقال لزوجته القبطان سأتي في الصباح الباكر، فإذا حدث أن دعاك إلى النوم في فراشه، ضعي مزهرية الورد على النافذة لأعرف الخبر.

وفي الصباح علم الأستاذ أن المراد قد تحقق، وأن مشكلة الزوجة الحبلى قد حُلت. فتقدم إلى القبطان واعتذر له عما يكون قد صدر منه في اليوم السابق من كلام جرح مشاعره. وردّ عليه القبطان أنه على الرجل أن يبرهن لزوجته على رجولته وشبابه من حين لآخر؛ وأجابه الأستاذ: من السهل عليك أن تثبت رجولتك بجانب امرأة مثل زوجك، إنها الفضيلة تمشي على الأرض.

الجرة (بيرانديلو)

لاحظ السيد لولو زرافة أن الجرات الكبيرة الخمسة لا تكفي لاحتواء كميات الزيت، فاشترى جرة سادسة كبيرة كلفته مبلغاً كبيراً. وضعها في المخزن الذي يعصر فيه العنب.

وكان عماله قد بدأوا قطف غلات الزيتون، فكنت تراه يركض هنا وهناك، والعرق يتصبب على جبينه، وهو يحرض العمال ويهددهم إن لم يقوموا بالعمل كما ينبغي. وبعد ثلاثة أيام دخل العمال إلى المخزن لوضع السلالم، وكم كانت دهشتهم عندما وجدوا الجرة الجديدة مقسومة إلى قسمين. فتنادوا السيد زرافة الذي جنّ جنونه عندما وجد جرتّه مكسورة، فأنزل غضبه على أولئك العمال، وهو يضرب رأسه ويخبط الأرض برجليه. وعندما هدأ غضبه قليلاً أخبره المزارعون أنه يوجد رجل اكتشف نوعاً من الغراء اللاصق وبوسعه أن يصلح الجرة دون عناء.

وعندما حضر هذا الرجل الذي يدعى زديما قال له زرافه:

إن هذه المادة قد لا تكفي وحدها للإصاق نصفى الجرة بقوة. لذلك لا بد أن تحفر ثقوباً في كل جانب من جوانب الجرة لتشدها بالأسلاك. رفض زديما هذه الفكرة قائلاً إن مادة الإصاق التي صنعها كافية لإصلاح الجرة. غير أن زرافة ألح عليه بشدة بأن يشدها بالأسلاك. وبدأ الرجل ومساعدته إصلاح الجرة، وحفر ثقوباً متوازية طول الأطراف المكسورة، ثم فتح علبته التي تحتوي على مادة الغراء وراح يمسحها على الأطراف المكسورة. ثم أخذ الكلاب وقطع السلك ودخل في باطن الجرة وطلب من مساعده أن يضم نصفها بقوة، وبدأ

يُخرج طرف السلك من ثقب ويعيده إليه مساعده من الثقب الآخر، وهو يشتكي ويتذمر من هذه العملية التي فرضها عليه صاحب الجرة.

أنهى زديما عمله المنهك، وطلب من صاحبه أن يساعده على الخروج من الجرة، غير أن عنقها كان ضيقاً فلم يستطع الخروج. وحضر زرافة صاحب الجرة، فغضب عندما رأى هذا المشهد الغريب، وقال: إنى مضطر لأن استشير المحامي في هذه القضية. وكم ضحك المحامي عندما سمع هذه القصة. قال له زرافة (صاحب الجرة) سأتركه داخل الجرة، لأنني إذا كسرتها لإخراجه منها سيسخر الناس مني؛ ولكن المحامي أجابه: إن هذا العمل ضد القانون، كيف تحتجز رجلاً داخل جرة؟ ولكن يجب عليك أن تخرجه، ويجب عليه أن يعوض عليك الخسارة. فقال زرافه: هل يدفع لي ثمن الجرة؟ قال المحامي: ثمن جرة قديمة. وعندما عاد زرافة إلى منزله وجد المزارعين حول الجرة كأنهم في حفلة، وحتى زديما كان يقول من داخل الجرة: أنا هنا مرتاح أحسن من بيتي.

وقال موجهاً الكلام إلى زرافه: كان الغراء وحده كافياً لإصلاح جرتك، ولو لم تلح على ربطها بهذه الأسلاك لما وجدت نفسي سجيناً داخل الجرة. وبعد نقاش حاد بينهما صعد زرافة إلى غرفته لينام.

وبعد مضي سويعات أيقظه ضجيج كبير، وشاهد من شرفة منزله عدداً من المزارعين يرقصون حول الجرة وزديما يغني من داخلها بأعلى صوته.

خرج زرافة غاضباً مثل الثور، ودفع الجرة دفعة واحدة فراحت تتدحرج إلى أن اصطدمت بشجرة زيتون فتحطمت، وخرج منها زديما سالماً مسروراً لأنه لن يدفع أي تعويض لصاحب الجرة.

غوستاف فلوبيير

Gustave Flaubert

ولد غوستاف فلوبيير في مدينة روان (فرنسا) سنة 1821. وكان أبوه جراحاً مشهوراً، فترعرع الفتى في محيط مستشفى المدينة. وكان له أخ يكبره بثماني سنوات، وأخت، كارولين، تصغره بثلاثة أعوام. وتعرّف أثناء عطلة صيفية، سنة 1836، على فتاة تدعى أليزا أعجب بها، وكان لها أثر في بعض إنتاجه الأدبي.

طرد فلوبيير من المدرسة فاجتهد في دراسته في المنزل، وبعد أن حصل على شهادة البكالوريا، دخل كلية الحقوق في باريس. غير أنه لم يهتم كثيراً بدراسته، بل وجه اهتمامه لمطالعة الكتب الأدبية، وبدأ يعاني من متاعب عصبية، بل سقط من عربة بسبب نوبة عصبية، فقرر أن يعتزل الجامعة.

وفي سنة 1846، توفي أبوه، ثم أخته، فانتقل برفقة أمه إلى منزل الأسرة في مدينة Croisset، على ضفة نهر السين، بالقرب من مدينة روان. وفي هذا المكان قضى فلوبيير معظم حياته. وفي صيف هذه السنة تعرف على الشاعرة Louise Colet، التي ظلت عشيقته حتى سنة 1854.

وخلال الفترة 1850 - 1851، قام برحلة، برفقة مكسيم دي كامب، إلى مصر، فلسطين، سوريا، تركيا، اليونان، وإيطاليا. وبعد عودته ركز جهده خلال نحو خمس سنوات على تأليف روايته

«مدام بوفاري». وجرى نشرها أولاً في «مجلة باريس»، عام 1856، وتم طبعها في السنة التالية. وعلى إثر ذلك جرت محاكمته بتهمة المساس بالأخلاق العامة، غير أن المحكمة برأت ساحتها في نهاية الأمر.

وفي سنة 1858، قام فلوبيير برحلة إلى تونس حيث جمع معلومات استفاد منها في كتابة روايته «سالمبو» التي تدور حوادثها حول ابنة القائد هملكار سالمبو، وحول الحرب التي اندلعت بين أهل قرطاج والجنود المرتزقة. ونشرت هذه الرواية عام 1862، وحققت نجاحاً ملحوظاً.

وفي سنة 1869، أصدر الأديب كتابه L'Education sentimentale، وبدأ مراجعة كتابه الذي يحمل عنوان «ابتلاء القديس أنطوان»⁽¹⁾ للمرة الثالثة، ولم يكتب النسخة النهائية إلا في عام 1872.

وأثناء الحرب الألمانية الفرنسية عام 1870، أقام بعض الجنود الألمان في حديقة منزل أسرة فلوبيير في Croisset. وبدأت تظهر على الأديب آثار التعب. وقد توفيت أمه سنة 1872. وفي العام التالي ارتبط بعلاقات أبوية ودية مع الكاتب موبسان، الذي كان صديقاً لأم فلوبيير (لاورا) في عهد الشباب.

وفي عام 1876، بدأ فلوبيير تأليف كتاب عنوانه «ثلاث حكايات»⁽²⁾، تمكن من نشره في السنة التالية. وبدأ الأديب يواجه صعوبات مالية، خاصة بعد أن قدم مساعدات مالية لزوج ابنة أخته

(1) La Tentation de Saint Antoine

(2) Trois Contes

لإنقاذه من الإفلاس. وعلى إثر ذلك منحه الوزير وظيفة استثنائية في مكتبة Mazarine.

وبالإضافة إلى ما ذكر، ألف فلوبيير كتباً أخرى منها رواية عنوانها Candidat، ورواية أخرى عنوانها Bouvard et Pécuchet، كان على وشك الانتهاء من تأليفها عندما وافته المنية في شهر مايو (أيار) من عام 1880، في مدينة كرواسي المشار إليها.

وفيما يتعلق بأسطورة فلوبيير "القديس جوليان هوسبتالي"، تجدر الإشارة إلى أنه يوجد في الواقع قديس يحمل هذا الاسم، يروى أنه مصري، وأنه أنشأ داراً لعلاج المرضى (مستشفى)، ومن ثم لقبه "هوسبتالي".

غير أنه لا يوجد شبه بين حياة هذا القديس وبطل أسطورة فلوبيير إلا فيما يتعلق ببعض الأعمال الخيرية التي قام بها القديس وكذلك بطل أسطورة فلوبيير. يرتكب هذا البطل كثيراً من الأعمال الشريرة، ويدفعه وخز الضمير إلى القيام بأعمال خيرية ليكفر عن ذنوبه. ونجده في نهاية القصة مستعداً ليضحي بحياته لينقذ رجلاً أبرص من الموت.

وفي اللحظة الأخيرة تحدث معجزة، فيصعد الرجل الأبرص (وهو السيد المسيح في نظر الكاتب) رافعاً معه بطل القصة إلى السماوات العلا، بعد أن تيقن من توبته.

وفيما يلي ملخص لقصتين من قصص فلوبيير القصيرة:

- أسطورة القديس جوليان الهوسبتالي.
- القلب الطيب.

أسطورة القديس جوليان الهوسبتالي⁽¹⁾

كانت أسرة جوليان تسكن قصرًا مشيداً وسط الطبيعة. وكانت الزوجة تطلب من الرب في صلواتها أن يرزقها ولداً. وذات ليلة شاهدت حزمة من شعاع القمر تتسكب داخل غرفتها. وسرعان ما تحول هذا الشعاع إلى شبح شيخ وسيم الطلعة، وقال لها: سترزقين ولداً يصبح قديساً. وفي الغد مثل شبح آخر أمام الزوج وقال له: سترزق ابناً يسيل كثيراً من الدماء، ويكون له مجد عظيم.

ترعرع المولود جوليان في رعاية أبويه، فحرصاً على تعليمه الكتابة، وركوب الخيل، والصيد واستخدام السلاح. كان الأب يتوقع أن يكون ابنه قائداً عظيماً، وكانت الأم تتمنى أن يصبح من كبار رجال الكنيسة.

وذات يوم بينما كان الطفل في الكنيسة برفقة أبويه، شاهد فأراً يطل ويختفي في إحدى زوايا الكنيسة، أثناء أداء صلوات القداس، فانتهاز الفتى الفرصة، عندما شاهده في مناسبة أخرى، وقتله. وخرج جوليان إلى الحديقة، ورمى حمامة بحجرة فسقطت. فأسرع إليها، وقطع رقبتها بيديه.

وكان جوليان يخرج إلى الغابات والبراري، ويمعن في قتل ما

(1) العنوان: La Légende de saint Julien L'Hospitalier.

المؤلف: Gustave Flaubert

يصادف من حيوانات وطيور، مستخدماً سيفه ونباله، ومستعيناً بالكلاب والصقور. كان يفعل ذلك دون رحمة، بل يجد فيه متعة ولذة.

وذات يوم وجد نفسه أمام مجموعة من حيوانات الأيل، فرماها جميعها بسهامه. ولكنه تعجب عندما اقترب منه أيل كبير وقال له: ستقتل أمك وأباك ذات يوم؛ كررها ثلاث مرات ثم سقط ميتاً. شعر جوليان بمشاعر التعب والهم والحزن تغمره، وأجهش بالبكاء وظلت كلمات الأيل الجريح تقلق نفسه.

غادر جوليان القصر، ودخل في مغامرات كثيرة، وجال في بلدان عديدة، وأبدى شجاعة كبيرة، وأنجز أعمالاً خيرية، فدافع عن الكنائس، وحمى الأيتام والأرامل والشيوخ. وانضم إليه كثير من العبيد والثائرين ممن أعجبوا بشجاعته وأفعاله، فألف جيشاً قوياً، وانتشرت أخباره وعلا شأنه، فساعد بجيشه ولي عهد فرنسا، وملك انكلترا، وفرسان المعبد في القدس، وغير ذلك.

وذات يوم أنقذ إمبراطوراً كان سجيناً لدى عدوه، فزوجه ابنته مكافأة له. وقرر الفارس جوليان أن يبتعد عن الحروب والمغامرات، وأن يعيش مع زوجته في هناء وهدوء، متمتعاً بما توفره له حياته الجديدة من رخاء واحترام. غير أن تنبؤ الأيل الجريح، بأنه سيقتل أبويه، كان يثير قلقه من حين لآخر.

وذات مساء عادت إليه رغبة الصيد، فحمل سلاحه، ووعد زوجته بأنه سيعود إليها قبل طلوع الشمس. وأثناء غيابه حضر إلى القصر رجل وامرأة مسنان، وأخبرا ربة المنزل بأنهما والدا جوليان، وأظهرا لها من الأدلة ما أكد لها ذلك. تولى الخدم رعايتهما،

وأعدوا لهما الغرفة التي ينام فيها جوليان، فناما في سريره نوماً عميقاً، بعد متاعب السفر الطويل.

لقي جوليان في الغابات والجبال حيوانات كثيرة، غير أن سهامه لم تقتل أيّاً منها، فشعر بالخيبة والغضب، وولى راجعاً إلى القصر. وشعر كأن هذه الحيوانات تتبع خطاه وتحاصره كأنها تسعى إلى الانتقام منه.

دخل جوليان القصر ليلاً في هدوء، واتجه إلى سريره ليعانق زوجته، غير أن يده وقعت على لحية رجل، فتردد قليلاً واحتار، ثم جس الجانب الآخر من السرير، فلمس شعراً طويلاً يشبه شعر زوجته، فظن أن زوجته اغتتمت فرصة غيابه ليلاً لتخونه مع رجل آخر، وانها على النائمين بخنجره وهو يصيح مثل الحيوان المتوحش.

وفجأة ظهرت زوجته وراءه تحمل مصباحاً، فظن أن ما يشاهد إنما هو شبح زوجته القتيل، وارتاعت الزوجة لهول ما رأت، فرمت المصباح وفرت. ورفع جوليان المصباح وحدق في وجه القتيلين فتأكد أنه قتل أبويه. تذكر نظرات ذلك الأيل الجريح الذي تنبأ له بأنه سيقتل أباه وأمه.

وبعد دفن والديه سلك درباً يقود إلى الغابات والجبال، وسار أياماً وليالي هائماً على وجه البسيطة، والحزن يمزق أحشائه. وكان بعض السكان يرثون لحاله ويقدمون بعض الطعام، وآخرون ممن عرفوا قصته يغلقون نوافذهم عندما يشاهدونه.

كان عبء الجريمة يثقل ضميره، فراح يرمى بنفسه في المهالك

عساه يكفر عن ذنبه. وبدأ يتحمل الآلام ويخاطر بحياته من أجل إنقاذ المعاقين والعجزة، ومساعدة المستضعفين. وأيقن أن فعل الخير وحده هو الذي يخلصه من معاناته النفسية، ويخفف عنه عذاب الضمير، وعرف أن سبيل التوبة هو الخلاص.

وصل ذات يوم إلى ضفة نهر عميق، ووجد بين الأعشاب مركباً قديماً، فأخرجه وأصلح ما انكسر منه، وراح يستخدمه لمساعدة السكان على العبور إلى الضفة الأخرى. ولم يكن يطلب منهم شيئاً، بل كان بعضهم يقدم له بعض الطعام أو الملابس البالية. وذات ليلة سمع صوتاً يناديه باسمه من الضفة الأخرى، فهرع إليه، فوجد رجلاً متسربلاً في خرق قديمة، كأن على وجهه قناعاً. لقد كان البرص يغطي جسده من شعره إلى قدميه.

نقله جوليان إلى كوخه، وقدم له ما لديه من طعام وشراب، وكان الأبرص يرتعش من البرد، فأوقد له ناراً، ثم وضعه في سريره وغطاه. وطلب منه الرجل أن يضطجع إلى جانبه، ففعل. وكان الأبرص لا يزال يرتعش من البرد، فطلب من جوليان أن ينزع ملابسه ويضطجع فوقه ليدفئه بحرارة جسده. ففعل جوليان ذلك، مضحياً بصحته. ألم يتب توبة صادقة؟ ألا يسعى الآن مخلصاً لإنقاذ روحه من العذاب؟

وفجأة تغير كل شيء داخل الكوخ. استنار وجه الرجل الأبرص ولعت عيناه كأنهما نجمتان، وأصبحت رائحته كأنها عطر الزهور الزكية، وامتلاً الكوخ بروائح طيبة، وغمرت نفس جوليان موجة من البهجة والرضا. حقا، لقد حدثت المعجزة، وصعد الرجل، وهو يضم جوليان إلى صدره، نحو السماوات العلاء. أجل، لقد قبل توبته، ورفع

معه إلى جوار من وسعت رحمته كل شيء، ولم يكن هذا الرجل سوى السيد المسيح عليه السلام (1).

(1) التوبة خلقت معجزة في أسطورة فلوبيير.

القلب الطيب (1)

بعد وفاة والدى الفتاة فليستي (Felicité)، استخدمها أحد الفلاحين لرعاية الأبقار، غير أنه لم يحسن معاملتها، وطردها بتهمة السرقة، وكانت بريئة. واشتغلت في مزرعة أخرى لتربية الدواجن. وذات يوم رافقت أصحاب المزرعة لحضور حفلة في القرية. وطلب منها شاب أن ترقص معه، ففعلت. كان عمرها ثماني عشرة سنة. وكانت تغتم الفرصة للقائه، وطلب منها أن تتزوجه، فترددت. وذات يوم علمت أنه تزوج امرأة عجوزاً غنية لأنه كان في حاجة لمساعدتها.

وانتقلت الفتاة فليستي للعمل لدى السيدة أوبان، التي توفى زوجها، وكانت تملك قصراً ومزرعة. واهتمت الفتاة بعملها، وفرحت بوجودها ضمن هذه الأسرة، وكان لربة المنزل طفلان بول، وفيرجيني، فأحسنت الخادمة رعايتهما. وحدث ذات يوم، بينما كانت الأسرة تتجول في الخلاء، أن هجم ثور على أفرادها، فغامرت فليستي بنفسها، وراحت ترمى التراب في وجه الثور لتمكن الآخرين من الفرار. وحدث أن أظهرت هذه الفتاة كثيراً من الحب والكرم وحسن المعاملة مع من حولها.

وذهب بول وفيرجيني للدراسة في مدرسة داخلية، فأحسنت فليستي بالوحدة، وطلبت من سيدتها أن تسمح لها بأن تستضيف

(1) العنوان: un coeur simple

المؤلف: Gustave Flaubert

قريبها فيكتور، فأحسنت إليه، وكانت تزوده ببعض الهدايا عندما يعود إلى أهله.

وعلمت فليستي بوفاة قريبها فيكتور، ثم توفيت الفتاة فرجينيا، بعد مرض عضال، فغمر الحزن والألم قلبها، غير أنها كانت تجد من الشجاعة ما يساعدها على مواساة سيدتها ورعايتها، وترافقها إلى المقبرة لوضع الزهور على قبر فرجينيا.

أصبحت فليستي تعيش إلى جانب سيدتها، وحيدتين في هذا القصر الواسع. وأهدى أصدقاء ببغاء جميلاً إلى ربة القصر، فوجدت فليستي فيه ما يسليها ويشغل بعض وقتها، فرعته كأنه أحد أعضاء الأسرة، غير أنها تركته ذات يوم في الحديقة، فاختفى ولم تعثر له على أثر.

ومرت الأيام، وفي يوم من أيام الشتاء الباردة، عاد الببغاء إلى القصر، ومات في قفصه، فبكته طويلاً، ونصحتها سيدتها أن تدفعه إلى خبير ليصبره ويحشوه بالقش، ففعلت، واحتفظت به في غرفتها.

وتوفيت السيدة أوبان، ربة القصر، فكان حزن فليستي على فراقها عميقاً، وجاء الورثة فأخذوا الأثاث، وأعلنوا عن بيع القصر أوكرائه، وكانت سيدتها قد أوصت لها بإيراد يساعدها بقية حياتها.

ومرت السنين، وفليستي وحدها في القصر، إذ لم يتقدم أحد لشرائه، واشتد عليها المرض فلزمت الفراش، ونظم أهل القرية حفلة كبيرة في حديقة القصر، فحزنت لأنها لم تشارك فيها، وطلبت حضور القس فأوصته أن يحافظ على الببغاء الذي أحبته، اشتد عليها السعال، ثم أغمضت عينيها، وعلت وجهها ابتسامة إذ شاهدت، بل

خيل لها أنها تشاهد، ببغاء عظيما يحلق فوق رأسها، وأسلمت روحها البريئة لخالقها.

أميل زولا

Emile Zola



من أكبر الروائيين في فرنسا، في أواخر القرن التاسع عشر، ألف كذلك في المسرح، عمل في الصحافة، واهتم بالنقد الأدبي والفني والمسرحي، كما كتب عددا كبيرا من القصص، ونحو أربعة آلاف رسالة إلى مراسليه في فرنسا وخارجها، كان زولا رجلا عصاميا طموحا، غزير الإنتاج، ويلاحظ القارئ لقصته القصيرة "نانتاس" أن في بطلها بعض صفات زولا.

ولد زولا في باريس سنة 1840، أبوه إيطالي، وأمه فرنسية وحصل الفتى على الجنسية الفرنسية عام 1862. كان الأب مهندسا وعالما في الرياضيات، وقد قضى في الجزائر فترة مع فريق الليف الأجنبي، خلال مرحلة الاحتلال الأولى 1831-1832.

وفي عام 1843، استقرت الأسرة في مدينة إكس - أن - بروفانس. وفاجأ الموت الأب ولم يتجاوز زولا سن السابعة، فعانت الأسرة من ضيق العيش. قضى زولا فترة شبابه في هذه المدينة؛ ودخل مدرسة بوروبون، وفيها تعرف على شابين هما سيزان، وباي (Baille)، ودامت صداقتهم فترة طويلة.

وفي 1858، التحق بأمه في باريس، ودخل ثانوية سان - لويس،

غير أنه لم ينجح في امتحان الباكالوريا، فترك الدراسة، وعانى من البطالة والفقر. وعمل في مستودع للبضائع لفترة قصيرة. وفي 1862، بدأ يعمل في دار (Hachette)، حيث وكل إليه مسؤولية الإشهار. وفي 1864، بدأ ينشر مقالات في الصحف والمجلات، ويؤلف القصص. وتعرف على فتاة تدعى ألكسندرين، تزوجها بعد بضع سنوات.

انتقل زولا إلى مدينة بوردو ليشغل وظيفة سكرتير في هيئة حكومية للدفاع الوطني. وبعد بضع سنوات عاد إلى باريس وكرس حياته للكتابة والصحافة. ومنذ شبابه ظل الفتى مثابراً على البحث والمطالعة والعمل الجدي. واهتم بربط علاقات مع كبار الفنانين والأدباء أمثال موبسان، دودي، ألكسيس، مالارمي وغيرهم، واتسع نطاق علاقاته بمرور السنين.

وفي 1867، ألف زولا أول رواية طويلة⁽¹⁾، غير أن عمله الجدي بدأ في 1870 عندما شرع في إنجاز مشروعه الضخم تحت عنوان "عائلة رجون - ماكار". وعندما أصدر روايته L'Assommoir لقيت نجاحاً كبيراً، وأصبح زولا يعتبر رائد "حركة الطبيعيين"؛ وبدأ دخله يرتفع عندما تعاقد مع Charpentier على نشر رواياته ضمن سلسلة "عائلة رجون - ماكار" المذكورة، مقابل خمسمائة فرنك شهرياً. اشترى زولا منزلاً في Medan، كان يقضي فيه بضعة شهور في العام. وأصبح من الملازمين لصالون Charpentier، واتسع نطاق معارفه من الأدباء؛ ونحت له الفنان سولاري تمثالاً نصفياً.

(1) عنوانها: Thérèse Racquin

وفي 1880، صدرت روايته "نانا" فكان لها ردود أفعال سلبية، وواجه المؤلف موجة انتقادات، لما تضمنته من صور لا تليق بالأخلاق العامة السائدة؛ وتصدى زولا للرد على منتقديه. وبدأ يفكر في العمل لكتابة روايته "جيرمنال"، فزار مناجم Anzin في شمال فرنسا، ليشاهد عن قرب ظروف حياة عمال المناجم، ولتكون حوادث هذه الرواية أقرب ما تكون إلى الحقيقة. وقد حققت له هذه الرواية مزيداً من النجاح والشهرة.

وفي عام 1888، حصل على عضوية "تنظيم ليف الشرف"⁽¹⁾، وفي هذه السنة بدأ علاقة مع خادمته جين، فأنجب منها ابنة وولداً⁽²⁾. وفي العام التالي رشح نفسه لعضوية الأكاديمية الفرنسية، وأعاد المحاولة مراراً دون نجاح. وفي سنة 1891 - 1892، انتخب رئيساً لجمعية الأدباء. وفي عام 1898، نشر رسالته الشهيرة في جريدة "لورور" تحت عنوان "إني أتهم"، كان ذلك دفاعاً عن ضابط يهودي في الجيش الفرنسي يدعى دريفوس، اتهم بالتجسس لحساب ألمانيا.

وفي هذه السنة رفع عليه ثلاثة من الخبراء قضية اتهموه بتشويه سمعتهم، فحكم عليه بالسجن، ودفع عشرة آلاف فرنك لكل واحد منهم. ففر إلى لندن، ولم يعد إلا بعد عام. وعلى إثر ذلك نشر كتاباً عنوانه "الخصوبة"، وهي أول رواية من مجموعة عنوانها "الأناجيل الأربعة"، وتشمل عنوانين آخرين هما "العمل"، و"الحقيقة". غير أن المنية وافته قبل أن ينتهي من هذه المجموعة.

(1) أبعد منه سنة 1898.

(2) تأسف كثيراً لأنه لم ينجب أطفالاً من زوجه ألكسندرين.

وفي 28 سبتمبر 1902، عاد زولا وزوجه من منزل الأسرة في ميدان (على نهر السين) إلى باريس. وفي المساء أوقدت ناراً في المدفأة، في غرفة النوم. وفي تلك الليلة توفي الأديب اختناقاً بسبب انتشار ثاني أكسيد الكربون في الغرفة، ونجت زوجته.

وللتعليق على أهم مؤلفاته ("عائلة روغون - ماكار" Rougon-Macquart، تجدر الإشارة إلى أن فكرة الحتمية العلمية كانت سائدة في فرنسا أثناء الجزء الأخير من القرن التاسع عشر. ومعناها أن كل شيء في سلوك الإنسان محدد وراثياً وبيولوجياً.

وكان زولا يرى أنه بوسع الكاتب أن يلجأ إلى نوع من التحاليل المخبرية (في مخيلته) للكشف عن بواعث سلوك أشخاص رواياته، وليفسر للقراء مدى تأثير العوامل الوراثية والبيئية على تصرفات الناس وأساليب حياتهم، وليكشف أسباب النجاح وال فشل، والصلاح والفساد، والسعادة والشقاء، ومدى تأثير كل ذلك على العلاقات الاجتماعية. ولهذا يعتبر زولا مؤسس الحركة التجريبية في الرواية، والمذهب الطبيعي. ومن الواضح أنه ليس من السهل التوفيق بين النظريات العلمية والطبيعية (كالوراثة) وبين الخيال الضروري في مجرى حوادث الرواية.

وفي عام 1870، شرع زولا في العمل على تأليف سلسلة طويلة من الروايات، استمر في إنتاجها اثنين وعشرين عاماً، وبلغ مجموعهما عشرين رواية. كان عنوان هذا المشروع الضخم هو "عائلة روغان - ماكار"، وجعل لها عنواناً تفسيرياً هو "التاريخ الطبيعي والاجتماعي لأسرة في الإمبراطورية الثانية" وتعتبر هذه السلسلة من

الروايات سجلاً حافلاً بمشاهد الحياة، انطلاقاً من عودة نابليون الثالث إلى عرش فرنسا، حتى شهر سبتمبر من عام 1870، أو الهزيمة في معركة سيدان.

ومن الروايات الهامة التي تشملها هذه المجموعة:

- **جيرمنال** : التي يصور فيها الكاتب حياة مجموعة كبيرة من العمال في مناجم فرنسا.

- **L'Assommoir** : ويصور فيها الحياة في الحانات والمطاعم والفنادق.

- **باريس**: وتتركز حوادثها في أسواق باريس المركزية، ويعالج فيها زولا مشاكل الحياة، والصراع الدائر بين الأقياء والضعفاء، وتكون الغلبة للطبقة الأولى.

- **الارتطام**: ويصف فيها كوارث حرب 1870. ومنها أيضاً:

- **الأرض** : يصف فيها حياة المزارعين؛ ومحل المسكرات؛ ورواية نانا، وتعالج مشاهد الفساد، والرغبات الجنسية، وانحطاط الأخلاق.

وفيما يلي فكرة موجزة عن بعض مشاهد رواية زولا الشهيرة "جيرمنال"؛ يليها ملخص لقصته القصيرة "نانتاس".

جيرمنال⁽¹⁾

يقدم لنا إميل زولا في روايته "جيرمنال" صوراً واقعية، حيّة ومفصلة عن ظروف عمل ومعيشة عمال المناجم القاسية في مناجم مونتسو Montsou، في شمال فرنسا⁽²⁾. ويصور المؤلف مشاهد الشقاء والفقر والبؤس والآم التي يعانيها عمال المناجم الذين يعتمدون في جميع احتياجاتهم الحيوية على ما تقدمه لهم شركة المناجم من وسائل العيش المزرية ومن أجور زهيدة.

فالعمال يعانون الجوع، والبرد، وانعدام الأمن، وسوء المعاملة، وانعدام الوسائل الصحية .. إنهم يعيشون في سجن كبير هو حي المناجم، وسط الوحل، وغبار الفحم، وظلام دهاليز المناجم. وظروف المعيشة هذه تولد في نفوس العمال الكراهية والغضب، وتدفعهم إلى التمرد على إدارة المناجم، وفي النهاية إلى الإضراب كوسيلة أخيرة لتحسين ظروف معيشتهم البئيسة.

❖ فكرة موجزة عن بعض حوادث رواية «جيرمنال»⁽³⁾

إتيان شاب يبحث عن عمل. يصل إلى منجم للفحم قرب مدينة مانتسو في شمال فرنسا، في شهر مارس، وهو يعاني من الجوع

(1) عنوان الرواية: Germinal

المؤلف : Emile Zola

(2) تقع مدينة Montsou في شمال فرنسا، قرب مدينة Lille.

(3) كلمة germinal، من الفعل germer الذي يعني عملية "الإنبات" بعد أن تزرع البذور،

فتنمو وتتشعشع.

والبرد. وجد عملاً في المنجم، وتعرف على Maheu (ماهو) المسؤول على جماعة من العمال، فشرح له نوع العمل الذي سيقوم به، كما تعرف على فتاة مراهقة تدعى كاترين، وهي ابنة ماهو، وعلى شاب يدعى شافال يعمل ضمن جماعة ماهو. وأعجب الفتى إتيان بالفتاة الجميلة كاترين التي ظن في أول لقاء معها أنها شاب نظراً لنوع لباسها ولأنها كانت تغطي شعرها. وسرعان ما بدأ التنافس بينه وبين الشاب شافال المذكور حول من يفوز بوجدها وهي لم تتجاوز الخامسة عشر سنة من العمر.

وتعرف الشاب إتيان على رجل يدعى راسنير الذي كان يعمل في المنجم، ثم فتح مقهى متواضعاً في حي المنجم، وهو الآن يمثل أولئك العمال الناقمين على ظروف معيشتهم في المنجم. ودار الحديث بين إتيان ورأسنير حول كيفية توعية عمال المنجم فيما يتعلق بالسعي لتحسين ظروف عملهم. كما تعرف إتيان على رجل يدعى سوفارين، وهو لاجئ روسي يبرر اللجوء إلى العنف لإقناع أرباب العمل على الاعتراف بحقوق العمل.

وتناول الحديث بينهم جمعية العمال الدولية التي أنشئت في مدينة لندن، وقال إتيان إنه يحبذ فكرة بلوشار، مندوب الجمعية المذكورة، الرامية إلى إنشاء فرع لها في المنجم لتوعية العمال، وكذلك إنشاء صندوق تضامن يقدم للعمال الخدمات الضرورية إذا دعت الحاجة، وذكر إتيان بأنه من الممكن تحقيق كل ذلك بالوسائل السلمية إشارة إلى أفكار سوفارين المتطرفة. وعلق هذا الأخير بأنه لا داعي الآن للحديث عن هذه الآمال والأحلام، لأن ما يهم العمال حالياً هو رفع أجورهم وتحسين مستوى معيشتهم.

كانت هذه الآراء تناقش في مقهى راسنير، أو عندما يجتمع إتيان ببعض رفاقه في منزل ماهو مساءً. وكانت أسرة ماهو تتألف من تسعة أشخاص، وعندما تزوج أحد أبناء ماهو، سمح للشباب إتيان بأن يتخذ مأوى في منزله. وسرّ الفتى بذلك لأنه يمكنه من مشاهدة الفتاة كاترين (ابنة ماهو) عن قرب.

وذات يوم ذهب ماهو ليتسلم أجور الجماعة التي تعمل تحت مسؤوليته، ومنهم إتيان، كاترين، شافال وغيرهم، فدهش عندما لاحظ أن الشركة خفضت الأجور لأسباب لم يقتنع بها العمال، فزاد قلقهم وسخطهم، وأخذت الأفكار التي نشرها إتيان تنتشر بين العمال، وتتحول إلى احتجاج وتمرد.

وذهب ماهو (مسؤول إحدى فرق العمل)، يرافقه وفد من العمال من بينهم إتيان، إلى مدير المنجم، واسمه هنيبو، فشرح له مطالب العمال، وأنهم لا يرغبون إلا في تحسين ظروف عملهم ومعيشتهم. فرد هنيبو بأن العمال انضموا إلى جمعية يسيطر عليها أشخاص يدفعونهم إلى ما لا تحمد عقباه. وقال إتيان إن العمال حتى الآن لم ينضموا إلى أية منظمة، وأن الأمر ما زال في يد إدارة المنجم، وأن موقف العمال يتوقف على موقف الإدارة من مطالبهم.

طلب إتيان الدعم من بلوشار مندوب جمعية العمال الدولية، وانضم عمال المنجم إلى هذه الجمعية، وأعلنوا الإضراب عن العمل، فجاءت إدارة المنجم بعمال بلجيكيين ليقوموا بعمل المضربين، كما جلبت ستين جندياً لحراسة مداخل المنجم.

تقدم ماهو صفوف العمال، وراح يتحدى الجنود والمسؤولين، وهو

يصرخ ((إذا قتل فإن وراءه عشرة آلاف عامل..))، وبدأت جموع المتظاهرين. ترمي الجنود بالحجارة، واشتد النزاع وتعالى الصراخ... وفجأة أطلق الجنود النار، فسقط عدد من القتلى من بينهم ماهو.

كان سوفارين، كما تقدم، يميل إلى استخدام العنف لإجبار أرباب العمل على الاستجابة لمطالب العمال، ولذلك قرر أن يلجأ هذه المرة إلى تخريب المنجم، فتسلل داخل دهاليز المنجم ونفذ عمله بإحكام، ففسد الآبار والأجهزة، وغمرت المياه المنجم. وكان من بين العمال الذين حوصروا داخل المنجم إتيان وكاترين وشافال..

وحتى في تلك الظروف القاسية داخل المنجم، اشتد الشجار بين الرجلين حول من يفوز بالفتاة، واستطاع إتيان أن يقتل منافسه. وعلى الرغم من محاولات إنقاذ العمال المحاصرين داخل المنجم، فقد بقي بعضهم داخله بضعة أيام يعانون البرد والجوع وغبار الفحم، يحيط بهم الماء؛ وقضت الفتاة كاترين نحبها بسبب الحمى، على صدر عشيقها إتيان.

أما إتيان فقد تم إنقاذه، وقضى ستة أسابيع في مستشفى، وقررت الشركة طرده من المنجم. وكان بلوشار، مندوب جمعية العمال الدولية، قد بعث إليه بعض النقود، وطلب منه أن يلتحق به في باريس، فودع رفاقه واستعد للسفر.

فشل إضراب العمال، واضطروا للعودة إلى العمل في المنجم لكسب لقمة العيش. وغادر إتيان منجم مونتسو، وكله أمل في أن تنجح محاولات أخرى في تحقيق مطالب العمال، ورفع الشقاء عن المعذبين في الأرض. وكان يشعر وهو يغادر حي المنجم بأن البذور التي زُرعت ستنتب أعشاباً وزهوراً وأشجاراً تحي أرض المنجم وتعيش حياة عماله.

نانتاس (1)

كان الفتى نانتاس يتابع دراسته في مدينة مرسيليا، وأبوه يعمل في البناء. وكان هدف أبويه أن يحصل على شهادة البكالوريا. توفيت أمه، وأصيب أبوه في حادث أثناء العمل، فرضى الفتى بعمل متواضع قضى فيه اثني عشر عاماً. وعندما توفي أبوه، باع ما في المنزل من أثاث متواضع، وسافر إلى باريس وليس في جيبه أكثر من مائتي فرنك.

كان نانتاس رجلاً طموحاً حازماً، قوي الإرادة، وكان دوماً يردد لنفسه أنه لا بد أن ينال يوماً نصيبه من الدنيا؛ ولو أنه اليوم قد بلغ الثلاثين من العمر، وهو لا يملك شيئاً.

وراح يسعى صباحاً ومساءً في أحياء باريس باحثاً عن عمل. ومرت الأيام، ونال منه التعب دون نتيجة. وظل طيلة شهر يعيش على قطعة خبز. عانى من الجوع، وبليت ثيابه، وحفيت قدماه، ولكن يعود كل يوم إلى غرفته المتواضعة فارغ اليدين، وهو يشعر بالمرارة.

دخلت غرفته فتاة تدعى شوان، وبادرته قائلة: سمعت عن ظروف معيشتك القاسية، وكذلك عن رغبتك في الحصول على عمل .. وقد جئتك بحل ينقذك مما أنت فيه، فهل ترغب في الزواج؟ هناك فتاة من أسرة غنية تبحث عن الرجل المناسب الذي يعطي اسمه لمن في بطنها،

(1) عنوان القصة : Nantas

المؤلف : Emile Zola

لأن الأب الحقيقي رجل متزوج...، وأضافت شوان بأنه في حالة انعقاد الزواج تنتظر أن يقدم لها نانتاس مكافئة لاثقة، عشرين ألف فرنك. وأخبرته بأن الفتاة الحامل تدعى فلاني، وهي ابنة البارون دوفيلبي، ثم وضعت مبلغاً على الطاولة وانصرفت.

في اليوم التالي حضر نانتاس للقاء البارون، الذي كان يعتقد أنه هو الأب الحقيقي لمن في بطن ابنته، فبدأ بلومه واشتد في توبيخه. ثم أبلغه بأنه سيتسلم مبلغ مائتي ألف فرنك بعد عقد الزواج، وهو من ميراث أم الفتاة. وبعد تسجيل الشروط المتفق عليها، طلب البارون حضور ابنته وأبلغها بأن حفلة الزواج ستتم في الموعد المحدد.

خرج البارون، وبقيت فلاني مع نانتاس، فتم الاتفاق بينهما على أنه سيعطي اسمه للمولود شريطة أن تساعد أسرتها على تحقيق مشروعات يطمح إليها، وبلوغ وضع اجتماعي يحلم به. وكان شرطها عليه أن يكون زواجهما على الورق فقط، وأن يسكن كل منهما في شقة منفصلة.

مرت عشر سنوات أصبح خلالها نانتاس رجل أعمال ناجح، فأنجز مشروعات ضخمة، وحقق مركزاً اجتماعياً مرموقاً، وتخلى له البارون عن الفندق الكبير، وكوّن ثروة واسعة، وأصبح نائباً في البرلمان...، وأصبح يطمح إلى أن يصبح وزير المالية.

وذات يوم زاره أحد رجال الإمبراطور، وأبلغه أن الإمبراطور يرغب في توليته مسؤولية وزارة المالية. ودأر بينهما حوار طويل حول الموضوع، وطلب نانتاس من ضيفه أن يبلغ الإمبراطور بموافقته وبيع بعض ما ينوي إنجازها في هذه الوزارة.

ازداد تعلق نانτας بزوجه عبر السنين، وكان يتمنى أن تستجيب لحيته وتعرب له عن تعلقها به. وكان يخامرته الشك أحياناً في أنها ربما جددت علاقتها مع عشيقها الأول. وطلب منها أبوها ذات يوم أن توضح له أسباب هذا التجافي بينها وبين زوجها. فأخبرته بأن نانτας ليس الأب الحقيقي لابنها، وأنه إنما باع اسمه بذلك الاتفاق ليغطي خطيئة رجل آخر؛ وأكدت له أنهما لم يجتمعا أبداً في فراش واحد.

حقق نانτας نجاحاً كبيراً في تنظيم شؤون وزارة المالية، وزادت شهرته وتقدير المسؤولين لإنجازاته. وظلت أمنيته الكبرى أن يحظى بإعجاب زوجته وحبها. وأخذ فشله في هذا الموضوع يقلقه. أرسل في طلب السيدة شوان، وطلب منها أن تراقب زوجها وأن تخبره بجميع تحركاتها، مقابل مكافأة سخية.

وذات يوم لقيت شوان عشيق فلافي السابق، وفهمت منه أنه يرغب في لقاءها، فاتفقت معه (مقابل مكافأة سخية أيضاً) على موعد لتدخله إلى شقة فلافي دون معرفتها لتكون المفاجأة كبيرة. وفي الوقت ذاته أبلغت نانτας بموعد اللقاء في شقة زوجها، ليكشف الخيانة.

دق نانτας الباب، منعتة فلافي من الدخول بناء على اتفاقهما المكتوب، ولما لاحظت شدة غضبه وهو يؤكد لها وجود رجل في بيتها، أفسحت له المجال. ولما لم يعثر على شيء اتجهت هي إلى النافذة وسحبت الستار، فإذا بالرجل متخفياً وراءه، وهي لا تعلم بوجوده. أكدت لزوجها أنها لو كانت ترغب أو تعلم بوجوده لما كشفت أمره. وسألته أن يسامحها على ما حصل.

عاد نانτας إلى مكتبه، فوضع مسدساً في جيبه، وذهب إلى

الغرفة المتواضعة التي سكنها عندما قدم إلى باريس، وكان قد اشتراها. وراح يردد لنفسه: في هذه الغرفة عانيت من البؤس والشقاء، وفيها سأضع حداً لخيبتني وآلامي.

وفي اللحظة التي وجه فيها المسدس إلى رأسه، دفعت فلافي الباب مسرعة نحو نانτας، وأبعدت المسدس عن رأسه وهي تصرخ: أحبك، أحبك يا زوجي العزيز، وعانقته بحرارة. وسمع نانτας الكلمة التي تمنها طيلة سنوات، فعانقها وقبلها، وعاشا في ظلال المودة والوئام.

ألفونز دودي

Alphonse Daudet



ولد الفونز في مدينة نيم (Nime)، عام 1840؛ وكان أبوه يتاجر في الأقمشة. وعندما فشلت تجارته وتعرض للإفلاس، انتقل بأسرته إلى مدينة ليون. وكان سنّ الفونز تسع سنوات، فالتحق بمدرسة هناك. غير أنه اضطر لكسب معيشته قبل أن ينهي دراسته الثانوية، فعمل حارساً في إحدى المدارس.

وفي عام 1857، التحق بأخيه في باريس، وبدأ يكتب في إحدى الجرائد عن أخبار البلاد نثراً وشعراً. كان فتىً وسيماً، فتعرف على فتاة من عارضات الأزياء، وأهدى لها ديوانه الشعري المعنون Les Amoureuses. وفي وقت متأخر من حياته استوحى من هذه العلاقة قصته "صافو".

وفي سنة 1860، بدأ يعمل كاتباً لدى الدوق مورني Morny، واختلط بالأوساط الفنية والأدبية، وفتحت بعض الجرائد صفحاتها لينشر مقالاته وحكاياته. وقام الفونز برحلة إلى الجزائر، ثم إلى كورسيكا. وتعرف على الأديب ميسترال الذي شجعه على توجيه اهتمامه إلى منطقة بروفانس (في جنوب فرنسا). وألف الفونز مسرحية عنوانها La Dernière Idole، أحدثت تأثيراً واسعاً عندما جرى تمثيلها في باريس عام 1862.

وفي سنة 1867، ألف كتاباً عنوانه Le Petit Chose، وهو يذكرنا فيه

بحياة ذلك الشاب الفقير (ألفونز) الذي يثير في نفس القارئ مشاعر العطف والشفقة. وفي هذه السنة تزوج الكاتب سيدة تدعى جولي (كاتبة مرموقة)، وفرت له المساندة والتشجيع في مجال إنتاجه الأدبي، وأنجبت له ولدين وبناتاً.

وألف ألفونز كتابه الشهير "رسائل طاحونتي"⁽¹⁾، وهي تتكون من أربعة وعشرين رسالة، كتبها خلال الفترة 1865 – 1868، وكانت تنشر في الجرائد الباريسية. ويتعلق معظمها بذكرياته في منطقة بروفانس (Provence) وبانطباعاته عنها؛ واستوحى الكاتب بعض قصصه المذكورة من زيارته للجزائر، ولجزيرة كورسيكا؛ وتناول في عدد منها موضوعات متنوعة.

وكتب مغامرات Tartarin de Tarascon سنة 1872؛ وحكايات يوم الاثنين⁽²⁾ في السنة التالية. ثم ألف مجموعة من الروايات، منها Fromont jeune et Risler aîné عام 1874 التي حققت نجاحاً مرموقاً وحازت جائزة من الأكاديمية الفرنسية. وبالإضافة إلى ما ذكر، للكاتب مؤلفات أخرى عديدة لا تسمح هذه الخلاصة بالتعليق عليها⁽³⁾.

أصيب ألفونز دودي بمتاعب عصبية ومرض تناسلي، سببت له معاناة في الأعوام الأخيرة من حياته. وقام برحلة إلى لندن وفتيسيا (البندقية) سنة 1895. ووافته المنية في شهر ديسمبر (كانون الأول) من عام 1897.

(1) Les Lettres de mon moulin.

(2) Les Contes du Lundi

(3) منها:

Jack; Nabab; les rois en exile; Nouma et Romestan; le trésor d'arlatan; Rose et Ninette; Sapho.

وفيما يلي ملخص لثلاث من حكايات الفونز دودي القصيرة:

- بغلة البابا.
- سرّ السيد كورنيل.
- عنزة السيد سوغان.

بغلة البابا⁽¹⁾

تدور حوادث هذه الحكاية أثناء زمن البابوات في مدينة أفنيون. كان ذلك عهد المرح والبهجة، وكان الناس ينظمون الحفلات، ويفنون ويرقصون. واشتهر من بينهم البابا بونيفاس الذي أحبه السكان. كان يتجول في شوارع المدينة على بغلته، ويغدق على الناس بركاته.

كان البابا يحب بغلته ويرعاها، ويتفقدتها في الإصطبل قبل أن ينام، يوفر لها ما تحتاجه من غذاء ودفع، وأحياناً يقدم لها كأساً من جيد النبيذ. وكان الناس يحترمون بغلة البابا، ويعلمون أن ذلك أفضل وسيلة للتقرب إلى قلب البابا.

وذات يوم دخل إلى بلاط البابا رجل يدعى فيدان، وأظهر إعجابه بالبغلة، وراح يجلب لها ما لذّ وطاب من العشب والحبوب. فرضى البابا عما فعل فيدان، وترك له مسؤولية رعاية البغلة. وظل الرجل يهتم بغذاء البغلة وشرابها، ويجلب لها نصيبها من النبيذ. غير

(1) العنوان: La Mule du Pape

الكاتب: Alphonse Daudet

أنه كان أحياناً يصطحب معه بعض أصدقائه إلى الإصطبل لتناول النبيذ؛ فكانوا أحياناً يجذبون ذيلها وأذنيها ويركبونها.

وذات يوم قرر فيدان نفسه أن يحرض البغلة على الصعود إلى أعلى منارة الكنيسة، عبر سلم حلزوني ضيق.

وفي قمة السلم استولى الرعب على البغلة، ولم تستطع النزول. كان فيدان في فناء الكنيسة يبكي ويولول أمام البابا، وركض السكان للمساعدة على إنزال البغلة. وبعد جهد أنزلوها بواسطة رافعة.

وشعرت بغلة البابا بالخجل عندما وجدت نفسها معلقة في الهواء، وسكان المدينة ينظرون إليها في محنتها. وألقت نظرة غاضبة حاقدة على فيدان. وفي اليوم التالي سافر هذا الأخير إلى نابولي، وعادت بغلة البابا إلى حياتها العادية.

مرت سبع سنوات على هذا الحادث، وذات يوم علم فيدان أن الرجل الذي كان يعد صلصة الخردل للبابا قد توفي، فرجع إلى مدينة أفنيون، ساعياً للحصول على وظيفته. واستشار البابا الكاردينالات فوافقوا على إسناد المهمة لفيدان.

نظمت حفلة بهذه المناسبة في فناء الكنيسة، وجاء فيدان مرتدياً ملابس فاخرة. وطلب من البابا أن يسمح له بزيارة البغلة، فأذن له بذلك. وقف فيدان أمام البغلة لحظة، ثم دار حولها، ووقف خلفها. وشعرت البغلة أن الفرصة التي انتظرتها سبع سنين طوال قد سنحت، ففرست فيدان برجليها رفسة شديدة كسرت عظامه، رفسة تليق بمقام بغلة البابا.

سرّ السيد كورنيل⁽¹⁾

كان يوجد في قريتنا عدد من المطاحن التي تديرها الرياح. وكان السكان يأتون من المناطق المجاورة للقرية بغلاتهم من القمح على ظهور الحمير. وكانت حياة الأسر التي تملك المطاحن مزدهرة.

ثم جاء أناس من باريس فبنوا مطحنة تعمل بالبخار على طريق Tarascon، فتغيّر كل شيء. أصبح الناس ينقلون حصادهم من القمح إلى هذه المطاحن الجديدة. وحاولت مطاحن الرياح أن تصمد أمام هذا التجديد، ولكن في النهاية توقفت أجنحتها، وأغلقت أبوابها؛ إلا مطحنة واحدة ظلت عجلاتها تدور هي مطحنة السيد كورنيل.

لم يكن المزارعون يجلبون القمح إلى مطحنه. وكان الناس يشاهدونه في المساء يسوق حماره محملاً بأكياس. غير أنه أحاط نشاطه بسرية كاملة، ولم يسمح لسكان القرية بالدخول إلى مطحنه. وذات مساء، تسللت حفيدته وخطيبها إلى المطحنة، فلم يجدوا فيها سوى أكياس مملوءة بالتراب.

وعرف أهل القرية أن الرجل كان يجلب أكياس التراب ليوهم الناس أن عمله مستمر، ليحفظ "كرامة طاحونته". ومنذ ذلك اليوم، قرر سكان القرية أن يجلبوا له كل يوم من القمح ما يكفي لتشغيل طاحونته. فانشرح أسارير وجهه، وفتح باب الطاحونة على مصرعيه، كما كانت في عهد ازدهارها. وذات يوم توقفت حياته، فتوقفت أجنحة طاحونته عن الدوران.

(1) العنوان: Le secret de maître Cornille

الكاتب: Alphonse Daudet

عنزة السيد سوغان⁽¹⁾
(ثمن الحرية)

كان السيد سوغان يحب تربية المعز في مزرعته. غير أنها كانت تقرر نحو الجبل. وقد فقدت عنزات بهذه الطريقة. لم ييأس، واشترى عنزة صغيرة لتتعود على محيط مزرعته. ربطها بحبل طويل لتنتقل بسهولة في الأماكن المعشبة.

بدأت هذه العنزة هادئة راضية. غير أنها بعد فترة بدأت تضيق بالجبل حول عنقها، وتسام محيط المزرعة الممل، وتطلع إلى جوّ الجبل المنعش أمامها. أصبح المكان يبدو لها كئيباً، وضعفت شهيتها، وازداد شوقها لصعود الجبل.

وذات يوم نسي السيد سوغان نافذة الاصطبل مفتوحة، ففرت العنزة إلى الجبل. كانت بهجتها عظيمة وهي تسرح وتمرح وسط الأشجار والأعشاب، في ضوء الشمس الساطعة، ونسيم الجبل المنعش.

مضت ساعات المرح والبهجة بسرعة. ثم بدأت الشمس تميل نحو الغروب، وغطى الظلام قمة الجبل، وشعرت العنزة بنسمة باردة. والتفتت فجأة فوجدت نفسها أمام حيوان يحرق فيها، فعرفت أنه الذئب المخيف، فارتجف بدنها، غير أنها استجمعت قواها، وصممت على ألا تستسلم للعدو بسهولة. ويروى أنها قاومت كراً وفراً، إقبالا وإدباراً حتى مطلع الفجر. وفي نهاية المطاف كانت الغلبة للقوى، فدفعت العنزة الشجاعة حياتها ثمناً لساعات الحرية التي عاشتها في الجبل.

(1) العنوان: La Chevre de Mr. Seguin

الكاتب: Alphonse Daudet

أناتول فرانس

Anatole François Thibault



في سنة 1891، رفض أناتول فرانس أن يبارز Léconte de Lisle بسبب خلاف بينهما حول فكرة أدبية؛ وفي 1895 نال وسام جوقة الشرف؛ وانتخب عضواً في الأكاديمية الفرنسية مرتين، عام 1896 و 1916؛ ووقف إلى جانب قضية المسيحيين في أرمينيا؛ وإلى جانب قضية دريفوس Dreyfus الشهيرة؛ وتعاطف مع الثورة الروسية عام 1917 ومع الحزب الشيوعي، ولو أنه لم ينضم إليه؛ نال جائزة نوبل للأدب سنة 1921؛ وسجلت الكنيسة الأم، في الفاتيكان، كتبه في قائمة المؤلفات التي تحرم مطالعتها؛ وفي 16 من شهر أبريل (نيسان) 1924، حظى بتشريف عالمي في باريس، بمناسبة احتفاله بعيد ميلاده الثمانين.

ولد فرانس سنة 1844 في باريس. وكان أبوه يتاجر في الكتب، فلم تنقص الفتى فرص المطالعة. وبعد أن حصل على شهادة البكالوريا ببضع سنين انضم إلى الحرس الوطني في إطار الجندية. وفي سنة 1876 بدأ يعمل موظفاً في مكتبة مجلس الشيوخ؛ ثم تزوج بفتاة في العشرين من العمر تدعى Marie Valérie في العام التالي.

ودخل ميدان الصحافة فنشرت مقالاته في جرائد ومجلات مثل Globe، و La Revue alsacienne، و L'univers Illustré. وفي عام 1885 صدر له كتاب Le Livre de mon ami (كتاب صديقي). وفي سنة 1888 بدأ علاقته مع السيدة Caillavet. وبعد ذلك ببضع سنوات طلق زوجه.

وتلت ذلك حوادث مثل انتخابه إلى الأكاديمية الفرنسية عام 1896، ووفاة السيدة Caillavet المذكورة عام 1910، وانتقلت خادماتها السيدة Laprévotte لتسكن في فيلا Saïd كان أناتول فرانس اشتراها عام 1894؛ وأعيد انتخابه عضواً في الأكاديمية الفرنسية كما سبق سنة 1916.

وفي 1920 أصيب بتشنج العروق؛ وفيها تزوج السيدة Laprévotte المذكورة. وفي شهر نوفمبر (تشرين الثاني) من 1921 حصل على جائزة نوبل للأدب. وفي الشهر ذاته من العام التالي كتب مقالا في جريدة L'Humanité عنوانه "تحية إلى السوفييت"، ولكن في شهر ديسمبر (كانون الأول) من سنة 1922، ألغى مساهمته في الجرائد الشيوعية عندما شعر بانتقاد موجه إليه من طرف المؤتمر الشيوعي الدولي الرابع في موسكو. وفي عام 1924 حظي بتشريف عالمي بمناسبة عيد ميلاده الثمانين، يوم 16 أبريل (نيسان). وبعد نحو ستة أشهر، في 12 أكتوبر (تشرين الأول) وافته المنية، وشيع جثمانه في موكب مهيب إلى مثواه الأخير في Saint-Cyr-sur-loire.

ألف أناتول فرانس كتباً عديدة، منها "كتاب صديقي" المذكور، ومنها:

- L'Ile des pengouins (جزيرة طيور البطريق)، أصدره سنة 1908؛ وهو عبارة عن حكاية ساخرة ينتقد فيها استبداد الساسة الذين يستغلون سلطانهم، وما جاءت به المسيحية وغيرها من أساطير، من أجل تحقيق طموحاتهم. وتشير الحكاية بأساليب رمزية إلى أن نظام الحكم الملكي يلجأ إلى العقائد والتقاليد الدينية، ويروج

لها من أجل تخويف الناس وإضفاء هالة قدسية على سلطانه؛ وأن النظام الجمهوري اللائكي يلجأ إلى المناورات السياسية والوعود الانتخابية لبسط سلطاته على السكان أطول مدة ممكنة.

ومن مؤلفاته كتاب عنوانه:

- La Révolte des Anges (ثورة الملائكة) ألفه خلال الفترة 1909 - 1913)، وهي حكاية خيالية مفادها أن عدداً من الملائكة أصيبوا بخيبة أمل، فتمردوا على الإله Iaveh (يهوه). ويتخيل الكاتب في هذه الرواية العلاقة بين الإله المذكور والملائكة على أنها لا تتجاوز علاقة حاكم بمحكومين، أي كما هو الحال بين البشر. ويتصور أن هذا الحاكم دكتاتوري، يجبر المخلوقات، بأساليب تعسفية، على أفعال لا يرتضونها. وهو بذلك يدعو إلى الحكم الجمهوري الديمقراطي الذي يمكن من تغيير الحكام ومن المحافظة على العدالة الاجتماعية. أما بالنسبة إلى تمرد الملائكة على يهوه (الإله)، فمن المعروف أن أناتول فرانس كان ينتهز الفرصة، عندما تسنح، لمهاجمة العقيدة المسيحية.

وفي سنة 1912 أصدر أناتول فرانس رواية عنوانها: Les dieux ont soif (الآلهة عطشى)، يتناول فيها الحوادث الدموية التي جرت في باريس أثناء الثورة الفرنسية، ويصور بعض المشاهد التاريخية والشخصيات الذين ارتقوا سلم الثورة، ثم أطاحت بهم تدريجياً، مثل مارا Marat، وروبسبير Robespierre، ويهاجم المؤلف ما اتسمت به الثورة من عنف وتعصب وإرهاب. ويمثل غاملين Gamelin في هذه

الرواية دور قاضي محكمة الثورة الفرنسية التي أزهقت أرواح أعداد كبيرة من الأبرياء باسم مبادئ لم تعمر طويلاً.

وفي القطعة التالية نبذة من حوار يدور بين غاملين وبروتو Brotteaux ويقوم هذا الأخير بدور شخصية الرجل الذي يميل إلى التسامح والاعتدال، وتتسم آراؤه بكثير من التشكك وتنتزع نحو الإلحاد.

نبذة من رواية أناتول فرانس التي تحمل عنوان:

★★ الآلهة عطشى Les dieux ont soif

- بروتو: أيها المواطن غاملين، إذا كنت في الأرض تعتبر ثورياً، فإنك في السماء تعتبر محافظاً، بل رجعيّاً. وكذلك الأمر بالنسبة إلى روبسبير⁽¹⁾، ومارا⁽²⁾. وأجد أنه من الغريب أن الفرنسيين الذين لا يرضون بملك، من صفاته أنه مخلوق فان، يحرصون على التمسك بإله خالد⁽³⁾ أشد استبداداً وشراسة. وما سجن الباستيل والمحاكم المحرقة⁽⁴⁾ أمام لهيب الجحيم! إن البشر ينسخون صوراً للآلهتهم من حكامهم الطغاة، وأنتم ترفضون الأصل وتتمسكون بالنسخة.

(1) Maximilien de Robespierre، أحد كبار زعماء الثورة الفرنسية. مارس العنف والإرهاب للقضاء على المعارضة حتى أصبح حاكم البلاد دون منازع. وفي النهاية خسر المعركة واقتيد بدوره إلى المقصلة.

(2) Jean-Paul Marat، طبيب، صحفي وسياسي فرنسي. أحد زعماء الثورة الفرنسية المتطرفين، قتل سنة 1793.

(3) كان بروتو ملحداً، كما يتضح من كلامه.

(4) محاكم قديمة كانت تبت في القضايا الاستثنائية كالهرطقة.

- **غاملين (غاضباً):** ألا تستحي من مثل هذا الكلام؟ وكيف لك أن تخلط بين آلهة كئيبة اخترعها الجوع والخوف، وبين خالق الطبيعة؟! إن الإيمان بإله رحيم كريم ضروري لأنه يقوى معنويات النفس ويدعم اطمئنانها. إن الإله العظيم مصدر لجميع الفضائل، ولن يكون المرء جمهورياً إذا لم يؤمن بالله. وقد كان روبسبيار يعلم هذا جيداً عندما أراح تمثال Helvétius⁽¹⁾ من قاعة اليعقوبيين، لأن هذا الأخير أجرم عندما علم الفرنسيين الإلحاد، فوجههم نحو العبودية. أرجو، أيها المواطن بروتو، أنه عندما تؤسس الجمهورية مبدأ عبادة العقل الأسمى، على الأقل ألا ترفض الانضمام إلى هذا الدين الحكيم.

- **بروتو:** إنني من أنصار العقل الأسمى، ولست من المتعصبين. فالعقل هو الذي يوجهنا وينير سبيلنا. ولكن عندما تتخذ منه إلها فإنه يعمى بصيرتك ويدفعك إلى ارتكاب الجرائم ... لقد كان روسو يزعم أن تعاليمه الأخلاقية تتبع من الطبيعة، وهي في الحقيقة من المبادئ الكالفينية⁽²⁾. إن الطبيعة تعلمنا بأن يفترس المخلوق مخلوقاً آخر، وتقدم الأمثلة على جميع العيوب والجرائم التي ينبغي أن يصححها

(1) Claude-Adrien Helvetius (1715 - 1771) فيلسوف فرنسي، صاحب كتاب De L'esprit، هاجم فيه جميع أنواع الأخلاق التي تعتمد على الديانة؛ واجه معارضة شديدة، وانتقده فولتير وروسو. ومن آرائه أن المحرك الأساسي للإنسان هو البحث عن المذات والسعي لتجنب الآلام.

(2) نسبة إلى مدرسة John Calvin، عالم لاهوت ومن أهم شخصيات الإصلاح الديني البروتستانتي في القرن السادس عشر.

الوضع الاجتماعي أو يخفيها. لا شك أنه ينبغي لنا أن نحب الفضيلة، ولكنه من المفيد كذلك أن نعرف أنها وسيلة تخيلها الناس ليتمكنوا من العيش جنباً إلى جنب في وفاق.

إن ما ندعوه ("نظام الأخلاق") ليس سوى مشروع فاشل أنشأه الناس ضد النظام الكوني الذي يتمثل في الصراع والتناحر بين الأفراد والقوى المتنافسة. وكلما فكرت في القوى البشرية التي يدمر بعضها البعض الآخر، يزداد يقيني بأننا نعيش في عالم مجنون.

إن رجال اللاهوت والفلاسفة الذين يقولون بأن الإله هو الذي خلق الطبيعة، وهو مهندس الكون، ومن جهة أخرى يصفونه بأنه طيب لطيف رحمان رحيم، إنما يناقضون أنفسهم، لأن هذه الأوصاف لا تتوفر في الطبيعة، حيث القوي يأكل الضعيف. إنهم يقولون إنه رحيم لأنهم يخشون بطشه، وهم مضطرون أحياناً للقول بأنه يتصرف بطريقة شنيعة، بل قد يصفونه بأوصاف يندر وجودها لدى بعض البشر، مثل الحقد والمكر.

ولعلّ رجال اللاهوت ينسبون للإله هذه الأوصاف القاسية المخيفة ليجعلوه محبوباً لدى سكان الأرض، لأن جنسنا البئس لا يرغب في عبادة آلهة العدل والرحمة، لأنهم لا يخشونهم ولا يرهبون عذابهم؛ ولأنهم سرعان ما ينسون المنعم المتسامح.

... حدث ضجيج قوي غطى على الحوار عندما انفتحت أبواب المخبزة، فتدافعت صفوف الجائعين أمامها، وبدأ الناس يتقدمون ببطء شديد. كان أمام باب المخبزة حارس أمن ينظم دخول المشتريين واحداً بعد الآخر. وكان صاحب المخبزة وزوجه وابنتهما

غي دي موبسان

Guy de Maupassant



كان قوي البنية، يحب السباحة والتجديف، ومعاشرة النساء. أصيب بداء الزهري في سن مبكرة، فعانى من متاعب صحية جملة انتهت بشلل عام، والجنون، ومحاولة الانتحار. بنى شهرته بصفة خاصة على كتابة القصص القصيرة. قيل أنه كان مثل شهاب سطع فترة قصيرة ثم احترق.

ولد غي دي موبسان سنة 1850 في قصر Miromesnil (وقيل في Fécamp) لعائلة من صغار الأرستقراطية بنورمانديا، فرنسا. ثم انتقلت أسرته إلى باريس. وافترق الزوجان وعمر الفتى أحد عشر عاماً، فترك ذلك آثاراً سلبية في حياته، وبدأ يعاني من نوبات عصبية منذ طفولته. وكان له أخ يدعى Herve، فانتقلت الأم برفقة ولديها إلى مدينة Etretat، حيث لازم موبسان مدرسة محلية فترة ثم طرد منها، فدخل مدرسة ثانوية في Rouen. وبعد أن حصل على شهادة البكالوريا دخل كلية الحقوق في باريس.

وعندما اندلعت الحرب الألمانية - الفرنسية، تمّ تجنيده سنة 1870. وبعد تسريحه من الجندية استأنف دراسته في باريس، وحصل على عمل في وزارة البحرية.

يبيعون الخبز، يساعدهم في ذلك اثنان من الشرطة المدنية يحملان على الذراع الأيسر شريطاً مثلث الألوان، ليتأكدوا من أن من يشتري هو من سكان الحي، وأن لا تباع له إلا كمية الخبز المناسبة لعدد الأشخاص الذين يعيّلهم.

وتجدر الإشارة إلى أنه كان لأمه Laure أخ يدعى Alfred، كان صديقاً للأديب غوستاف فلوبيير، فسعت الأم لدى صديق أخيها هذا ليساعد ابنها غي في ميدان الأدب وتأليف القصة، فاهتم به ورعاه، وأصبح بمنزلة أستاذه يقدم له النصائح ويرشده فيما يحسن كتاباته، كما قدمه إلى عدد من رجال الأدب مثل زولا، وTourgueniev. وحدث أن قدم غي للمحاكمة عندما نشر قصيدة عنوانها "فتاة"، بدعوى أنه أساء إلى الأخلاق العامة، فتدخل الأديب فلوبيير لإنقاذه من المشكلة.

وبدأت شهرته سنة 1880، عندما ألف قصته "كتلة الشحم"⁽¹⁾. وكان من حسن حظّه أن نشرت هذه القصة في مجلة Les Soirées de Médane بفضل علاقته مع الأديب إميل زولا، فأحرز غي بذلك شهرة كبيرة، قرر على إثرها أن يترك وظيفته في الوزارة، وأن يكرس جهوده للتأليف؛ كما بدأ ينشر مقالات في مجلتي Gil Blas و Le Gaulois.

وهكذا انطلق غي في مجال الكتابة فألف خلال فترة نحو عشر سنوات نحو ثلاثمائة قصة قصيرة، وخمس روايات، ومجموعة من القصص الأخرى، وكتب عن رحلاته في البحر المتوسط وغيرها. وارتفع دخله فاشترى شقة في باريس، ومنزلاً في étretat، وآخر على شاطئ الريفييرا، كما اشترى يخباً صغيراً.

وكان الكاتب غي دي موبسان يحب السفر، مثلما كان مغرمًا بالتجديف في نهر السين؛ وكان يجد متعة في رحلاته في اليخت. ولعل أسفاره كانت تسلية، وتسيه بعض الهموم والمتاعب الصحية. وقد قام

(1) Boule de Suif

برحلات إلى الجزائر وتونس وإيطاليا، وإلى انكلترا حيث استضافه البارون روتشيلد. وكتب عن انطباعاته في هذه الأسفار.

ومن الحوادث المرتبطة بحياته أنه ولد له طفل من سيدة تدعى جوزفين عام 1883، قيل إنه لم يكن زواجاً شرعياً، وقد أنجب الكاتب ثلاثة أطفال. كما أنه دخل في مبارزة ضد رجل يدعى Jean Lorrain سنة 1886 لأن غي سخر منه في إحدى رواياته، كما يشير بعض النقاد إلى أن الأديب فلوبيير لم يكن يرعى غي لكونه صديقاً للأسرة، بل يزعمون أنه أبوه غير الشرعي من أمه Laure. وتجدر الإشارة كذلك إلى أن أباه الحقيقي قد تدخل مراراً لمساعدة غي، منها لمساعدته على الحصول على عمل في وزارة البحرية، ولنقله إلى وزارة التعليم سنة 1879، عندما رغب غي في ذلك.

لقد ذاق الكاتب ملذات الحياة والنجاح والشهرة، غير أنه تجرع كذلك آلام المرض. فقد اكتشف، وهو في مطلع العشرينيات، أنه مصاب بداء الزهري؛ وبدأت آثار هذا المرض تظهر بمرور السنين. لقد عانى من الصداق المبرح، ومن متاعب في البصر والقلب. واشتدت معاناته وآلامه فاضطر لتناول المخدرات. وعانى من نوبات عصبية، ومن الهذيان والهلوسة. وأصيب بشلل عام فتدهورت صحته البدنية والنفسية، وتوقف عن الكتابة سنة 1891. وحاول الانتحار بالذبح في ليلة الثاني من جانفي (يناير) 1892، وأمكن إنقاذه. وأصيب بالجنون كما أصيب به أخوه من قبله. وتوفي غي دي موبسان في السادس من شهر جوليت (يوليو) عام 1893، ولم يتجاوز الثالثة والأربعين.

كتلة الشحم⁽¹⁾

قرر عدد من الأثرياء أن يقوموا برحلة ليتفقدوا ممتلكاتهم، فاتصلوا ببعض المسؤولين الألمان ليسهلوا تنقلاتهم⁽²⁾. ركب المسافرون، عربة تجرها ستة خيول. كان عددهم عشرة، من بينهم راهبتان، وسيدة بدينة جذابة لقبوها "كتلة الشحم". ولكنهم سرعان ما كرهوا وجودها معهم عندما علموا أنها مومس.

ومرت الساعات، ولم يبلغوا الفندق الذي يتناولون فيه غداءهم، لأن تساقط الثلج عرقل سرعة العربة. وبدأ السادة الأثرياء وزوجاتهم يشعرون بالجوع. أما السيدة البدينة، "كتلة الشحم" فقد احتاطت للسفر. أخرجت من تحت عباءتها الفضفاضة قفة مزدانة بأنواع الغذاء، وراحت تتناول غداءها في هدوء.

ودعت رفاق السفر إلى بعض الطعام، فامتدت الأيدي إلى طعام هذه السيدة الكريمة التي كانوا قبل قليل يشتمون من وجودها إلى جانبهم.

وصلت العربة إلى الفندق في ساعة متأخرة، وبعد تناول العشاء، لجأ كل إلى غرفته لينال قسطاً من النوم. وفي الصباح الباكر التقى الجميع في فناء الفندق لمواصلة السفر، غير أن سائق العربة أخبرهم

(1) العنوان: Boule de suif

الكاتب: Guy de Maupassant

(2) تجرى حوادث هذه القصة أثناء غزو الجيش النمساوي لفرنسا.

بأن المسؤول النمساوي أبلغه بأنه ينتظر أن تزوره كتلة الشحم في غرفته ليأذن لهم بالسفر. فاضطروا لقضاء ليلة ثانية في الفندق. وظلت السيدة البدينة ترفض طلب الجندي النمساوي ثلاثة أيام.

اختلى أحد المسافرين بهذه السيدة، وتحدث باسم جميع المسافرين، راجياً أن تستجيب لرغبة المسؤول الألماني، وأنها بذلك تقدم خدمة كبيرة لهؤلاء المسافرين، لأن لهم مسؤوليات ومصالح تنتظرهم.

وفي صباح اليوم التالي، كانت العربة جاهزة بركابها لاستئناف السفر. وأخيراً وصلت كتلة الشحم متعبة مضطربة. وتجاهل الركاب تحيتها، فلم يردوها.

وبعد ساعات من السفر، أخرج كل راكب ما جلب من طعام وشراب. أما السيدة البدينة الطيبة فإنها في غمرة عجلتها للحاق بالعربة، نسيت أن تتزود ببعض الطعام.

لقد مسها الجوع مثلهم، غير أن أحداً من هؤلاء الأكابر لم يقدم لها شيئاً من طعامه. أرادت أن تصرخ في وجوههم البشعة التي أنكرت جميلها. ألم تطعمهم عندما جاعوا؟! ألم تنقذهم من سطوة الجندي الألماني فبذلت له جسدها؟! ربما كانت أقل منهم منزلة في السلم الاجتماعي، ولكنها كانت أطيب قلباً وأكرم نفساً.. وانحدرت دمعتان على خديها.

الحب الضائع⁽¹⁾

أقام المركز برتران حفلة عشاء لأعيان القرية بمناسبة افتتاح موسم الصيد. ودار الحديث بينهم حول موضوعات مختلفة، منها موضوع الحب. قال بعض الرجال إن الحب أشبه بمرض يصيب الرجل مراراً ثم يشفى منه. ورأت بعض السيدات أن الحب قوة ساحرة تسيطر على قلب المرأة، وتترك فيه أثراً عميقة. وتكلم طبيب القرية فقص على الحاضرين قصة حب دامت نصف قرن، فقال:

كانت عائلة فقيرة تأتي إلى القرية من حين لآخر، تطوف بعربتها حول البيوت لإصلاح الكراسي وحشوها بالقش أو التبن. وكان للزوجين ابنة صغيرة، تلعب في شوارع المدينة، وتجمع قطع الكراسي القديمة التي يرميها الأثرياء.

كان سنّها أحد عشر عاماً، عندما شاهدت ذات يوم طفلاً يبكي، لأن أطفالاً أخذوا نقوده. فرثيت الفتاة لحاله، ووضعت في يده ما كان معها من نقود، ثم طبعت قبلة على خده وانصرفت. وظلت تحن إلى مقابله، فتكرر لقاءهما مرات عديدة، وفي كل مرة تقدم له ما تقتصد من نقود، ويسمح لها هو بأن تقبله أو تضمه إلى صدرها.

ومرت السنون، وكبر الفتى، فكانت تشاهده أحياناً في مخزن أبيه، يراجع دروسه. وكبر حبها له وشغفها به، غير أنها لم تبح بسرّها لأحد.

(1) العنوان: La Rempailleuse، ومعناه المرأة التي تحشو الكراسي (أي إصلاحها) بالقش والتبن.

وانتقل الشاب إلى مدينة أخرى للدراسة في كلية الصيدلة. وظلت تتبع أخباره حتى عرفت مكان وجوده. وأقنعت أبويها بزيارة تلك المدينة. ولقيته ذات يوم، فتحاشاها وتظاهر بأنه لا يعرفها، فحزنت، وبكت لتجاهله إياها.

وظلت كل سنة تأتي لمقابله، دون أن تجرأ على الحديث إليه. وكان حبها يزداد بمرور الزمن، من غير أن يجد أي استجابة لدى الشاب الصيدلي، الذي كان يجهل، أو يتجاهل مدى تعلقها به.

توفي أبواها فواصلت عملهما بشجاعة. ومرت ذات يوم أمام الصيدلية فشاهدت الفتى يخرج برفقة سيدة تمسك بذراعه، فعرفت أنه قد تزوج. وحاولت الانتحار، فرمت نفسها في بركة ماء أنقذها أحد المارة، ونقلها إلى الصيدلية لعلاجها، وما كان أسعدها عندما وجدت فتى أحلامها أمامها، فتحدثت إليه ... ولكنها تأكدت أن الهوة التي تفرق بينهما أعمق من قوة الحب التي تربطها به.

وواصل الطبيب كلامه قائلاً: لقد أوصتني قبل وفاتها أن أقدم جميع ما اقتصدته في حياتها إلى حبها الوحيد، الصيدلي، عسى أن يذكرها بخير بعد وفاتها. وأبدى هذا الأخير استياءه عندما أخبرته بما كانت تكنه له هذه الفتاة الطيبة من حب عميق. غير أنه تسلم مبلغ المال الذي أوصت به له، وقدمه لمشروع خاص بإنشاء خط سكة حديدية.

الوصية⁽¹⁾

تعرف الكاتب على شاب يدعى René de Bourneval، ونشأت بينهما صداقة. وذات يوم سأله عن علاقته بأخويه اللذين يحملان لقباً غير لقبه. فقص عليه الشاب ما يلي:

كانت أمي سيدة جميلة لطيفة وثرية. وتزوجت برجل اكتشفت أنه لا يرغب في غير ثروتها. بل أصبح يضربها ويسيء معاملتها، ويخونها مع الخادמות ... وكانت أمي امرأة خجولة فكتمت آلامها وأسرارها.

وكان يأتي إلى القصر رجل من أصدقاء زوج أمي، وهو الرجل الذي أحمل اسمه. وبمرور الزمن أحب أمي وأحبته، وحرصاً على كتمان هذه العلاقة فلم يشك أحد في طبيعة صداقتهما.

وكانت أمي قد أنجبت ابنين من زوجها القاسي، السيد de Courcils، كانا يعتبرانها مجرد خادمة لهما، ويسيطان معاملتها، ولا يحملان لها أية مودة أو احترام. وكانت تركز كل حبها عليّ، وكنت أبادلها الشعور نفسه.

توفيت أمي وأنا لم أتجاوز ثماني عشرة سنة. وذات يوم جمعنا الموثق ليقراً علينا وصية أمي. وكان من بين الحاضرين السيد de Bourneral الذي أحمل اسمه.

بدأت أمي وصيتها بحمد الله وطلب الرحمة والغفران، ووصفت

(1) العنوان: Le Testament

الكاتب: Guy de Maupassant

كيف كانت حياتها مع زوجها وولديها منه، وسوء معاملتهم لها. وأكدت أنهم لن ينالوا شيئاً من ثروتها، وأنها تهبها جميعها للسيد de Bourneval الرجل الذي أحبها وأحبته حقاً. وأضافت أن هذه الثروة تعود إليّ في حالة وفاته، وتمنت أن يحسن إليّ، وأن نعيش معاً في مودة ووثام.

خرج السيد de Boureval بصحبتني؛ وبعد يومين حصلت مبارزة بين الرجلين فقتل de bourneval زوج أمي. وتخلّيت أنا Rene عن نصف ما ورثته لأخوي. وبعد خمس سنوات توفي أبي فحزنت على فراقه حزناً عميقاً.

رسالة غريق⁽¹⁾

لم يؤثر سلطان الحب على قلبي أبداً، ولم أشعر بسكرة الحب التي يتحدث عنها الناس، ولم أذق ذلك العشق، ولا ذلك الانقلاب العاطفي الذي تحدثه صورة المرأة الساحرة. يوجد في كل إنسان الجانب الجسدي المادي، والجانب النفسي المعنوي. وليسيطر الحب على قلبي ينبغي أن أجد الانسجام الذي يؤثر على الجانبين.

وليحب الرجل ينبغي أن يصبح أعمى، وأن يذوب في شخص المخلوق الآخر، حتى لا يرى ولا يسمع شيئاً آخر، وألا يستمع لصوت العقل، وأنا أرفض أن أكون سكراناً أو مجنوناً...

ولكن ذات يوم، بدا لي أنني وقعت تحت تأثير الحب، في ظروف مؤثرة خاصة. لقيت ذات مساء فتاة حسناء، فرغبتُ أن أقضي معها ليلة في مركب على نهر السين. حدث ذلك في شهر جوان (يونيو)، كانت ليلة مقمرة هادئة، يحلو للمرء أن يتمتع بملذات الحياة ومباهجها.

تناولنا العشاء في أحد المطاعم، ثم ركبنا النهر، رغم ما كان ينتابني من تردد. كانت أشعة القمر تتسكب على النهر، وسار المركب كأنه على سرير فضي، منسجماً مع نسمات المساء وتيار النهر. واجتمع الماء والخضراء والوجه الحسن، فوجدت نفسي أسبح في جو سحري، وبدأتُ تغمر مشاعري موجة من الحب. نظرت في وجهها وعينيها

(1) العنوان: Lettre trouvée sur un noyé .

المؤلف: Guy de maupassant

وشعرها الذهبي، وانحنيت لأقبلها.. فدفعتني بقوة، وقالت بأنها ستقلب المركب إذا أنا حاولت ثانية.

وبعد فترة طلبتُ أن نستلقى جنباً إلى جنب لنتمتع بمشاهدة النجوم، وبلاستماع في هدوء إلى خرير المياه وأصوات الحشرات على جانبي النهر. وبقيت أفكر في هذا الشعور الغريب الذي دخل قلبي منذ أن لقيت هذه المرأة. وبدأ نور الفجر يرسم على الأفق، واكتسى الشرق بألوان وردية انعكست على وجه المرأة وعينيها وشعرها.

اقتربت مني بهدوء، ومدت ذراعها نحوي كأنها تريد أن تقبلني، فاهتزت نفسي، وغمرت مشاعر الحب قلبي. ولكن، كم كانت خيبيتي عندما أمسكت المرأة حشرة كانت عالقة بشعري، ووضعتها أمام عيني، ثم ابتعدت. شعرت بخيبة مريرة في أول محاولة أمام المرأة، وزادت ظروف النفسية كآبة ويأساً، وفقدت كل أمل في الحب.. وفي الحياة.

وبعد أيام قليلة، أخرجت جثة من نهر السين، ووجد الضابط المسؤول ورقة في جيب الرجل المنتحر تحتوي على هذه الحكاية.

المتسول⁽¹⁾

عثر قس القرية على رضيع على حافة أحد الممرات، وعاش هذا الطفل في سنواته الأولى بفضل رعاية أهل الإحسان. غير أنه قضى فترة شبابه الأولى في الشوارع. وكان سنه لا يتجاوز خمس عشرة سنة عندما صدمته عربة، فاضطر الطبيب إلى بتر رجله. فاتخذ له عكازين، وظل ينتقل من منزل إلى آخر ليحصل على قوت يومه. وكانت سيدة من أهل الإحسان قد سمحت له أن ينام في بيت الدجاج في مزرعتها. وتوفيت هذه السيدة فاضطر لمغادرة المزرعة.

وتقدمت به السن، فأصبح مظهره مزعجاً وملابسه رثة وسخة. وسئم من لا مبالاة أهل القرية وقساوتهم، فاضطر للذهاب إلى المناطق المجاورة، ينتقل بعكازيه من مكان إلى آخر، ينام حيثما وجد مخبئاً. كان إنساناً ولكنه لم يسعد حتى بالعيش في اصطبل بين الحيوانات.

وفي ليلة شتاء باردة، اختفى في فناء أحد المنازل؛ وكان الجوع يمزق أحشاءه والبرد يلسع عظامه، وشاهد دجاجاً، رمى إحداها بحجرة. وفي اللحظة التي زحف ليمسكها، انهال عليه أصحاب المنزل بالضرب، وسلموه إلى رجل الأمن فقاده إلى السجن، وربما في غرفة باردة مظلمة، وهو يكاد يفقد وعيه من الألم.

(1) العنوان : Le Gueux

المؤلف : Guy de Maupassant

وفي الصباح جاءه رجال الأمن ليقودوه إلى القاضي، فوجدوه جثة باردة. ومات المسكين جوعاً في وسط الأثرياء، ضحية قساوة الأقوياء على الضعفاء.

جون بول سارتر

Jean-Paul Sartre



كان سارتر من كبار المفكرين في عهده، قصيراً بقامته، عظيماً بأفكاره وإنجازاته في مجالات عديدة. كتب وتكلم في الميادين الفلسفية والاجتماعية والأدبية والسياسية، وألف في القصة والرواية والمسرح، وشارك في المظاهرات والمناقشات ... ودافع عن قضايا حقوق الإنسان، وشجب أساليب العنف والتعذيب التي مارسها الاستعمار في الجزائر، وتدخل الاتحاد السوفيتي في المجر، وفي تشيكوسلوفاكيا، وجرائم الحرب الأمريكية في فيتنام، ورفض جائزة نوبل لأنها في رأيه هدية من الغرب وحده، وترك لنا صوراً معبرة عن تطورات كثيرة في القرن العشرين، تتردد على حوادثها أصداء مقالاته ونشاطاته. ويصدق عليه قول الشاعر:

ترى الرجل النحيل فتزدريه

وفي أثوابه أسد مزيّر

ولد سارتر في 21 جوان، يونيو عام 1905، في باريس، في وسط برجوازي. كان أبوه ضابطاً في البحرية، وتوفي ولم يتجاوز الطفل خمسة عشر شهراً، فترعرع في أحضان أمه وجده لأمه بول شفا يتسر Schweitzer. ويبدو أنه عانى من العزلة في صغره، إذ يروى أنه كثيراً ما كان يتجول، برفقة أمه، في حدائق لوكسمبورغ ليلعب مع الأطفال، غير أنه لم يحظ بمن يلعب معه أو يرغب في التعرف عليه.

وفي عام 1915 دخل سارتر ثانوية هنري الرابع في باريس، وفيها تعرف على بول نيزان⁽¹⁾، ونشأت بينهما صداقة وثيقة. وفي هذه السنة تزوجت أمه. ثم انتقل الشاب إلى ثانوية لاروشيل، ويذكر أن الفترة 1917 - 1920 كانت أسوأ فترة في حياته. وعاد سارتر إلى ثانوية هنري الرابع حيث سعد بقاء صديقه المذكور. وفي عام 1924 دخل المدرسة النظامية العليا، برفقة نيزان، وتعرف على صديق آخر هو ريمون آرون⁽²⁾.

حصل على شهادة الأستاذية من المدرسة النظامية العليا في ميدان الفلسفة، عام 1929. وفي هذه السنة تعرف على سيمون دي بوفوار⁽³⁾، فتوثقت بينهما علاقات التعاطف والمودة، وتعايشا حتى فرق بينهما الموت.

بدأ الأستاذ سارتر يعمل في سلك التعليم، فدرّس مادة الفلسفة في معاهد عديدة، وخلال فترة التدريس، سنة 1933، حصل على منحة من المعهد الفرنسي في برلين، وهناك اطلع على كتابات الفيلسوف الألماني Husserl. وعندما اندلعت الحرب العالمية الثانية جرى تجنيده، ثم أسر فترة، وأطلق سراحه عام 1941، فعاد إلى التدريس في معهد باستور وغيره.

(1) بول نيزان Nizan، (1905 - 1940) صحفي وروائي فرنسي، كان مناضلاً في إطار الحزب الشيوعي، واستقال منه عام 1939، عندما وقع الاتحاد السوفيتي مع هتلر على معاهدة عدم الاعتداء.

(2) ريمون آرون Aron، (1905 - 1983)، كاتب وفيلسوف فرنسي، ومعلق صحفي.

(3) سيمون دي بوفوار de Beauvoir (1908 - 1986) أديبة فرنسية، ألفت في المسرح والرواية ودراسات اجتماعية، وفي السيرة الذاتية.

وفي سنة 1945، أرسل إلى الولايات المتحدة كمراسل لجريدتي Le Figaro و Combat. وخلال هذه الفترة ألقى محاضرة حول موضوع "الوجودية والإنسانية"، فحظى بشهرة لم يكن يتوقعها. وفي الفترة المذكورة أسس مجلة "الأزمة الحديثة"، وهي مجلة شهرية ساعدته سيمون دي بوفوار على تحريرها؛ وترك مهنة التعليم ليتفرغ للبحث والتأليف؛ وبدأت نشاطاته على مسرح الحوادث الدولية في فرنسا، وعلى المستوى العالمي.

وفي عام 1948 انضم إلى "التجمع الديمقراطي الثوري"، وفيها وضعت الكنيسة في روما مؤلفات سارتر على قائمة الكتب التي تمنع قراءتها. وفي سنة 1952 بدأ يتعاطف مع الحزب الشيوعي، وينتقد الحرب الباردة، وفي هذه الفترة اشتد الخلاف بينه وبين ألبير كامو⁽¹⁾، فانقطعت العلاقات بينهما.

زار سارتر الاتحاد السوفيتي سنة 1954، كما قام برحلة إلى اسكاندنافيا، وإفريقيا، والولايات المتحدة، وكوبا. وفي العام التالي قام برحلة أخرى إلى الصين برفقة سيمون دي بوفوار. وعندما دخلت دبابات الاتحاد السوفيتي بودايبست، عاصمة المجر، سنة 1956، شعر سارتر بخيبة أمل، وكتب مقالا في مجلة "الأزمة الحديثة" تحت عنوان "شبح ستالين" يهاجم فيه هذا التدخل الذي يجمع حرية المواطنين المجريين، كما انتقد الموقف السلبي الذي وقفه الحزب الشيوعي الفرنسي من هذا التدخل المسلح.

(1) ألبير كامو Camus، 1913 - 1960، مؤلف روائي ومسرحي، وصحفي فرنسي، من رواياته: الغريب؛ الطاعون؛ السقوط.

وقد وقف سارتر موقفاً إيجابياً من ثورة التحرير الجزائرية، وبدأ الاحتجاج على ممارسات التعذيب التي كان يسلطها الاستعمار على الشعب الجزائري. وقد واصل سارتر مشاركته في المظاهرات، والمقابلات الصحفية، في فرنسا وخارجها من أجل مساندة الشعب الجزائري. وحدثت محاولة لنسف منزله عام 1961، ومحاولة أخرى للهدف نفسه بعد استقلال الجزائر.

نجحت ثورة فيدال كاسترو في كوبا عام 1959، وفي العام التالي ذهب سارتر إلى كوبا حيث اجتمع بزعيم الثورة وبرفيقه في الكفاح تشي غيفارا، كما زار الزعيم اليوغوسلافي الماريشال تيتو. وعندما قدمت للفيلسوف جائزة نوبل للأدب، سنة 1964، رفض قبولها واعتبرها هدية من الغرب وحده.

وفي سنة 1966 شارك بحماس في "محكمة راسيل" من أجل إدانة الجرائم التي ارتكبتها الولايات المتحدة في فيتنام. وعندما بدأت مظاهرات الطلاب في فرنسا، في مارس 1968، اتخذ موقفاً مسانداً لهذه الحركة. كما أنه شجب تدخل الاتحاد السوفيتي المسلح في تشيكوسلوفاكيا في السنة المذكورة.

وفي عام 1970 تولى إدارة جريدة "قضية الشعب" (La Cause du peuple)، وكان في بعض الأحيان يخرج إلى الشارع ليوزع الجريدة بنفسه. وبدأ سارتر الإعداد لإصدار جريدة Liberation، ولكن بعد أن صدر العدد الأول منها، تخلى عن إدارتها بسبب مرض في عينيه جعله غير قادر على القراءة والكتابة. حدث هذا سنة 1974. وفي عام 1979 شارك مع ريمون أرون في المؤتمر الصحفي الذي نظمته لجنة "باخرة إلى فيتنام".

وفي 15 أبريل من عام 1980، وافته المنية في مستشفى Broussais، وشيع جنازته حشد تجاوز خمسين ألف نسمة.

ترك سارتر ثروة غزيرة من المؤلفات، عشرات الكتب، في مختلف الموضوعات الثقافية الأدبية والفلسفية والاجتماعية، تتعد الإحاطة بها في هذا الموجز.

★★ ومن مؤلفاته الفلسفية:

- "الوجود والعدم". وهو عمله الفلسفي الرئيس.
- "الوجود والإنسانية".
- "نقد المنطق الجدلي".

★★ ومن مسرحياته:

- الذباب؛ لا مخرج؛ الأيدي القذرة؛ الشيطان والإله؛ سجناء الطون؛ تأجيل تنفيذ الحكم.

★★ ومن قصصه ورواياته والسيرة الذاتية:

- الغثيان؛ الجدار؛ طرق الحرية؛ الكلمات⁽¹⁾

(1) الكلمات (les mots)، عام 1963، قصة سيرته الذاتية في عهد الشباب.

★★ وفي مجال النقد الأدبي:

- بودلير (سيرة ذاتية)؛ حالات (Situations).⁽¹⁾ القديس جنيت؛ غبي العائلة.

وفيما يتعلق بالعنوان الأخير "غبي العائلة"، l'Idiot de la famille، تجدر الإشارة إلى أن سارتر بدأ منذ مطلع الأربعينيات يفكر في إنتاج دراسة تحليلية نفسية، على أساس الأسلوب الوجودي، فوقع اختياره على الأديب الفرنسي فلوبيير، Gustave Flaubert⁽²⁾. وقد شرع في إعداد هذه الدراسة آنئذ، ولكنه كان في بعض الأحيان يؤجلها فيضعها جانباً. وفي نهاية الستينيات ركز اهتمامه على إنجازها، فجاءت ضخمة، نحو 2700 صفحة، وأصدر الجزأين الأول والثاني سنة 1971، والجزء الثالث في العام التالي. وأصيب بمرض في عينيه فمنعه عن إتمام الجزء الرابع. وقد شرح المؤلف في هذه الدراسة الظروف النفسية والعائلية والاجتماعية التي أثرت على حياة فلوبيير. ويضع النقاد هذه الدراسة كذلك تحت عنوان "الرواية الواقعية".

* * * *

وفيما يلي اقتباس موجز من كتاب سارتر "الكلمات":

⁽³⁾ كان لوفاة Jean Baptiste (يعني أباه) تأثير عظيم على حياتي.

(1) مجموعة من المقالات، ومقدمات الكتب، والمقابلات والتحقيقات الصحفية (شفوية ومسجلة) تشتمل على النقد الأدبي والفني، والفلسفي، وشيء من السيرة الذاتية، وكذلك مواقف وآراء سياسية.

(2) كاتب روائي فرنسي، 1821 - 1880.

فقد أعادت هذه الحادثة أمني إلى قيودها، وأعطتني حريتي. والواقع أنه لا يوجد آباء طيبون. ولا ينبغي لنا أن نتهم بالتقصير الرجال فقط، بل يوجه الاتهام نحو علاقات الأبوة الفاسدة.

وإذا كان إنجاب الأطفال شيئاً جميلاً، فإن في وجودهم كثيراً من الجور والتعسف. ولو طال عمر أبي لنام بكل ثقله علي ليخنقني. ومن حسن الصدف أنه توفى في عهد الشباب؛ فلم يسمح له الزمان بأن ينهض بدور ((أبي))، وكان عند وفاته من الممكن أن يكون اليوم في سن ابني. فهل كان كل ما حدث خيراً أم شراً؟! لست أدري. ولكنني أتقبل اليوم طوعاً كوني لا أحمل جميع النواهي الأخلاقية التي كان من الممكن أن أرثها منه لو عمر طويلاً⁽¹⁾.

... كنت أعيش نوعين من الحياة، في كل منهما تمثيل كاذب: ففي حياتي أمام الناس كنت اتمسك بالمظاهر، فأنا حفيد شارل شفائيتسر. وأثناء عزلتي كنت أشعر بالاستياء، وألجأ لفعل ما يصحح ذلك الافتخار في تواضع وتستر.

وكنت أعيش حقيقة أخرى. كان بعض الأطفال يتجمعون في حديقة لوكسمبورغ ويمرحون ويلعبون، وعندما اقترب منهم، يتجاهلونني⁽²⁾. كنت أنظر بعين طفل متواضع. كم كان هؤلاء الأطفال أقوياء، ظرفاء، يتحركون بسرعة! وكنت أفقد أمامهم ذكائي وخبرتي ورشاقتي.. فكنت أستند إلى شجرة وانتظر.

(1) كان سن سارتر 15 شهراً عندما توفى أبوه.

(2) كان سارتر قصير القامة، أحول العينين.

وأمام هؤلاء الأطفال الأقوياء كنت مستعداً لأقوم بأي دور في ألعابهم، حتى دور الأخرس، أو الجريح، أو الميت، ولكنهم لم يتيحوا لي الفرصة. كان عدم مبالاتهم بوجودي تزعجني؛ وكانت أمني لا تخفى سخطها. لقد كانت امرأة جميلة طويلة القامة، وهي تتقبل دون حرج قصر قامتي، وتراها طبيعية. وكانت تتحدر من أسرة اتسم أفرادها بقاماتهم الطويلة، أما أبي فهو من عائلة يميل أفرادها إلى ضعف البنية وقصر القامة. وكانت أمني، عندما تلاحظ أن الأطفال يرفضون أن يلعبوا معي، تزيد من عطفها عليّ وحبها لي، لدرجة أنها كانت تخشى أن أشعر بأنني قزم، وأن أعاني من ذلك. والواقع أنني لست بالقزم تماماً.

وفيما يلي اقتباس من كتاب سارتر Situations II⁽¹⁾، تحت عنوان:

ما هو الأدب

((... أما الكاتب فهو عكس ذلك، يهتم بالرموز والإشارات. ومن المهم التمييز بين عالم الإشارات والرموز، وهو النثر؛ وعالم الشعر الذي ينتمي إلى عالم الرسم والنحت والموسيقى. ويتهمونني بأنني أكره الشعر؛ ويستدلون على ذلك بكوني لا أنشر القصائد في مجلة ((الأزمنة الحديثة)) وأقول إن هذا دليل على أننا نحب الشعر، ولا نكرهه. وللاقتناع بهذا الرأي يكفي أن نلقي نظرة على الإنتاج المعاصر ...

(1) سبقت الإشارة إلى هذا الكتاب.

إن الشعر لا يستخدم الكلمات مثل النثر بنفس الأسلوب والمفهوم؛ بل إنه لا يستخدم الكلمات على الإطلاق، إنه يخضع لها. اللغة وسيلة تساعد على البحث عن الحقيقة، والشعراء لا يسعون إلى كشف الحقائق ولا إلى شرحها؛ بل إنهم لا يريدون أن يشاهدوا العالم كما هو، ولأن تسمية الأشياء بأسمائها تعنى أن نخصص الكلمة والإسم للمسمى دون غيره.

والشعراء لا يتكلمون، ولكنهم لا يسكتون، والفرق بين ... والواقع أن الشاعر لم يعد ينظر إلى الكلمات على أنها وسيلة للتعبير، بل اختار الحالة الشعرية، ويعامل الكلمات كأنها أشياء، وليست رموزاً وإشارات، والواقع أن الرمز، أو الدلالة، مثل الواجهة الزجاجية، يعني أنه بوسعنا أن ندرك من خلالها المعنى المقصود، وأن نوجهه إلى حقيقته. فالرجل عندما يتكلم، يتجاوز الكلمات ويقربنا من الموضوع؛ أما الشاعر فهو بعيد عن الموضوع. فبالنسبة إلى الأول أصبحت الكلمات أليفة، وبالنسبة إلى الثاني تظل غريبة. وبالنسبة لمن يتكلم، الكلمة أداة، تتأكل بمرور الزمن، ويمكن الاستغناء عنها عندما تعجز عن إبلاغ المعنى؛ أما بالنسبة إلى الشاعر فالكلمات أشياء تنمو طبيعياً، كما تنمو الحشائش والأشجار فوق الأرض.

ولكن إذا توقف الشاعر عند الكلمات، كما يفعل الرسام بالألوان، والموسيقيار بالأنغام، فهذا لا يعني، في نظره، أنها فقدت كل معناها، لأن المعنى هو الذي يعطي الكلمات وحدتها وتناسقها اللفظي ...، إن المتكلم منسجم مع اللغة، مندمج في الكلمات، لأنها امتداد لحواسه، أدوات استشعاره ونظراته؛ يديرها من أعماق أحشائه وباطن نفسه، ويحس بها كما يحس بجسمه، فهو محاط "بجسد لغوي" لا يكاد يشعر بأنه

خارج وجوده، وفوق ذلك ينشر آثاره في محيطه. أما الشاعر فهو خارج اللغة، ويرى الكلمات مقلوبة، وكأنه لا ينتمي إلى الوضع البشري، وهو عندما يواجه الناس، يواجهه، قبل ذلك الكلمات كأنها حاجز أمامه.

★★ من أقوال سارتر :

- الموضوع الأدبي مثل الخذروف، لا قيمة له إلا عندما يدور. فليأتي الموضوع الأدبي بفائدة يجب أن يجد من يقرأه. ولهذا فإن الكتابة تعني حرية القارئ؛ وعلى الكاتب أن يكشف له العالم، ويقترح عليه أساليب التغيير.

- لا يكتب الكاتب لقارئ مجهول، بل لمواطنيه ومعاصريه. فالكتاب بما يحتوي من نظريات وفرضيات واقتراحات يحدد نوع القارئ؛ كما أن طبيعة جمهور القراء واتجاهاتهم تحدد موضوعات الكتاب.

- الأديب الملتزم يجد حياته وسط الناس، وينتعث بين أحضانهم.

- خلق الإنسان وهو يحمل عبئاً، عبء حرية التصرف، في عالم خال من أية قيمة خالدة؛ لذلك ليس له عذر في الفرار من المسؤولية.

- يصبح الكاتب ملتزماً عندما يغوص إلى أعماق نفسه، ليس بهدف أن يكشف عن فرديته، بل ليعرف دوره ضمن المجتمع المعقد الذي يكيفه ويدعمه.

- كنت مثل كثير من الحالمين فظننت أن الأوهام حقائق.

- عندما تشعل الحرية منارتها في قلب الرجل، تفقد الآلهة سيطرتها عليه.

- عندما تطلع على تفاصيل الانتصار، يصعب عليك أن تميزه من الهزيمة.
- تبدأ حياة الإنسان من أعمق مرحلة من مراحل اليأس.
- الأغنياء يشعلون نيران الحرب، ليكون الفقراء حطبها.
- يوجد نوعان من الفقراء: الفقراء في مجموعهم، والفقراء الفرادى. الصنف الأول هم الفقراء حقا، والصنف الثاني هم الأثرياء الذي خانهم الحظ.
- الإنسان هواية لا فائدة ترجى منها.
- الجحيم؟ هو الآخرون!
- يجب على الكاتب ألا يسمح لنفسه أن يستغل كأنه مؤسسة.
- اكتشفتُ العالم عن طريق اللغة، بل ظننت طويلاً أن العالم هو اللغة.

نقحات من الأدب العالمي

حكائيات ونصوص
من الأدب الفرنسي



لا روشفوكو

François De La Rochefoucauld



اتسمت حياته أولاً بالاهتمام بالأعمال العسكرية، والمغامرات الغرامية، والمؤامرات على أهل السلطة، وشارك في حروب حكومية، وفي انتفاضات وحروب ضد السلطات الرسمية. ويبدو أنه كان يقع بسهولة في شرك الحسنات الطامحات، والغايات المجازفات... وسرعان ما يجد نفسه في ساحة المعركة، أو في السجن، أو منفياً.

ويمكن القول إن حياته تتكون من عهدين، بصورة عامة: عهد الشباب المتحمس النائر المغامر، وعهد الكهولة الذي يغلب عليه الاستقرار والتأمل. ذلك أنه بعد أن حنَّكَته التجارب، وأثقلت كاهله المحن والجروح ومرض النقرس والآلام، تعرف على نساء صديقات من نوع آخر، فهدأت نفسه قليلاً، وبدأ يهتم بالمطالعة والتأمل في سلوك الناس.

وكم كان محظوظاً أن يتعرف على السيدة Sable، فبدأ يتردد على "صالونها" في باريس. وهناك وسط مجموعة من الصديقات والأصدقاء، كرّس اهتمامه لمناقشات وصفت بأنها كانت أشبه "باللعبة"، كان هدفها تأليف العبارات والحكم، بأسلوب محكم وموجز، حول سلوك الإنسان، الذي كان في نظر لاروشفوكو أشبه بكيس منتفخ

بالغرور والأنانية.

ولد لاروشفوكو عام 1613، في باريس، وينتمي إلى أسرة عريقة شهيرة. كان يحمل لقب أمير مارسيلاك، وعندما توفي أبوه سنة 1650 ورث عنه لقب "دوق"، فأصبح يعرف بالدوق لاروشفوكو. زوجه أبوه ولم يبلغ 15 سنة من العمر، وأنجبت له السيدة أندري إيفون أربعة ذكور وثلاث بنات، وكانت مثالا للزوجة الوفية الصالحة.

ومنذ مرحلة شبابه كرّس لاروشفوكو نشاطه لمهنة الجندية، ونال مرتبة كولونيل ولم يبلغ العشرين من عمره، ولعله دفع مقابل ذلك ثمناً. وتقدم للمشاركة في حملات الجيش الملكي في إيطاليا ضد الوجود الأسباني وسنه نحو 16 سنة. كما اشترك في حملات عسكرية أخرى، في إطار الجيش الرسمي، في هولندا، وبيكارديا، وفي بلاد الفلاندرز، خلال الفترة 1635 - 1639.

ومن المفيد الإشارة إلى أنه، أثناء فترة حياته، (1613 - 1680)، حدثت صراعات ومؤامرات، وحروب بين حكومتي الملك لويس الثالث عشر، التي كان يرأسها الكاردينال ريشوليو⁽¹⁾، والملك لويس الرابع عشر، التي كان يرأسها الكاردينال مزران⁽²⁾ من جهة، وبين عدد من

(1) الكاردينال ريشوليو (1585 - 1642)، اشتهر في البداية كمستشار للملكة Marie de Medicis، ثم شغل منصب رئيس حكومة لويس الثالث عشر. وعرف بلجوئه إلى القوة لتحقيق الأهداف السياسية والعقائدية.

(2) الكاردينال مزران، من أصل إيطالي، تولّى زمام الحكومة بعد وفاة ريشوليو، وأصبح الزعيم المفضل لدى أن النمساوية، الملكة الوصية على العرش، عندما كان الملك لويس الرابع عشر قاصراً عن تولي الحكم، بسبب صغر سنه.

النبلاء والأمراء من جهة أخرى. والسبب في هذه الصراعات والحروب الأهلية بين الطرفين هو مجموع السياسات التي لجأت إليها حكومتا ريشوليو ومزران ضد هؤلاء النبلاء، ومن أجل تقوية سلطة المملكة، حيث كان الملك لويس الرابع عشر يخشى أن تشتد شوكة الأمراء فيستقلوا كل في مقاطعته. وكانت حكومة مزران تتبع سياسة الوسط، فتحاربهم مرة وتصلحهم طوراً آخر.

وقد أثرت هذه الصراعات والحروب على حياة لاروشفوكو، وكذلك على حياة والده من قبله، الكونت فرانسوا لاروشفوكو. فقد منحته الحكومة لقب دوق، وجعلته والياً على مقاطعة بواتو (Poitou) فترة من الزمن، ثم نزعته منه الولاية عندما شكت في ولائه للأسرة المالكة. كما أن الكاردينال مزران جعل لاروشفوكو الابن والياً على المقاطعة المذكورة، عام 1646، وبعد سنوات أمر الملك لويس الرابع عشر بهدم قصره في منطقة فيرتوي لقيامه بنشاطات مخالفة لمصالح الحكومة.

ومن الجدير بالذكر الإشارة إلى أن لاروشفوكو كان سريع التأثر بمطالب الحسناوات، وسهل الانقياد لمطامح الغايات، لا يتردد في الدخول في مغامرات ومؤامرات، بل والمشاركة في الانتفاضات والحروب ضد السلطة في سبيل مطامحهن. حدث ذلك عندما حرضته الدوقة La Chevreuse⁽¹⁾ على التآمر ضد الكاردينال ريشوليو سنة 1637،

(1) الدوقة لاشوفروز (1600 - 1670) أميرة فرنسية، تزوجت الدوق دي لاشوفروز، اشتهرت بمشاركتها في عدة مؤامرات ضد حكومة ريشوليو، وحكومة مزران. نفيت عام 1626 إلى Poitou. كما قدمت أسراراً تمس أمن الدولة إلى أسبانيا، فنفيت مرة أخرى إلى Touraine، ثم تأمرت مع جماعة على قتل مزران عام 1643، وساعدت جماعة من النبلاء ممن وقفوا إلى جانب الأمير Conde في ثورته ضد حكومة مزران.

وانتهى به الأمر إلى السجن لمدة ثمانية أيام، ثم النفي مدة عامين إلى فيرتوي.

ثم دخل في مغامرة أخرى، غرامية وقاتالية، عندما تعرف على الدوقة دي لونغفيل de Longueville، أخت الأمير Conde العظيم⁽¹⁾، وقائد جبهة الفروندي Fronde⁽²⁾. كانت موجة إعجاب لاروشفوكو بهذه السيدة قوية، نتج عنها ابن غير شرعي، وكثير من الألم والمتاعب. ذلك أنه عندما نشبت حرب أهلية يقودها الأمير كوندي ضد السلطة المركزية، زجَّ لاروشفوكو "الشهم" بنفسه في غمارها. وقد دامت هذه الانتفاضات من 1648 - 1683.

وفي حادثة عرفت بسجن الأمراء، سجن فيها الأمير كوندي نفسه، نظم لاروشفوكو حملة عسكرية ضد القوات الحكومية، ولكنه استطاع في النهاية أن يتوصل إلى إطلاق سراحهم عن طريق المفاوضات. وأثناء مشاركته في إحدى معارك هذه الحرب الأهلية، معركة سانت أنطوان عام 1652، أصيب بجروح في عنقه، وأصابه رذاذ بندقية في وجهه أدى إلى ضعف بصره. وقد أدى انضمامه إلى الأمير كوندي في حربه ضد الحكومة إلى تعميق هوة الخلاف بينه وبين الأسرة المالكة. ثم إن الهزيمة التي منى بها جيش الأمراء في عام 1652، وما

(1) Conde، كوندي العظيم، ابن عم الملك لويس الرابع عشر، وقائد عسكري شهير تمرد في

النهاية على سياسات الكاردينال مزران، وأصبح قائد جبهة الفروندي، وثورة الأمراء.

(2) يقصد بكلمة Fronde في هذا السياق ثورة طبقة الأمراء والنبلاء، والحروب الأهلية التي قاموا بها في فرنسا أثناء الفترة 1648 - 1653، ضد سياسات مزران، رئيس الحكومة، وخاصة السياسات التي طبقها عندما كانت الملكة آن النمساوية وصية على العرش، قبل أن يجلس لويس الرابع عشر على العرش.

نتج عنها من شعوره بالخيبة دفعه إلى العودة إلى أرضه، وأصبح يقضي بعض الوقت في صالونات باريس.

وفي عام 1655 تعرف على السيدة سابلي، فنشأت بينهما صداقة عميقة، وربط بينهما علاقات فكرية، وكان لهذه الصداقة آثار طيبة على حياته، فبدأ يهدئ من طموحاته ومجازفاته الغرامية والسياسية، وراح يتجنب ما من شأنه أن يغضب السلطات والأسرة المالكة. ولا ننسى آثار مرض النقرس الذي بدأ يعاني منه بعد سن الأربعين، وضعف بصره، وآلام الشعور بالخيبة نتيجة مغامراته وغرامياته الفاشلة، وبدأ يركز على رعاية أسرته، ويهتم بزيارة صالون السيدة سابلي.

وفي سنة 1659، نال لاروشفوكو عفو البلاط الملكي، وأصبح يتلقى منحة ساعدته على الاستقرار والعيش في هدوء واطمئنان.

كانت تلتقي في الصالون المذكور مجموعة مؤلفة أساساً من لاروشفوكو، والسيدة سابلي، ورجل آخر مهتم بالأدب يدعى جاك إسبري Jacques Esprit . وكانت تدور بينهم مناقشات شبيهة⁽¹⁾ بلعبة الكلمات لله، هدفها تأليفُ جمل قصيرة، مصقولة، تعبر بإيجاز وبلاغة عن سلوك الإنسان وتصرفاته. كانت هذه المناقشات تجري بين أفراد قلائل، في جو حماسي، وكانت السيدة سابلي تسهر على تنظيمها، وكان لاروشفوكو يقوم بالدور الرئيسي في التأليف. وفي النهاية، وبعد أن صقل هذه العبارات والجمل بيد فنان خبير، وضع لها عنواناً هو:

Reflexions, ou sentences et maximes morales

فنالت إعجاب الناس وشهرة واسعة لدرجة أنه طبع كتابه هذا

خمس مرات أثناء حياته، وكانت الطبعة الأولى عام 1665.

وأصبح الكتاب المذكور يعرف تحت عنوان Maximes أو⁽¹⁾ "الأمثال". ونشر لاروشفوكو، أثناء حياته كتاباً آخر فقط تحت عنوان "مذكرات"⁽¹⁾. ويقال عن لاروشفوكو إنه من الكتاب الذين اشتهروا بفضل كتاب واحد، وهو كتاب "الأمثال".

كان لاروشفوكو عام 1665 قد تجاوز الخمسين من العمر، عندما وفاه الحظ بالتعرف على السيدة لافايت La Fayette، وهي لا تزال في ربيع العمر، لم تكد تتجاوز الثلاثين، فتوثقت بينهما علاقة صداقة عميقة، شملته بعنايتها، وسهرت على رعايته في ظروف كان في حاجة إلى الصداقة النزيهة. وكان من بين أصدقائهما في هذه الفترة السيدة Sevigné التي اشتهرت بمراسلاتها، وخاصة الرسائل الممتعة التي كتبتها إلى ابنتها.

وفي عام 1669 اشتد عليه داء النقرس، فأصيب بنوبة شديدة. وتوفيت زوجه في السنة التالية. ثم توفيت السيدة سابلي عام 1678، وأصدر لاروشفوكو الطبعة الخامسة من كتابه "الأمثال".

وافته المنية في شهر مارس / آذار من عام 1680.

وكما يبدو من هذه النبذة، كانت حياته مزدحمة بالحوادث، والتقلبات، والمجازفات، والمؤامرات، والمغامرات في ميدان الحب

(1) Memoires، "مذكرات" لم يحقق هذا الكتاب سوى نجاح محدود. وللمؤلف كتاب آخر عنوانه Reflexions Diverses "تأملات" لم ينشر أثناء حياته.

والحرب، وكانت له طموحات وتجارب صحبته فيها الآمال والآلام، وذاق أثنائها لذة النجاح ومرارة الفشل، ثم كانت خاتمة المطاف تأملاته الفلسفية حول سلوك الإنسان في كتابه ((الأمثال)).

ويبدو لي أن حياته تصلح لإنتاج فيلم ممتع ومفيد.

فيما يلي باقة من العبارات الشهيرة التي وردت في كتاب لاروشفوكو الشهير ((الأمثال)):

- الطبيعة تجهز الإنسان بالمؤهلات، ويبقى على الحظ أن يدخلها حيز التنفيذ.
- تضيع الفضائل في خضم المصالح، مثلما يضيع النهر في البحر.
- ليست فضائلنا في معظم الحالات إلا مساوئ مقنعة.
- للناس قدرة عجيبة على تحمل مصائب الآخرين!
- نحتاج إلى قدر من الفضائل لتحمل أعباء النجاح والثراء، أكثر مما نحتاج إليه لتحمل أعباء اليأس والشقاء.
- قد تكون الغيرة محمودة عندما يحاول المرء أن يحتفظ بما يعتقد أنه من حقه، أما الحسد فهو عنف داخلي يثور ضد نجاح الآخرين.
- يعدُّ المرء حسب آماله، ولكنه يوفى حسب مخاوفه.
- المصلحة تتكلم جميع اللغات، وتمثل جميع الأدوار، حتى دور اللامبالاة.
- إذا حكمنا على الحب بمعظم نتائجه نجد أنه أشبه بالكراهية

منه بالصدقة.

- قد يتعود المرء على حجب نفسه عن الآخرين، لدرجة أن يحجب نفسه عن نفسه.
- إذا استطاع المرء أن يقاوم مشاعره، فإن ذلك يعود إلى ضعفها أكثر منه إلى قوته.
- يقل كلام المرء، إلا عندما يدفعه الغرور.
- توجد زوجات ناجحات، ولكن عندئذ لسن زوجات ممتعات.
- قليل من يملك من الحكمة ما يجعله يفضل اللوم المفيد على المديح الخداع.
- من الناس من نرتاح إليهم رغم ما فيهم من نقائص، وآخرون نشمئز منهم رغم ما لهم من مؤهلات.
- عندما تعجب من مجد العظماء، لا تنسى الوسائل التي استغلوها لبلوغ مجدهم.
- مهما كانت الآمال خداعة، فإنها تسير بنا على درب ممتع.
- الفضول أنواع، أحدها الرغبة في تعلم شيء مفيد، والآخر الخيلاء الناجم عن الرغبة في معرفة ما يجهله الآخرون.
- عندما نندم على فعل ارتكبناه، لا يعني ذلك التأسف على الشر الذي أتيناه، بقدر ما هو الخوف مما قد يصيبنا.
- تتداخل النقائص في إتيان الفضائل، مثلما تدخل السموم في تركيب الأدوية.

- الناس لا يحتقرون جميع من لهم عيوب، ولكنهم يحتقرون من ليس لهم أية فضيلة.
- الرغبة الشديدة في الظهور بمظهر الحاذق كثيراً ما تعرقل المرء عن تحقيق ما يسعى إليه.
- لا تستطيع الفضيلة أن تشعّ طويلاً ما لم يصاحبها الغرور.
- من يعيش بدون أية حماقة لا يعدّ حكيماً كما يعتقد.
- بقدر ما يتقدم بنا السن نصبح أكثر حكمة، وتزيد حماقاتنا كذلك.
- الاستعجال في مجازاة المعروف بمثله نوع من نكران المعروف.
- مهما اخترعنا من مبررات لمشاكلنا، فإن السبب في معظم الحالات هو الغرور والمصلحة الشخصية.
- الشباب سكر دائم، حمى تصيب العقل.
- الوقار سر من أسرار الجسد يصطنعه لإخفاء نقائص النفس.
- ما دمت قادراً على فعل الخير، لن تجد حولك جاحداً.
- أتدري لماذا لا يمل العاشقان من طول اللقاء؟ لأنهما يتحدثان طوال الوقت عن نفسيهما.
- ليس بوسع الضعيف أن يكون صريحاً.
- الغيرة تكشف عن حب الذات أكثر مما تدل على الحب نفسه.
- من هو صاحب التفكير السليم؟ هو الذي لا يفند آراءنا!
- النجاح يكشف عن فضائلنا وعيوبنا، مثلما يكشف النور عن

- الأشياء.
- تدفعنا المشاعر القوية إلى ارتكاب الخطايا، ولكن الحب يدفعنا إلى ارتكاب خطايا تثير السخرية.
- لا تحكم على المرء بما له من مواهب، بل بما يحقق بها.
- المرأة في حبها الأول تحب المحبوب، وفي ما يأتي بعده تحب الحب نفسه.
- الشهامة الحقيقية أن تفعل في عزلتك ما تفعله أمام الشهود.
- يدفع الغرور صاحبه إلى ارتكاب أفعال قد يعجز العقل عن إقناعه بفعالها.
- المشاعر الجامحة تجعل العاقل أحمق، وترد إلى الأحمق بعض عقله.
- إن حب الناس للعدالة ليس في الواقع إلا لأن معظمهم يخشون أن يكونوا فريسة للظلم.
- لا يمدح أحدنا الناس إلا لأنه يتوقع منهم أن يمدحوه.
- عندما يعجز المرء عن معاشرة المساوي، يزعم أنه هو الذي هجرها.
- ليست الصداقة إلا مقايضة المصالح.
- حتى في المصائب التي تنزل بأعز أصدقائنا نجد في أعماق نفوسنا شيئاً من المتعة الخفية.

لابرويير

Jean de La Bruyere

كان لابرويير يطمح إلى الارتقاء في السلم الاجتماعي، والشهرة في المجال الأدبي، والدخول إلى الأكاديمية الفرنسية، كل ذلك في إطار التقيد بالأعراف والامتثال للعقائد والسياسات السائدة؛ غير أنه لم يتقاعس عن انتقاد تصرفات كثير من رجال طبقة النبلاء ورجال البلاط الملكي.

تمّ تعميم لابرويير في باريس سنة 1645. وكان أبوه موظفًا في بلدية باريس، وينتمي إلى طبقة صغار الملاك. درس الفتى القانون في مدينة أورليان، وحصل على الشهادة سنة 1665. وفي عام 1673 اشترى وظيفة متواضعة في Caen؛ ثم حصل على إرث متواضع مكّنه من أن يستقر في باريس.

وبفضل وساطة بوسوي Bossuet⁽¹⁾ التحق بأسرة الأمير كوندي، وأصبح معلمًا لحفيده، الدوق دي بوربون، وعندما تزوج التلميذ، ظل لابرويير مرتبطًا بهذه الأسرة، وكلف بمكتبتها.

كرّس لابرويير نحو عشر سنوات لإنتاج الكتاب الذي نال به شهرة

(1) جاك بنين بوسويه (1627-1704)، اشتهر بمواعظه الدينية التي جمعت في سبع مجلدات. عينه لويس الرابع عشر واعظًا في كنائس القصر الملكي، ومعلمًا للدوقان Dauphin. سماه صديقه لابرويير «أب الكنيسة».

واسعة. وقد أصدره عام 1686 تحت عنوان «الأخلاق، لتيوفراست»⁽¹⁾، مترجمة عن الإغريقية، مع أخلاق أو عادات هذا العصر⁽²⁾. ولعل المؤلف لابرويير لم يكن يتوقع ذلك النجاح لكتابه «الأخلاق»، فربط عنوانه بكتاب «الأخلاق» الذي ألفه تيوفراست.

ويتناول لابرويير سلوك أهل عصره فيشهر بتصرفات طبقة النبلاء والاستقرائية، وسلوك رجال البلاط، فيعدهم مثالبهم وتجاوزاتهم، ويرسم بعبارات دقيقة صورًا وملامح لعدد من تلك الشخصيات.

وقد سجل المؤلف ملاحظات مؤثرة ومشوقة حول حوادث المجتمع وأساليب حياة الطبقة المذكورة؛ وأثارت تلك الصور والمشاهد والملاحظات اللاذعة فضول الناس، فسارعوا إلى اقتناء الكتاب، وأعيد طبعه مرارًا، ونال به المؤلف شهرة واسعة.

ومن الصفات التي يعددها لابرويير ويسخر فيها من أهل عصره الطموح الاجتماعي الزائف، والمظاهر المصطنعة، والأدوار المتكلفة التي كانت تمثلها شخصيات من النبلاء ورجال البلاط والموظفين، وما اتسمت به من نفاق، وخنوع، وجشع، وغرور، وحب للمال والشهرة، وأنانية، وغيرها.

وكانت تدور، في عهده، مجادلات ومناقشات أدبية بين دعاة مدرسة

(1) Theophraste (372 - 287 ق.م) فيلسوف وتلميذ أرسطو، من مؤلفاته الكتاب المشار إليه وعنوانه «الأخلاق».

(2) les Caractères de Théophraste traduit du grec, avec les caractères ou les moeurs de ce siècle.

التجديد، وأنصار القديم، فنهض المؤلف لمناصرة المدرسة الأخيرة بحزم. وبعد محاولات عديدة نجح في الانضمام إلى الأكاديمية الفرنسية سنة 1693، وألقى فيها خطاباً أحدث ضجة كبيرة بين المدرستين المذكورتين.

توفى لافروبيير عام 1696، في فيرساي.

وفيما يلي مقتطفات من كتابه الشهير: Les Caractères

”.... أخلاق أو عادات هذا العصر“،

الفصل الثامن المعنون: ”البلاط الملكي“.

جلساء الأمراء

.... لا تنتظروا البراءة، والصراحة، والإنصاف، والمساعي الحميدة، والإحسان، والسخاء، والثقة، وصلابة الإرادة ... من رجل البلاط الذي يجالس الأمراء، ويسعى في الخفاء إلى زيادة جاهه وثروته: فهو لا يسمي الأشياء بأسمائها؛ وفي شريعته لا يوجد محتال ولا نصاب، ولا مرء، ولا مخادع، ولا منافق، ولا أحمق، ولا غبي. وهو يسيء الظن بجميع الناس، لذلك لا يذكر أحداً بسوء؛ لا يحب الخير إلا لنفسه، ولكنه يحاول أن يقنع الناس بأنه يحب لهم الخير جميعاً لكي ينال رضى الجميع.

وبما أنه غير مخلص في سلوكه، لا يسوؤه ألا يخلص له الناس. الحقيقة تزعج سمعه: فهو لا يبالي بما يسمع من ملاحظات عما يجري في البلاط، ويقابل بحذر شديد ما يسمع عن رجال البلاط وجلساء

الأمراء، يحتاط فيما يقول، مزاحه برئ، ولكنه مصطنع، ابتساماته وملاطفاته متكلفة، حوارته متقطع، وشروده ذهنة ملحوظ.

يرسل شلالات من الثناء بالنسبة لما قال أو فعل ذو الجاه والنفوذ؛ يمتلك صيغاً متنوعة من المدح والتبجيل ينثرها حول من يزورونه، ومن يزورهم، عند دخوله وخروجه؛ لا يفارقه شخص إلا وهو راض عن لقائه. يسعى دوماً إلى السيطرة على أتباعه، والخضوع لمن يحمونه.

يلعب دور الوسيط، والسمسار، وحافظ السر ... ويعرف أين ينبغي أن يقف أو يجلس ليلاحظ الناس وجوده. يعرف كيف يقبلك، ومتى؛ وكيف يشاركك مشاعرك، ومتى؛ وكيف يسألك عن أحوالك وأعمالك، ومتى؛ ولا يغادرك حتى يرضيك ويهنئك. وينتقل حالاً إلى شخص آخر ليقدم له تعازيه: إنه بيتسم بعين ويبكي بالأخرى؛ وتراه يلزم الصمت أو يبقى موقفه غامضاً عندما يتعلق الأمر بالموضوعات الهامة التي يعرفها، وكذلك بالموضوعات التي يجهلها.

* * * *

★ ومن أقوال لافروبيير

— المرأة: إذا تركنا جانبا المرأة التي حباها الحظ بأن ولدت وسط أسرة نبيلة شريفة، فإن مؤهلات غيرها تعود إلى جمالهن. والجمال مظهر خادع لأنه زخرف مؤقت؛ ويمرور الزمن تذبذب جاذبيتها، ويزول إعجاب الرجال بها، عندئذ تلجأ إلى التفاني الزائف لتتال حظها من الحياة.

- **البلاط الملكي** : تسود بيئته سمات العبودية، ويقضي الناس معظم وقتهم في المكاتب والكواليس، يخنقون مشاعرهم لإرضاء أصحاب السلطة والنفوذ، يكيلون لهم ألوان المديح، وهم في خيفة من أمرهم، مقيدون بضروريات الحذر والاحتياط خشية أن يقعوا فريسة التآمر.

- **الإنسان** : يلجأ الإنسان، في علاقاته مع غيره، إلى التقلب والتلون، والفظاظة والظلم. تتبع هذه المساوئ من خلق الأنانية المتأصل في أعماق نفسه.

- **الأطفال** : من صفاتهم أنهم يغضبون بسرعة، يحقدون، يكذبون، يتكبرون، يحسدون ويحتقرون غيرهم. ومنها أنهم فضوليون يهتمون بما يجرى حولهم؛ وهم متقلبون في مزاجهم، يتصفون بالخجل، والكتمان، والمغالاة، والكسل، والمبالغة، يضحكون ويبكون لأبسط الأشياء، تهتز مشاعرهم بقوة لما يبهجهم، ويعبرون عما يؤلمهم بدرجة مريرة؛ لا يتحملون الحرمان، ولكنهم مستعدون لحرمان غيرهم، فهم إذا مثل الكبار.

- **المرأة** : لو كانت المرأة من الجمال والروعة في الطبيعة مثلما تجعل نفسها تبدو بالمساحيق والدهون والأساليب التكميلية الاصطناعية .. لأصبح من العسير إرضائها.

- **الناس** : ينفق معظم الناس النصف الأول من حياتهم لإفساد النصف الباقي.

- ليس السخاء فقط في إعطاء الكثير، بل في تقديم الهدية المناسبة في الوقت المناسب.

- التوقف عن الحب في أي سنّ يعني أن الذهن أصبح بليداً والقلب بارداً.

مدام دي ستايل

Mme de Staël, Germaine Necker



كاتبة ومفكرة فرنسية، ترعرت في وسط مستنير، فأصبحت شخصية لامعة. عاشت خلال فترة مضطربة من تاريخ فرنسا، وعاصرت الفترة الأخيرة من حكم لويس السادس عشر، والثورة الفرنسية، وعهد نابليون، وعوده الملكية إلى فرنسا.

جمعت بين الثروة والجاه والذكاء، وشخصية قوية، وقلب شجاع، وقدر كبير من الثقافة، ومن الثقة بالنفس؛ وسار في ركابها عشاق كثيرون.

امتزجت حياتها بحوادث عصرها. كانت مؤيدة للثورة في بدايتها، ومعارضة لإرهابها. وكانت معادية لدكتاتورية نابليون، فبادلها الكراهية، ونفاها مرارا. واشتهرت بصالوناتها التي كان يلتقي فيها رجال الأدب والفكر والسياسة ليرسلوا صرخاتهم ضد نابليون.

كتبت مقالات سياسية، وعن الرواية، والنقد الأدبي، والتاريخ وغير ذلك.

ولدت جرمن نيكري دي ستايل سنة 1766 في باريس. كان أبوها من كبار رجال البنوك في سويسرا، وتقلد وظائف هامة في فرنسا. وفي عام 1786، تزوجت السفير السويدي في باريس، البارون دي ستايل، فقدمها إلى البلاط الملكي. وفي العام التالي أنجبت طفلة توفيت بعد

سنتين. ويبدو أنها لم تكن موفقة في علاقاتها الزوجية، فتعرفت على الكونت دي ناربون بعد أقل من سنتين من زواجها، ونشأت بينهما علاقات حميمة، وسعت لدى معارفها من أجل تعيينه وزيراً للدفاع لدى حكومة لويس السادس عشر. وأنجبت ابناً (من زوجها) سمى أوغست. وفي هذه الفترة ساهمت في كتابة دستور البلاد الجديد.

وعندما هاجر عشيقها ناربون إلى انكلترا سنة 1792، التحقت به في العام التالي. غير أنه نشأ خلاف بينهما، فتعرفت على بنيامين كونستانت، واتخذته خليلاً ومستشاراً، وكان له تأثير هام على مسيرة حياتها، وعلى ميلها إلى الثقافة الألمانية.

وعادت دي ستايل إلى باريس حيث فتحت صالونها الشهير الذي كانت تجتمع فيه مع نخبة من الزعماء والمفكرين، من بلدان مختلفة، ممن كانوا يعارضون سياسات نابليون وطموحاته. وصدر أمر بنفيها، فانتقلت إلى المنزل الذي كانت تملكه أسرتها في Coppet (كوبت)، بالقرب من جنيف، وتكررت بعد ذلك الأوامر بنفيها، فتكررت تنقلاتها بين فرنسا وسويسرا.

بدأت دي ستايل تنشر رسائلها الأدبية والسياسية، كما شرعت في تأليف كتابها "تأثير المشاعر على سعادة الأفراد والدول". الذي أتمته عام 1795. وفي سنة 1797 أنجبت بنتاً أسمتها ألبرتين. وفي هذه السنة التقت بنابليون لأول مرة، وحاولت بعد ذلك أن تقنعه بعدم احتلال سويسرا، دون جدوى.

وفي عام 1800، حصل الفراق النهائي بينها وبين زوجها دي ستايل. وفيه أصدرت رسالتها المعنونة "عن الأدب وعلاقته بالمؤسسات

الاجتماعية⁽¹⁾، ثم نشرت رواية «دلفين» سنة 1802. وبدأت تتضح معالم اتجاهاتها الأدبية ونظرياتها الاجتماعية.

وفي سنة 1803، قامت برحلة إلى فايمار (Weimar)، واستقبلت في البلاط، والتقت بالأدباء غوته، وشيلر، وفيلاند. كما استقبلت في البلاط في برلين، وتعرفت على فيلهالم شليغل⁽¹⁾، وطلبت منه أن يرافقها ليتولى تعليم طفليها؛ وأصبحت تعتبره رفيقها ومُستشارها. وفي شهر أبريل/ نيسان، من عام 1804، علمت بوفاة أبيها، وهي في فايمار، فعادت إلى منزل الأسرة في Coppet، وكان حزنها عميقاً بقدر حبها وتقديرها له. وفي ديسمبر / كانون الأول، من السنة المذكورة، قامت برفقة شليغل، برحلة إلى إيطاليا دامت حتى شهر جوان / يونيو 1805، زارت خلالها مدناً عديدة. وعندما رجعت إلى Coppet، عرض عليها كونستانت الزواج فرفضت. وربطت علاقات ودية مع رجل يدعى بروسبير (Prosper) ابن والي مدينة جنيف.

وكانت أثناء ذلك مخابرات نابليون تستطلع أخبارها وتتبع تنقلاتها، وواصلت دي ستايل نشاطها، فأصدرت رواية «كورين»⁽²⁾ سنة 1807، وبدأت تعمل لإعداد كتابها «عن ألمانيا»⁽³⁾.

وفي 1810، تعرفت على ضابط سوسري شاب يدعى جون روكا، وكان سنها عندئذٍ خمساً وأربعين سنة، أنجبت منه ولداً في السر، إذ أنها لم تتزوج بهذا الشاب إلا بعد ست سنوات، وكان الزواج في السر أيضاً.

(1) Wilhelm Schlegel.

(2) عنوانها: Corinne ou L'Italie.

(3) De L'Allemagne.

قامت مدام دي ستايل برحلة طويلة زارت خلالها فيينا، وروسيا، وستوكهولم، واستقر بها المقام في لندن سنة 1813، ففتحت هناك صالوناً لتنشيط المناقشات وتبادل الآراء بين جماعة المعارضين لنابليون. وفي هذه السنة قتل ولدها ألبرت في مبارزة، وكان ضابطاً في الجيش السويدي⁽¹⁾.

وعندما هزم نابليون وتنازل عن العرش، عادت دي ستايل إلى فرنسا، وجددت اتصالاتها بمختلف الشخصيات. غير أن عودة نابليون، خلال فترة المائة يوم، اضطرتها للفرار إلى سويسرا. وبعد هزيمته النهائية، انضمت إلى أسرة البوربون، ودفع إليها مبلغ المليون فرنك الذي أقرضه أبوها إلى الملك قبل عشرين عاماً.

وفي أواخر عام 1815، قامت برحلة إلى إيطاليا، برفقة ابنتها ألبرتين، التي عقدت قرانها على الدوق فيكتور دي بروي في مطلع عام 1816، في مدينة بيزا. وقضت دي ستايل موسم الصيف في منزل الأسرة بسويسرا، وزارها هناك الشاعر الإنكليزي لورد بايرون.

وفي شهر فبراير (شباط) من سنة 1817، أصيبت بمرض تركها مشلولة. توفيت مدام دي ستايل في شهر يوليو (تموز)، في باريس، ودفنت في كويت، بسويسرا.

وبالإضافة إلى ما ذكر، ألقت مدام دي ستايل رسائل وكتبا أخرى عديدة، منها:

(1) ولد ألبرت في سويسرا، سنة 1792.

عن الأدب⁽¹⁾ مدام دي ستايل

... يقول الفيلسوف الألماني كانت: إن ما تحدثه بلاغة الكلام والأسلوب، والفنون الجميلة، وجميع ما يبده الخيال من أعمال خالدة من متعة لدى الإنسان، إنما تتبع من حاجته إلى توسيع أفق مصيره الإنسانية. ذلك أن المرء عندما يختبر تلك المشاعر النبيلة والانفعالات السامية الغامضة، ينسى ولو لبعض الوقت، الحدود الضيقة التي تثقل نفسه، هذه النفس التي تنتعش بكل ما هو جميل ونبيل، وتشعر أن حدود الأرض قد اختفت عندما تفتح العبقورية أمامها مجالات إبداعها.

والواقع أن الإنسان الواعي لا يستسلم لتكاليف الحياة وقوانينها إلا عن مضمض. وقد يساعده شعوره السوداوي على الشعور بالسعادة لبعض الوقت، لأنه يجعله يسبح في آفاق واسعة .. ذلك أن ما تحدثه وقائع الحياة من مقلقات، إذا لم يؤد إلى فتور الهمة، يمكن أن يلهم المرء إلى مشاعر جمالية وإبداعات سامية. عندئذ يتأمل المرء الحياة من مستويات عالية، ويصبغها بألوان زاهية لامعة.

كانت منزلة الشاعر قديماً ترتفع بقدر ما يسمو خياله ... أما في عهدنا هذا فإن المزاج السوداوي (المنخوليا) هو الذي يلهم مواهبه ويسمو بخياله. وأي أديب لا يتأثر بذلك الشعور، لا يستطيع أن يبلغ مستويات الإبداع.

(1) من كتابها: "عن الأدب وعلاقته بالمؤسسات الاجتماعية".

- عشر سنوات في المنفى.

- تأملات حول الحوادث الهامة للثورة الفرنسية.

- مجموعة رسائل، (منها رسالة عن الرواية).

فيما يلي فقرات من كتابيها:

- "عن الأدب وعلاقته بالمؤسسات الاجتماعية".

- "عن ألمانيا".

عن ألمانيا⁽¹⁾ مدام دي ستايل

شاتوبريان

François-René, de Chateaubriand

ولد فرانسوا - رينى، دي شاتوبريان في سان مالو، Saint-Malo، سنة 1768. وقضى فترات من طفولته في قصر كامبور Gambourg الذي اشتراه أبوه عام 1761، وانتقلت إليه الأسرة سنة 1776. ويقع هذا القصر والأرض التابعة له في مقاطعة بريطانيا Bretagne، في شمال فرنسا. وكان القصر في منطقة موحشة، يسوده مناخ كئيب وتكثر فيه الرياح خاصة في فصلي الخريف والشتاء. ويستفاد من وصف شاتوبريان أن أباه كان رجلاً متشددًا، لا تبدو عليه سمات اللطافة والمرونة والحنان؛ وكانت الأم عليلة، أما لوسيل Lucile، أخته المفضلة، فكانت على عكس ذلك مرحة، شديدة الحماس والنشاط.

وبعد أن أنهى شاتوبريان تعليمه المدرسي، أرسل إلى مدينة بريست Brest للإعداد لدخول البحرية، غير أنه رفض أن يستعد للامتحان. بعد ذلك قضى سنتين في قصر كامبور المذكور بصحبة أخته لوسيل، في انسجام ومرح ونشاط و"هذيان" المراهقين. وقد ترك لنا شاتوبريان في "مذكرات من وراء القبر" وصفًا للقصر الذي قضى فيه فترات من طفولته، ولجوج العائلي، ومن ذلك الاقتباس التالي:

« ... أما في أيام الخريف والشتاء، فإننا نجتمع حول المدفأة، بعد العشاء، فتستلقي أمي، وهي تنتهد، على سرير قديم، ... وأجلس إلى جانب أختي لوسيل أمام المدفأة، ويخلد الخدم إلى

.... الأدب الرومانسي وحده هو المؤهل لتحقيق مستويات راقية من التطور، لأن جذوره تنمو في أعماق أرضنا، قادرة على أن تتعش وتنمو من جديد. فهذا النوع من الأدب يعبر عن عقيدتنا وذكرياتنا وتاريخنا .. أما الأدب الكلاسيكي فينبغي له أن يعبر مراحل الوثنية ليصل إلينا .. ونلاحظ أن الشعراء الألمان يستغلون انطباعاتنا وتجاربنا الشخصية ليحركوا مشاعرنا، ويخاطبوا قلوبنا مباشرة ..

وللحماس المفرط مخاطره .. ولعله يدفع كذلك إلى مجالات التأمل، وهذا يعرقل القدرة على الإنجاز. ويلاحظ في سلوك الألمان دليل على ذلك. إنهم شعب ذو قدرة كبيرة على التفكير والتعمق في الأحاسيس. غير أنه عندما يحين وقت الإنجاز تتدخل المفاهيم والأفكار والتأملات فتعرقل قرارات التنفيذ.

إن الحماس يساعد المرء على انتقاء هدفه، ولكن لا بد أن تنهض الشخصية (أو الأمة) ذات الحزم والإرادة والخلق المتين لتحقيق الهدف المنشود. إن الفكرة لا تجدي من غير حماس، والعمل لا يتحقق بدون إرادة قوية. وربما كان الحماس وحده يمثل شيئاً بالنسبة للأشخاص (أو الأمة) الذين لهم ميل أدبي؛ والإرادة هي كل شيء بالنسبة للأمم التي تركز على الإنجاز، أما الأمم الحرة فتحتاج إلى الحماس والإرادة الفاعلة معاً.

(1) فقرات من كتابها "De L'Allemagne".

الراحة، بعد أن يزيحوا الأواني من غرفة الطعام. أما أبي فيبدأ جولته المعتادة التي لا تنتهي إلا عندما يذهب لينا. وكان عندما يبتعد منا، وهو يمشي في القاعة الكبيرة، التي لا توجد فيها سوى شمعة واحدة، يختفي عن أعيننا ولا نسمع سوى وقع خطواته، ثم يظهر شبحة عندما يقترب منا تدريجياً، بعباءته البيضاء، ووجهه الشاحب، وعندما يقترب منا يسألنا «عن ماذا نتحدثان؟» فيستولى علينا الخوف، ولا نجيب. ويواصل أبي جولته في ظل ذلك الهدوء الرهيب، فكنا لا نسمع سوى خطواته المتوازنة، وتهددات أمي المريضة، وهزيز الرياح المتواصل».

وفي سنة 1786، التحق شاتوبريان بفيلق من الجيش في كامبراي (Cambrai)، وفي هذه السنة توفى أبوه. وفي عام 1788، انتقل إلى باريس، برفقة أخته لوسيل وجولي. وعندما اندلعت الثورة الفرنسية كان شاهد عيان لبعض حوادث جويلية/ يوليو/ سنة 1789، في باريس. وخطط لزيارة الولايات المتحدة، فقام برحلة إليها عام 1791، دامت نحو ستة أشهر. والتقى هناك ببعض الهنود، وكتب عن رحلته وصفاً غير مألوف.

وعندما علم بفرار الملك لويس السادس عشر، وبالقبض عليه في Varennes، قرر أن يعود إلى فرنسا. واثراً عودته تزوج بفتاة عمرها سبع عشرة سنة تدعى Celeste Buisson، ثم التحق بالجيش الملكي (جيش الأمير دي كوندي de Conde) في ألمانيا. وجرح أثناء حصار مدينة Thionville فأقام فترة لدى أحد أقاربه في مدينة Jersey. وفي شهر مايو/ ماي/، من عام 1793، هاجر إلى لندن حيث عاش حياة لاجئ، وعانى من الفقر وشظف العيش، وكان يكسب قوته بتقديم دروس في اللغة الفرنسية. وشرع في تأليف رسالته المعنونة «رسالة حول تاريخ الثورات القديمة والحديثة، وسياساتها، وأخلاقياتها، ومقارنتها بالثورة

الفرنسية». وفي سنة 1800، عاد إلى فرنسا، وبدأ يعمل في الصحافة، واستمر في البحث والتأليف.

وفي عام 1802، صدر كتابه المعنون «عبقرية المسيحية». وبما أن نابليون كان يحاول إحياء العقيدة الكاثوليكية، فقد اهتم بمؤلف هذا الكتاب، وأرسله إلى سفارة فرنسا في روما بصفة سكرتير أول؛ ثم عينه وزيراً مفوضاً في Valais (سوسرا). غير أن شاتوبريان استقال من منصبه عندما أمر نابليون بإعدام دوق Enghien بتهمة التآمر مع الملكيين. وبعد ذلك انضم شاتوبريان إلى صفوف المعارضة.

وفي سنة 1806، قام برحلة إلى الشرق زار خلالها إيطاليا، اليونان، تركيا ومصر. وجمع أثناء رحلته معلومات أفادته في تأليف كتابه «رحلة من باريس إلى القدس». بعد ذلك اعتزل فترة في La Vallée-Aux-Loups ليركز على البحث والتأليف. وفي عام 1811، انتخب شاتوبريان عضواً في الأكاديمية الفرنسية.

وعندما ارتقى لويس الثامن عشر عرش فرنسا، قلّد شاتوبريان مناصب هامة، كان من بينها أن عين سفيراً في السويد، ووزير الداخلية (فترة المائة يوم) في Gand، ووزيراً مفوضاً في برلين، ثم سفيراً في لندن، وممثلاً للملك في مؤتمر فيرون (Verone)، وتولى مهمة وزير للخارجية في أواخر عام 1822.

غير أن هذه المناصب المتتالية سببت له عداوات كثيرة، فكثرت حساده، وانتهى الأمر بأن فقد ما كان يتمتع به من حظوة، وأقيل من منصبه سنة 1824. انضم شاتوبريان إلى المعارضة، واستقر في باريس، إلى أن أرسله الملك شارل العاشر سفيراً في روما سنة 1828. ولكن

سرعان ما استقال من هذا المنصب لعدم موافقته على بعض سياسات الملك. ويلاحظ أن استقلال المؤلف في الرأي، وعزوفه عن تبني المواقف السياسية التي لا ترضى ضميره، جلب له سمعة طيبة. ومن ذلك أن الملك لويس فيليب دعاه ليكون أحد مستشاريه، فرفض مفضلاً أن يتمسك بحرية رأيه.

بعد ذلك قام شاتوبريان برحلات عديدة، منها رحلة إلى سويسرا حيث أقام ستة أشهر؛ ثم عاد إليها عام 1832. وقام برحلة إلى براغ وفنيسيا من أجل مساندة قضية الدوقة De Berry التي حاولت أن تثير المشاكل في وجه الملكية. ثم اعتزل ليركز على التأليف، وعلى استكمال الأعمال التي كان قد شرع فيها، مثل مذكراته الشهيرة.

وفي شهر فبراير/ فيفر/ من عام 1847 توفيت زوجته؛ ووافته المنية في باريس، في شهر يوليو / جويلية/ من عام 1848، ودفن في Grand-Bé بالقرب من سان - مالو، غير بعيد من ساحل المحيط.

ترك شاتوبريان بحوثاً ورسائل وكتباً تناول فيها موضوعات متنوعة. ومن مؤلفاته العديدة:

- رسالة حول تاريخ الثورات القديمة والحديثة، وسياساتها وأخلاقياتها، ومقارنتها بالثورة الفرنسية⁽¹⁾. صدر هذا الكتاب في لندن سنة 1797.

- « عبقرية المسيحية »، وفيه يعتمد المؤلف على تعاليم المسيحية التقليدية، وعلى دلائل عقلانية، وظواهر تاريخية ومشاعر إنسانية للدفاع عن العقيدة المسيحية. صدر سنة 1802.

- « رحلة إلى الولايات المتحدة »، يكشف المؤلف في هذا الكتاب ادعاءات المستعمرين الأوروبيين بأنهم جلبوا إلى هذه المنطقة من «العالم الجديد» الأمن والسلم والرخاء، ويصف الظروف السيئة التي يعيش فيها السكان الأصليون. صدر سنة 1827.

- « رحلة من باريس إلى القدس »، ويتحدث فيه عن بلدان زارها مثل إيطاليا، اليونان، تركيا، مصر، وغيرها، وعماً أوجت له هذه الرحلة من صور اجتماعية وتاريخية. صدر سنة 1811.

- « مذكرات من وراء القبر ». صدرت بعد وفاته. وقد بدأ نشرها في شكل مسلسل، في جريدة La Presse، يوم 21 أكتوبر 1848.

وفيما يلي بعض الاقتباسات من كتابين من مؤلفات شاتوبريان.

اقتباس من كتابه:

« رسالة حول تاريخ الثورات القديمة والحديثة وسياساتها، وأخلاقياتها، ومقارنتها بالثورة الفرنسية ».

« ولكن مهما كانت مشاغلنا، وسواء قضى المرء معظم حياته في ورشة عمل، أو في مكتب الفيلسوف، فإنه من العبث أن نزعم أننا أحرار في حياتنا السياسية، وأن صوتاً من داخل أنفسنا يلاحقنا وينادي بنا قائلاً: أجل الحرية، أجل الحرية الفردية.

ولكن لنستمع إلى صوت الضمير عندما يخاطبنا باسم الطبيعة ويقول: كونوا أحراراً. وعندما يخاطبنا باسم المجتمع ويقول: تمسكوا بالحكم، بالسلطة. أرجو ألا تحمروا وجوهكم خجلاً! إنني إنما أنزع بيب جريئة القناع الذي نحجب به أنفسنا عن أنفسنا.

إن الحرية السياسية حلم مفتعل، وشعور مصطنع لا يسكن

أحشاءنا: فلنرتق إلى مستوى الحقيقة، ولنتعلم كيف نحتقر المقالات الضيقة والحكم السطحية التي يلقيها الناس. قد يتهمنا بعض الناس بأننا نتبنى آراء ومبادئ خطيرة، لأننا أخرجناها من أعماق نفوسهم ... ولنضحك من صياح الجماهير وضحهم، راضين بأننا إذا لم نعد إلى حياة الوحشية، سنظل مرتبطين برجل. ولا يهم عندئذ أن يسيطر علينا البلاط أو حكومة المديرين أو المجالس الشعبية.

إن كل حكومة شر، وكل حكومة نير. ولكن لا نستنتج من هذا أنه ينبغي لنا أن نحطمها. وإذا كان مقدراً لنا أن نكون عبيداً فلنتحمل قيودنا من غير شكوى. ولعله من الأفضل أن نخضع لأحد مواطنينا، مستنيراً وغنياً، من أن نخضع لمجموعة من الجهال، يثقون كواهلنا بأصناف البلايا.

وأنتم، أيها المواطنون، يا من تحكمون هذا الوطن العزيز، فكروا وانظروا إذا كان يوجد في أوروبا كلها شعب جدير بالديمقراطية! فأعيدوا السعادة إلى فرنسا بإعادتها إلى الملكية. وإذا أصررتكم على التمسك بالأوهام، فلا تخدعوا أنفسكم، لأنكم لن تنجحوا بالآراء والسبل الاعتدالية. إذا أيها الجلادون الممقوتون، يا من ترهبون مواطنيكم، أعيدوا نظام اليعقوبيين⁽¹⁾، أخرجوا مقلاتكم الدامية من مخازنها، وأطيحوا بالرؤوس من حولكم، حاولوا أن تقيموا في فرنسا، وقد خلت من سكانها، جمهوريتكم المريعة، مثلما قال شكسبير: منتصبه على تمثال، وتبتسم للآلام».

كان هذا بعض ما كتبه شاتوبريان حول الثورة الفرنسية وفرسانها سنة 1797، وعمره لا يتجاوز 29 سنة. ومن المفيد أن نورد

(1) اليعقوبيون (Les Jacobins): المتحزون لديمقراطية متطورة أيام الثورة الفرنسية.

نبذة من تعليقه على ما ورد في «رسالته حول الثورات...» وقد كتب هذا التعليق في مذكراته الشهيرة، عام 1826، أي بعد أن تولى مناصب عديدة، واكتسب تجارب ونضج تفكيره. وإليك ما يقول المؤلف معلقاً على آرائه السابقة حول الثورة الفرنسية:

« لا شك أن ذلك الفصل أغرب ما ورد في كتاب؛ بل ربما كان أغرب ما خطته يد كاتب. إنه نوع من العربة السوداء تنبعث من قلب جريح، ومن نفس عليلة، وخيال يسجل الأشباح التي تلاحقه ... إنه نوع من الاشمئزاز من كل شيء، والملل من كل شيء.»

« فالمؤلف (يعني نفسه) يرتدي ثوب (الملكية) لأنه عجز عن أن يكون جمهورياً ... مؤلف لم يجد في الماضي ولا في الحاضر ما يرضيه، فاستنتج أن كل حكومة شر، مهما كان مصدرها، وأن الحرية السياسية لا توجد، وان كل شيء مرجعه الحرية الفردية، ومن ثم استخلص أن يعيش الناس حياة المتوحشين».

« لقد حاولت هنا أن أفند كل جملة من ذلك الفصل، ولكن سرعان ما سقط القلم من يدي. لم أستطع أن أجد نفسي وسط فوضى تلك الأفكار: أفكار جنونية، مشاعر متناقضة، استدلالات خاطئة ... مما جعل جميع ملاحظاتي صيحات ألم وإشفاق ...».

ولذلك قررت هنا (في مذكراته) أن أحاكم نفسي، وأن أضع الحبل حول عنقي. وبعد أن فعلت ذلك، ينبغي لي أن أقول، بحياد مماثل، أن ذلك المقال الجنوني الأخرق يتضمن إلهاماً، مهما كانت طبيعته، لا يوجد في أي فصل آخر من كتاباتي».

ومن أهم مؤلفات شاتوبريان كتابه: «مذكرات من وراء القبر»، الذي يقول عنه: إنني أود أن أحدث نفسي عن نفسي، أود، قبل أن أموت، أن أعود إلى السنوات الجميلة التي عشتها، وأن أشرح ما يصعب شرحه مما ينطوي عليه قلبي».

والواقع أن هذه المذكرات تتناول حياة شاتوبريان الرجل، الإنسان، وشاتوبريان الكاتب. وهي تغطي المراحل الأربعة الهامة من حياته. وقد اتبع في كتابتها أسلوباً وسطاً بين أسلوب المذكرات وأسلوب السيرة الذاتية. وقد عمل على تسجيلها خلال فترات طويلة ومراحل مختلفة من حياته، امتدت نحو أربعين سنة، وانتهى من تنقيحها عام 1847، أي نحو سنة قبل وفاته.

والمراحل الأربعة هي بإيجاز على النحو التالي:

- 1- مرحلة الطفولة والشباب والأسفار الأولى.
 - 2- المرحلة التي أُلّف أثناءها Atala، وعبقرية المسيحية، وتولى وظيفة كاتب في سفارة فرنسا في روما. ويتناول فيها الحديث عن رحلته إلى الشرق.
 - 3- المرحلة الثالثة تشمل تاريخ حياة نابليون، ويتحدث فيها عن المهام السياسية التي اضطلع بها.
 - 4- المرحلة الأخيرة تناول فيها أسفاره إلى سويسرا وبراغ، ووقوفه إلى جانب الدوقة Berry، ووصفه لمدينة فينسيا. ويختم هذه المرحلة بتحليل حول فرنسا ومستقبل العالم.
- وإلى القارئ الكريم اقتباس متواضع من "مذكرات ما وراء القبر" لشاتوبريان.

« ... لقد مرت ثلاث سنوات وستة أشهر منذ آخر تاريخ سجل في هذه المذكرات، وهو يناير/ جانفي 1814، في Vallée-aux-loups (وادي الذئاب)، ونحن اليوم في

يوليو/ جويلية 1817. فهل هزّ مسامعكم سقوط الإمبراطورية؟ لا، لم يزعج شيء هدوء هذا المكان. ومع ذلك تهدم صرح الإمبراطورية، وانهارت الأنقاض الضخمة، أثناء حياتي، فأصبحت مثل خرائب الأطلال الرومانية الملقاة في واد مهمل ...

كُتبت الجزء السابق في عهد طغيان نابليون، وعلى ضوء ومضات مجده الأخيرة. وها أنا أشرع في كتابة هذا الجزء في ظل الملك لويس الثامن عشر. لقد شاهدت الملوك عن كثب، وتبخرت أوهامي السياسية، مثل هذه الأوهام اللذيذة التي استمر في تسجيلها.

وأود قبل كل شيء أن أذكر ما يجعلني أعود إلى كتابة هذه المذكرات. إن قلب الإنسان لعبة في قبضة الحوادث، وليس بوسعنا أن نتنبأ بالظروف الطائشة التي تسببت في مسرته وآلامه. وقد قال الأديب مونتاني (Montaigne): ليس من الضروري البحث عن سبب خاص يهز أنفسنا، بل يكفي حلم ليس له جسد ولا موضوع محدد ليحركها ويتحكم في ظروفها. أيقظني من تأملاتي طائر يزقزق على قمة شجرة. إن هذا التفريد السحري يعيد إلى ذاكرتي مشاهد عقارات الآباء. ها أنذا نسيت الكوارث التي شاهدتها، وعادت بي الذاكرة إلى الماضي، أعيش من جديد في تلك الأماكن التي طالما سمعت فيها تغريد الطيور.

إنني عندما كنت أنصت إليها عندئذٍ، كنت أشعر بشيء من الحزن، كما أشعر به الآن. إلا أن الحزن القديم كان ينبع من شعور غامض بالسعادة عندما يكون القلب خالياً من التجارب. أما الحزن الذي يفغرني الآن فينبع من كوني مررت بتجارب كثيرة، وعرفت أشياء جديدة بالتقدير، وأبدت رأي فيها.

بروسبير ميريمي

Prosper Mérimée



ولد بروسبير ميريمي سنة 1803 في باريس. وكان أبوه رساما، ومعلما لهذه المادة. درس بروسبير في ثانوية نابليون، ثم دخل كلية الحقوق، وكان مجتهداً في دراسته. وبدأ يتردد على الصالونات، وتعرف على شخصيات أدبية مثل فيكتور هوغو وMusset، وغيرهما؛ واهتم بتعلم اللغات وخاصة اللغة الإنكليزية.

قام برحلة إلى انكلترا (1825 - 1826)؛ ورحلة أخرى إلى أسبانيا (1830). وفي مدريد تعرف على أسرة الكونت Montijo الذي أصبحت ابنته أوجيني إمبراطورة فرنسا سنة 1853، وعندئذ أصبح لبروسبير حظوة مرموقة في بلاط الإمبراطور لويس نابليون الثالث.

وفي عام 1831، تعرف بروسبير على فتاة تدعى جيني، ودامت مراسلاته معها فترة طويلة. ونشرت هذه الرسائل بعد وفاته تحت عنوانه «رسائل إلى فتاة مجهولة».

شغل الكاتب وظائف مختلفة في وزارة البحرية، ووزارة التجارة، والداخلية، ثم عين مفتشاً عاماً للآثار التاريخية سنة 1834. وفي إطار وظيفته الأخيرة، قام برحلات عديدة داخل فرنسا، وإلى اليونان وأسبانيا وتركيا، ودون مذكرات عن رحلاته.

كانت تغاريد الطيور في حقول قصر كامبور⁽¹⁾ تشعري بسعادة يبدو لي بإمكانني بلوغها. أما تغاريد الطيور اليوم، في حقول Montboissier، فتذكرني بالأيام التي ضيعتها في ملاحقة هذه السعادة التي يصعب تحقيقها.

لم تبقى لي أشياء أتعلمها. لقد مشيت بخطى أسرع من الآخرين، وأنجزتُ جولة حول الحياة. أشعر بالساعات تفر وتجرني معها. أصبحت غير متأكد حتى من أنني سأتمكن من إنهاء هذه المذكرات.

لقد كتبت أجزاء منها في أماكن عديدة، وأتساءل الآن في أي مكان سأنتهي ما بقي منها

لقد بدأ البحار يفادر هذه الشواطئ المسحورة، وهو يسجل على استعجال مشاهد شبابه، في حين تبتعد عنه الأرض تدريجياً، وستختفي عن نظره».

(1) القصر الذي قضى فيه شاتوريان فترات من طفولته وشبابه.

انتخب بروسبير عضواً في الأكاديمية الفرنسية عام 1844؛ ولمع نجمه عندما تولى الحكم لويس نابليون، فأصبح من رجال البلاط، وعين عضواً في مجلس الشيوخ سنة 1853. غير أن هذه الحظوة الكبيرة لم تحميه من الدخول إلى السجن لمدة خمسة عشر يوماً، لأنه قام بالدفاع عن موظف متهم بالابتزاز، حدث ذلك سنة 1852. وفضل الكاتب أن يوجه اهتمامه للبحث والكتابة.

وبدأت ظروفه الصحية تتدهور في مطلع الستينيات، فأصبح يعاني من داء التهاب الشعب الهوائية، ومن الربو. وفي نهاية المطاف عندما هزمت فرنسا في الحرب ضد بروسيا، وتأسست الجمهورية الفرنسية الثالثة، انتقل الكاتب إلى مدينة Cannes (في جنوب فرنسا) واستقر فيها إلى أن وافته المنية في شهر سبتمبر (أيلول) من عام 1870.

ألف بروسبير ميريمي كتباً عديدة، وكتب في المسرح، والتاريخ، وعلم الآثار؛ واشتهر خاصة في القصة القصيرة. ومن مؤلفاته:

– Mateo Falcone، قصة قصيرة، عام 1829.

– Tamango، قصة قصيرة، 1829.

– أخبار عن بلاط شارل التاسع، قصة، 1829.

– Le Vase Etrusque، قصة، 1830.

– Columba، رواية، 1840.

– Carmen، رواية، 1845.

وفيما يلي ملخص لثلاث من قصصه القصيرة.

ماتيو فالكوني⁽¹⁾

تدور حوادث هذه القصة في مقاطعة بورتوفيكو، في جزيرة كورسيكا. وهي منطقة تصلح مروجها وجبالها للرعي، ويختفي فيها من تطاردهم العدالة. وكان ماتيو فالكوني يسكن قرب هذه المنطقة. كان هذا الرجل قصير القامة، قوي البنية، يتقن الرمي بالبندقية، ويقال عنه إنه صديق وفي، وخصم خطير. أنجب فالكوني ثلاث بنات تزوجن في سن مبكرة، وولدا يدعى فورتوناتو، يعتبر وريث اسم العائلة ورمز آمالها.

في يوم من أيام الخريف، خرج فالكوني وزوجه لتفقد قطعان ماشيتهم، وتركوا الطفل ليحرس المنزل، كان عمره عشر سنوات. كان مستلقياً في دفاء الشمس عندما سمع طلقات بندقية. ثم شاهد رجلاً جريحاً يتقدم نحوه بصعوبة. كان هذا الرجل من قطاع الطريق، وقع في كمين نصبه رجال الأمن.

عرف اللص أنه أمام منزل فالكوني، فطلب من الطفل أن يخفيه. رفض الطفل في أول الأمر خشية غضب أبيه، غير أن اللص الجريح قدم له قطعة خمسة فرنكات، فأخفاه في كومة من التبن، وضع فوقها قطة وصغارها.

(1) العنوان: Matéo Falcone.

المؤلف: Prosper Merimee

وسرعان ما وصل الجند، فسأل قائدهم الطفل ما إذا شاهد رجلاً جريحاً، فلم يجب؛ وطلب القائد من الجند أن يفتشوا المنزل. قال الطفل إن أباه سيغضب إذا علم بأنهم فتشوا المنزل. تقدم جندي من كومة التبن وفحصها بحربته، ثم تراجع. اقترب القائد من الطفل.. وأخرج ساعة فضية من جيبه، ووضعها أمام عيني الطفل. مدّ الفتى يداً ليأخذ الساعة، وأشار باليد الأخرى إلى كومة التبن. أخرج الجند الرجل من كومة التبن، ورمى له الطفل قطعة النقود التي أغراه بها.

في هذه اللحظة وصل فالكوني وزوجه، فتقدم قائد الجند نحوه وشرح له ما يجري، قائلاً: يرجع الفضل إلى ولدك، يا سيدي، فلولا مساعدته لما أمسكنا هذا اللص المسلح. بزق اللص على عتبة منزل فالكوني وقال: تبا لمنزل الخونة. فاشتد غضب فالكوني، صاحب المنزل، وكاد يجهز على اللص، غير أنه كتم غيظه.

تقدم الأب نحو ولده، وشاهد في يده الساعة فحطمها. والتفت إلى زوجه قائلاً: إن هذا الطفل هو أول من يخون شرف العائلة منذ عهود طويلة. ثم رفع بندقيته، واصطحب طفله إلى الغابة، والأم تبكي وتسترحم زوجها.. وبعد فترة سمعت طلقة البندقية، فركضت نحو المكان وصيحاتها تهز الأغصان، وتصعد نحو السماء. لقد فعل فالكوني ما تقتضيه تقاليد الأسرة لتطهير شرفها من عار الخيانة.

الوعاء الأثروزي⁽¹⁾

كان سان كلير يوصف بأنه شخصٌ منعزل، لا مبالى، غير محبب، لا يتحدث عن أسراره وشؤونه الخاصة. وكانت حياته بسيطة. وتعلق قلبه بأرملة جميلة تدعى ماتيلد. كان يزورها في منزلها، وبعد كل زيارة يشعر بأنه وجد الصديقة والعشيقة التي كان يبحث عنها.

ذهب ذات يوم لزيارة أصدقائه، وأثناء اللقاء اقترح أحدهم، ألفونسو، أن يشرب كل من الحاضرين نخبه لصحة عشيقته. وكان يهدف من اقتراحه إلى كشف عشيقة سان كلير، ماتيلد. شرب كل واحد نخبه، وعندما جاء دور سان كلير ذكر اسماً غير اسم عشيقته.

واستمر الحديث عن الأصدقاء والعشاق، وأشار بعضهم إلى أن السيدة ماتيلد كانت عشيقة رجل يدعى ماسيني⁽²⁾ بعد وفاة زوجها. أزعج هذا الكلام سان كلير، ولكنه تماسك عن الجواب خشية أن يمسي الكلام بكرامة عشيقته. غير أنه تذكر أنه شاهد في منزلها وعاءً جميلاً أهداه إليها رجل يدعى ماسيني.

انقبضت نفسه؛ وبعد تردد طويل، ذهب إلى منزل عشيقته، عانقها بحرارة، فشعر أنه أمام امرأة تحبه، وقف أمام المدفأة، وراح ينقر الوعاء الجميل بمفتاح في يده، فأخذت عشيقته منه المفتاح قائلة

(1) العنوان: Le Vase étrusque

المؤلف: Prosper Mérimée

(2) كان ماسيني قد توفي بعد وفاة زوجها.

إنه وعاء ثمين وعزيز عليها. كان الانزعاج بادياً على ملامحه، وسألها عن الشخص الذي رسم صورة لها، كانت أهدتها له، فأجابت بأنه ماسيني.

خرج سان كليير وهو يفكر في علاقة عشيقته الماضية بالشخص المدعو ماسيني، وراح يتجول في الخلاء على فرسه، وموجة من الهواجس تتضارب في نفسه. وشاهد صديقه ألفونسو فتجنب لقاءه، غير أن هذا الأخير لحق به، فواجهه سان كليير بعبارات جارحة. فتوعده ألفونسو، وطلب منه أن يلقاه في الغد ليعتذر له أمام جمع من الناس، وإلا فهي المبارزة.

ذهب سان كليير إلى منزله فتناول عشاءه، وعندما هدأت مشاعره، عاد إلى منزل عشيقته؛ وقصت عليه قصة لقاءها مع ماسيني، فاقتنع ببراءتها، واعتذر لها. وقامت ماتيلد إلى ذلك الوعاء الثمين، مصدر الشك، فحطمته؛ وساد الوئام، وقضى العشيقان ساعات ممتعة.

وفي الغد، التقى سان كليير بخصمه الفونسو لإنجاز عملية الاعتذار، أو المبارزة. وطلب سان كليير من ألفونسو أن يطلق الرصاص الأولى، ففعل؛ وسقط سان كليير ميتاً. أما ماتيلد فحزنت واعتزلت في منزلها الريفي طيلة ثلاث سنوات، ثم أصيبت بمرض عضال، فوافتها المنية بعد فترة قصيرة.

تامانغو⁽¹⁾

كان القبطان لودو (Le Doux) يعمل في البحرية الفرنسية، وفقد يده اليسرى في إحدى المعارك. بعد ذلك عمل في القرصنة، واشترى باخرة واستخدم معه ستين بحاراً. وخرج بباخرته ذات يوم من فرنسا متجهاً نحو شواطئ إفريقيا الغربية. وصل إلى إحدى القرى عرف أن فيها رجلاً يدعى تامانغو اشتهر بالتعامل مع تجار الرقيق. أمر القبطان رجاله بإنزال صناديق النبيذ والمسكرات، واتجه نحو كوخ تامانغو فوجده بين رجاله، وأغراه بما حمل من البضائع والخمور.

بدأ القبطان يفحص السكان الذين أعدهم تامانغو للبيع، وانتقى منهم ستين رجلاً، ودفع مقابلهم عدداً من البنادق، والبارود، والقطن، وأكياساً من المسكرات. واستمر تامانغو في الشرب، واشتد القبطان في المساومة على ما بقى من السكان؛ وكان قد جلب معه مترجماً. وبالغ تامانغو في الشرب فراح يبادل الرجال والأطفال بزجاجات من المسكرات. وعاد القبطان بغنائمه إلى الباخرة، بينما بقى تامانغو ملقى على الحشيش.

واستيقظ تامانغو، ونادى زوجه فلم يجدها، وما كان أشد دهشته عندما أخبر أنه أهداها إلى القبطان، وهو سكران. أسرع في مركب صغير فلحق بالباخرة، وطلب من القبطان أن يعيد إليه زوجه، ويتنازل له مقابل ذلك على نصف ما أخذ من البضائع. ولكن هجم

(1) العنوان: Tamango

المؤلف: Prosper Mérimée

عليه القبطان وبعض رجاله، فقيده وأنزلوه إلى قعر الباخرة، إلى جانب من باعهم.

كانت ظروف الاعتقال والغذاء سيئة فتوفى عدد من الأفارقة. لذلك رأى القبطان أن يسمح لهم بقضاء فترة على سطح الباخرة، فوجا بعد فوج. وعندما جاء دور تامانغو، سارعت زوجته نحوه .. فطلب منها أن تحضر له مبرداً في اللقاء القادم. وقدمت له قطعة كعك مشيرة إلى أن المبرد بداخلها. وأبلغ تامانغو رفاقه بأن ساعة الخلاص قريبة، وأوصاهم أن يكسروا قيودهم بطريقة لا تثير الشكوك.

وأثناء وجوده مع فوج من رفاقه على سطح الباخرة، رقصوا رقصة المعركة التقليدية، ثم استلقى كل واحد منهم أمام أحد البحارة (حسب المخطط). وفجأة فك كل منهم قيده، وألقى البحار الذي أمامه على الأرض. واستولى أحدهم على المفاتيح وأسرع إلى قاع الباخرة فحرر المقيدين، واشتد القتال، وارتفع الصراخ، فصعد القبطان من غرفته، وهجم على تامانغو، فألقاه هذا الأخير على الأرض، وعضه في عنقه عضه قضت على حياته. وكانت الغلبة للمستضعفين؛ ولكن تجرى الرياح بما لا تشتهي السفن.

حاول تامانغو أن يقود الباخرة في اتجاه العودة إلى الشاطئ الإفريقي، ولكنه لم يكن يعرف شيئاً عن البواخر، فأدار المقود بحركة عنيفة، فكدت الباخرة تنقلب، وانكسرت الساريتان، ولحقت بالباخرة أضرار جسيمة، وسقط عدد من الرجال في البحر؛ فأحاط الباقون بتامانغو يلعنونه لأنه كان سبب شقائهم.

ومرت أيام وهم لا يعرفون اتجاه باخرتهم ويجهلون مصيرهم. وانهمكوا في شرب المسكرات، وتوفي بعضهم بسبب جروحهم التي بقيت بدون علاج. وخرج تامانغو عن سكوته، وأشار إلى المراكب الصغيرة التي تحملها الباخرة للنجاة ساعة الخطر، وكان اثنان منها فقط صالحين للاستخدام. فركب عدد من الرجال في كل مركب، وبقي على متن الباخرة عدد منهم. وجاءت موجة قلبت أحد المركبين، وعاد المركب الآخر، وفيه تامانغو وزوجه، إلى الباخرة.

ومرت أيام، وساءت ظروف الحياة على الباخرة، وتوفى ركاب الباخرة واحداً تلو الآخر، فلم يبق إلا تامانغو وزوجه، وقد اشتد بها المرض. وذات يوم اقتربت باخرة إنكليزية، وأرسلت من يتفقد الباخرة المنكوبة، فوجدوا تامانغو على قيد الحياة مريضاً هزيلاً، وكانت زوجته قد فارقت الحياة. وقدم طبيب الباخرة الإنكليزية لتامانغو ما يستحق من علاج.

وعندما وصلت هذه الباخرة إلى ميناء كينغستون، كان تامانغو قد استعاد صحته، فقص عليهم قصته. وحاول مزارعو الجزيرة أن يقتلوه، غير أن حاكم البلاد اهتم به، وقال إنما قتل تامانغو رجلاً من الفرنسيين، وكان دفاعاً عن النفس. وعمل تامانغو في البداية في خدمة الحاكم، ثم وجه إلى فرقة موسيقية ليعمل ضارباً على الصنج. تعلم اللغة الإنكليزية، غير أنه كان قليل الكلام. وكان يفرط في تناول المسكرات. وكانت وفاته بسبب التهاب الرئتين.

جورج برنارد شو

George Bernard Shaw

يعتبر شو الشخصية الأدبية البارزة في بريطانيا خلال القرن العشرين. كان اشتراكياً في مبادئه. تناول الموضوعات الاجتماعية والسياسية، وكتب في النقد الأدبي، وفي الفن، والدين، والمسرح، وألف نحو خمسين مسرحية. حاز على جائزة نوبل سنة 1925. كان يدعو إلى مراقبة صناعات القطاع الخاص، وتوجيهها إلى خدمة المصالح العامة؛ وإلى مناصرة حقوق المرأة؛ ومن دعاة الاكتفاء بالعيش على الخضر والحبوب Vegetarian؛ وضد تشريح الحيوانات الحية لإجراء التجارب عليها.

ولد شو في مدينة دوبلين، إيرلندا، في شهر يوليو (جويلية) من عام 1856. كان أبوه يشغل وظيفة بسيطة، ثم تحول إلى تجارة الحبوب دون نجاح كبير. وكان مدمناً على الكحول. أما أمّه فكانت ذات موهبة موسيقية، وعلمت ابنها منذ صغره الفن الموسيقي. تعلم الفتى في مدرسة بروتستانتية، وأخرى كاثوليكية. وبدأ يعمل في مكتب عقاري وهو لم يتجاوز السادسة عشر من العمر. وعمل كذلك في شركة للهاتف. وظل يعاني الحرمان فترة من شبابه.

انتقل شو من دوبلين إلى لندن وعمره عشرون سنة. وكانت أمه تساعد بما تحصل عليه من دروس الموسيقى. وكان في المراحل الأولى

من هذه الفترة من شبابه يقضي جزءاً من وقته في المطالعة ويشارك في المحاضرات لتوسيع مجال ثقافته. وألف عدداً من القصص الطويلة لم تحقق له النجاح المأمول. وأعجب شو بالاشتراكية فانضم إلى الجمعية الفابية⁽¹⁾. وفي عام 1885 بدأ يكتب مقالات في النقد حول موضوعات المسرح والموسيقى والفن بصفة عامة.

تحول شو إلى تأليف المسرحيات فوجد فيها الوسيلة المناسبة لنشر أفكاره الهادفة إلى دعم مبادئ الاشتراكية وإصلاح المجتمع. وكان الأديب يكتب لمسرحياته مقدمات مطولة تعتبر من أروع المقالات النقدية، يناقش فيها الموضوعات السياسية والاجتماعية والأدبية والفنية والدينية، وما إن حال عام 1903 حتى بدأت مسرحياته تلقى نجاحاً في بريطانيا وخارجها. وعندما حصل على بعض المال من مسرحيته⁽²⁾ "تابع الشيطان" في الولايات المتحدة استطاع أن يستغني عن كتابة مقالات النقد لكسب معيشته.

وفي سنة 1898 تزوج شو شارلوت، وهي سيدة إيرلندية غنية ومن أعضاء جمعية الفابية المذكورة. ودخل ميدان الإنتاج المسرحي بحماس، وقد تجاوز إنتاجه خمسين مسرحية. وتوفي هذا الأديب الشهير في شهر نوفمبر (تشرين الثاني) من عام 1950.

(1) جمعية إنكليزية أنشئت سنة 1884 تهدف إلى نشر مبادئ الاشتراكية بالوسائل السلمية.

مسرحية (رجل الأقدار) لبرنارد شو

من المعروف عن برنارد شو أنه كان ناقدًا حذقًا، يلجأ في نقده لبعض عادات الإنكليز وأساليب تفكيرهم إلى أسلوب الفكاهة والظرف والدعابة، وإلى السخرية، وإلى العبارات المتناقضة ظاهريًا، وهي صحيحة في مضمونها. وفي هذه المسرحية يصف لنا الكاتب شخصية نابليون كما يتصورها؛ قائد حذق، خبير بطبيعة الناس، طموح، متوحش... ولكن يجعل منه بطل مسرحيته بدون منازع.

والواقع أنه حتى في مسرحية شو، وكان نابليون قد توفي قبل نحو خمسة وسبعين عامًا، كان الإنكليز ينظرون إلى الإمبراطور الفرنسي على أنه مثال للعنف وحكم الفرد الطاغى.

وفيما يلي مقتطفات من المسرحية.

يقول الكاتب في المقدمة (على لسان الفرنسيين):

«... بالمناسبة، على الناس أن يعرفوا أن الجيش الفرنسي لا يدخل إيطاليا لمحاربة الإيطاليين، بل لينقذهم من استبداد المحتلين النمسيين، ولينشئ لهم مؤسسات جمهورية. وإذا حصل أن نهب الفرنسيون ممتلكات أصدقائهم الإيطاليين صدفة، فالفرنسيون بعملهم هذا إنما يتصرفون في ممتلكات أصدقائهم الإيطاليين الذين ينبغي أن يشكروهم على تصرفهم هذا. ولكن الإيطاليين جبلوا على نكران الجميل.

«النمساويون جيش منظم وجدير بالاحترام، يقودهم ضباط مدربون، لهم تجارب في ممارسة الحروب. يرأس جيشهم Beaulieu بوليو. إنه يمارس أسلوب الحرب الكلاسيكي، وينفذ جميع أوامر فيينا. ونابليون يتحدى الفنون الحربية المعهودة التقليدية، بل يتصرف في المعركة على مسؤوليته، لا حسب أوامر باريس، ومع ذلك يهزم القائد النمساوي شر هزيمة.

«وحتى عندما ينتصر الجيش النمساوي في معركة، فكل ما يفعله الفرنسيون هو أن ينتظروا حتى يرجع الجيش النمساوي إلى مراكزه ليتناول الشاي في موعده المعتاد، بعد الظهر، ويهجم الجيش الفرنسي فيسلبهم نصرهم، وهذا ما حدث مؤخرًا في Marengo. وبصفة عامة، وجد نابليون أنه بإمكانه أن ينتصر دون حاجة إلى خلق معجزات بطولية، لأن عدوه يواجهه عراقيل على مستوى أسلوب الحكم في فيينا، وأسلوب القيادة الكلاسيكية، ومتطلبات النظام الاجتماعي الأرستقراطي النمساوي.

«ولكن العالم يحب الأبطال والمعجزات، ولم يعد يقنع بالإنجازات العسكرية الأكاديمية، ولهذا فهو في حاجة إلى وجود (الإمبراطور)⁽¹⁾.

★ مقتطفات من مسرحية «رجل الأقدار» (لبرنارد شو)
(نابليون يخاطب السيدة الغريبة)

— نابليون: سأحدثك عن الشعب الإنكليزي.

(1) يعني نابليون.

- السيدة الغريبة: افعلي!

- نابليون: يوجد ثلاثة أنواع من الناس: الطبقة السفلى؛ والطبقة الوسطى؛ والطبقة العليا. الطبقتان السفلى والعليا متشابهتان في شيء واحد: انعدام الأخلاق والضمير. فالطبقة السفلى دون المستوى الأخلاقي، والطبقة العليا فوق المستوى الأخلاقي. وأنا لا أخشى أيًا من الطبقتين. الطبقة السفلى يسودها الجهل، فهم يجعلون مني معبودهم. والطبقة العليا ليس لها هدف محدد، لذلك يحنون لإرادتي. وسأنتصر على الرعاع والملوك في أوروبا مثلما يمرّ المحراث فوق الحقول. أما الطبقة الخطيرة فهي الطبقة الوسطى: فهم يملكون الهدف والمعرفة معاً. ولكن لهذه الطبقة نقطة ضعف وهي أنهم مثقلون بوساوس الضمير، أيديهم وأرجلهم مقيدة بمبادئ الأخلاق.

- السيدة: إذا ستهزم الإنكليز؛ لأن جميع أصحاب المتاجر ينتمون للطبقة الوسطى.

- نابليون: لا، ليس كذلك. بل لأن الشعب الإنكليزي له خصائص متميزة. فالرجل الإنكليزي لا ينزل لدرجة الخوف من توبيخ الضمير؛ ولا يهتم كثيراً بالتخلص من استبداد الضمير. وكل إنكليزي يولد مجهزاً بقوة خارقة تؤهله ليسود العالم. وهو عندما يريد شيئاً لا يحدث نفسه أبداً بأنه يريد. ولكنه ينتظر ويصبر إلى أن تستحوذ عليه

قناعة حماسية حاسمة، ولا أحد يدري كيف يتم ذلك، بأنه من واجبه الأخلاقي والديني أن يغزو أولئك الذين يملكون الشيء الذي يرغب فيه. عندئذ تستحيل مقاومته. وهو في هذه الحال يصبح مثل الأرسقراطي الذي يفعل ما يحلوه ويستولي على ما يشتهي من غيره.

عندئذ يعلن نفسه بطل الحرية ونصير الاستقلال الوطني، ويتأهل لاحتلال نصف العالم. وعندما يحتاج الإنكليزي إلى أسواق لبيع فيها سلعه المغشوشة، يرسل المبشرين ليعلموا السكان المحليين تعاليم الإنجيل الداعية إلى السلام. وعندما يقتل السكان المحليون مبشراً يسارع الإنكليز للدفاع عن المسيحية، ويقتلون السكان المحليين، ويحتلون بلادهم باسم المسيحية، ويستولون على أسواق البلاد مبتهجين لأنهم يعتبرونها مكافأة لهم من السماء على ما فعلوا.

وللإنكليز طريقة فردية في الدفاع عن جزييرتهم. إنهم يضعون قسيساً على ظهر سفينة، ويلقون علماً عليه رسم الصليب على سارية السفينة، ثم يبحرون بها إلى أرجاء المعمورة فيحرقون ويدمرون ويقتلون من يعارض وجودهم، إنهم مواطنو إمبراطورية البحار.

ويردد الإنكليز بافتخار بأن العبد يصبح حراً ساعة نزوله على التراب الإنكليزي، ولكن يبيعون أطفاله ليعملوا تحت ضغط في مصانعهم ست عشرة ساعة في اليوم. إنه لا يوجد شيء جيد أو سيئ لا يفعله الإنكليزي. ولكنه دوماً على صواب فيما يفعل. فهو يفعل كل شيء على أساس المبدأ: يحاربك على أساس مبدأ الوطنية؛ ويسرقك على أساس مبدأ حرية الأعمال؛ ويسترقك على أساس مبادئ

فكرة موجزة عن مسرحية برنارد شو الشهيرة:

الرجل، والرجل الخارق

Man and Superman

جرت العادة على أن الرجل هو الذي يبحث عن المرأة، يلاحقها، يركض وراءها، ويقوم بدور ((دون جوان)). غير أن شو عكس الوضع في هذه المسرحية، فجعل من الرجل ضحية للمرأة، فهي التي تلاحقه وتهاجمه. والمسرحية تتحدث عن العلاقة بين الجنسين، وتتضمن ملاحظات دقيقة عن الرجل والمرأة.

((الفتاة آن (Ann)، امرأة جميلة معجبة بالشاب تانر (Tanner)، غير أنه يكره الزواج. ولكن آن مصممة على تغيير رأيه في هذا الموضوع. ويشجعها تانر على الارتباط برجل آخر لكي تتوقف عن ملاحقته)).

((يسافر تانر في رحلة إلى أوروبا في سيارته، هروباً من آن. وعندما يكتشف أنها لحقته في سيارتها، يتجه نحو أسبانيا. وتتوالى حوادث المسرحية. وذات ليلة يرى حلمًا، وعندما يستيقظ يجد أن الفتاة قد عثرت عليه. يواصلان سفرهما في أسبانيا، والفتاة تلح على الارتباط به. وفي نهاية المطاف يستسلم تانر، ويقع في ((فخ)) الزواج، بين أحضان المرأة التي تمثل الطبيعة، وقوة الحياة الدافعة التي لا مفر منها، لمواصلة الحياة واكتشاف الحقيقة)).

الإمبراطورية؛ ويهددك على أساس مبدأ الرجولة؛ ويؤيد ملكه على أساس مبادئ الوفاء؛ ويقطع رأسك على أساس مبادئ الجمهورية. وفي كل هذا، شعاره على الدوام هو: أداء الواجب⁽¹⁾.

(1) وهذا منطلق ((الإمبراطورية)) الأمريكية اليوم.

فكرة موجزة عن مسرحية برنارد شو الشهيرة:

بغماليون

Pygmalion

يحاول الكاتب في هذه المسرحية أن يبرهن على أنه من الممكن أن تتحول فتاة فقيرة، بائعة الزهور، إلى دوقة من الطبقة الأرستقراطية، خلال بضعة شهور، إذا توفر لها التدريب الملائم والرعاية الكافية في الظروف المناسبة.

ويرى شو أن البيئة الاجتماعية والظروف المادية هي التي تخلق الفوارق بين الطبقات⁽¹⁾ و⁽²⁾ "العليا" و⁽³⁾ "الدنيا".

⁽¹⁾ أستاذ في صوتيات اللغة الإنكليزية يستمع عن طريق الصدفة إلى فتاة تدعى ليزا تتحدث اللغة بلهجة سيئة، فيقول لصديقه إنه يستطيع أن يدرب هذه الفتاة الفقيرة، بائعة الزهور في الشارع، على الكلام السليم، وأن يهذب سلوكها خلال ثلاثة أشهر، بحيث يصبح بوسعه أن يقدمها بعد ذلك إلى أي مجتمع إنكليزي على أنها إحدى دوقات الطبقة الأرستقراطية.

⁽²⁾ سمعت الفتاة، بائعة الزهور، حديث الرجلين، فأعربت عن رغبتها في الخضوع لهذه التجربة؛ ووعد صديق الأستاذ باستعداده لتحمل نفقات هذه التجربة. وتسلم الأستاذ الفتاة ليزا لتكون تحت رعايته، وأخضعها لتدريبات يومية قاسية.

⁽¹⁾ بعد مرور شهرين سحب الأستاذ ليزا إلى منزل أمه حيث يوجد بعض الضيوف. وأثناء هذه الزيارة تظهر الفتاة سلوكاً جيداً يليق ببنات الطبقة الأرستقراطية. وأعجب بها شاب يدعى فريدي.

⁽²⁾ يصطحب الأستاذ الفتاة ليزا إلى حفلة كبيرة، فتتصرف كذلك بلباقة وأناقة، وتتحدث بأسلوب الطبقة المثقفة. عندئذٍ يعترف الصديق (الذي تعهد بتمويل التجربة) بنجاح الأستاذ في تحسين سلوك بائعة الزهور، ويدفع المبلغ المتفق عليه. وعندما شاهدت الفتاة ذلك ثارت ثأرتها، ورمت الأستاذ بخُفها، لأنها اعتبرت أن اهتمام الرجلين بأمرها لم يكن لشخصها كإنسانة، وإنما عاملاها كمجرد موضوع لتجربة علمية عادية.

وفي النهاية تتزوج ليزا الفتى فريدي، وينشئ الزوجان محلاً لبيع الزهور.

مسرحية: عودة إلى مَتْيُو شالِح⁽¹⁾

Back to Methselah

هي في الواقع مجموعة مسرحيات يتناول شو فيها تطور الإنسان منذ عهد آدم وحواء، ويستمر إلى سنة 920. 31 بعد الميلاد. وهو يركز على التطور الخلاق؛ وينتقد نظرية دارون القائلة بالانتقاء الطبيعي،

(1) لبرنارد شو.

محاكمتها وتسليمها للإنكليز الذين أحرقوها. وفي الخاتمة⁽¹⁾ يعيد الكاتب جان دارك إلى الحياة⁽¹⁾ سنة 1920 لتضمها الكنيسة إلى قائمة القديسات.

لأنها، في نظر شو، تجعل عمليات التطور مجرد قفزات تحدث بالصدفة، وتلغي دور الخيال والفكر.

وينتقد الكاتب الحضارة الحديثة لكونها تزيد من مشاكل الإنسان. ويقول ما مفاده أن القوة التي خلقت الإنسان، عندما عجز القرد عن التطور إلى مستوى التحدي، قادرة على أن تخلق مخلوقاً آخر أكثر تطوراً من الإنسان، إذا عجز عن التطور إلى المستوى المطلوب. ولهذا على الإنسان أن يعمل بالتعاون مع "قوة الحياة" من أجل بلورة الإنسان القوي الذي يحقق مدينة الله في الأرض. ويشير شو إلى فكرة خيالية، عندما يقول بأن الإنسان، في نهاية المطاف سيزداد نشاطه الفكري، وينكمش نشاطه العضلي، ويخرج (يولد) من بيضة.

* * * *

مسرحية: جان دارك⁽¹⁾

Saint Joan

تدور حوادث المسرحية حول قصة البطلة جان دارك الشهيرة التي جرت حوادثها في القرن الخامس عشر في فرنسا، عندما ظهرت هذه الفتاة الفلاحة وطلبت من قائد التكنة Robert de Brandricourt أن يزودها بفرقة من الجيش لطرد الإنكليز من مدينة أورليان ... وما تلا ذلك من انتصارات، واتهامها بأنها ساحرة ومهرطقة، ثم

(1) لبرنارد شو.

جوزيف كونراد

Joseph Conrad



ولد كونراد في أوكرانيا جنوب بولونيا سنة 1857 من أسرة شهيرة، اتهم أبوه بالتآمر مع المتمردين البولنديين ضد الروس، فصدر أمر بنفي الأسرة إلى شمال روسيا في منطقة شديدة البرودة. وكان كونراد لا يزال صغيراً، وكانت أمه تعاني من داء السل، فساءت ظروفها الصحية وتوفيت في المنفى⁽¹⁾، وعندما انتهت فترة المنفى رجع الأب مع ابنه إلى كراكو سنة 1869، ودخل الفتى مدرسة ابتدائية في كراكو. وتوفي أبوه كذلك بداء السل، فتولى رعاية الفتى خاله، فشجعه على إتمام دراسته الجامعية، غير أن الفتى لم يرغب في ذلك، واختار أن يكون بحاراً فسهل له خاله السفر بحراً على متن سفينة تجارية فرنسية إلى مرسيليا، في أول الأمر كمسافر، ثم إلى مرتيك، ثم إلى جزر الهند الغربية كخادم على متن سفينة. وبذلك بدأت رحلاته عبر البحار ودامت أكثر من عشرين عاماً.

في عام 1878 وصل إلى انكلترا، وقرر أن ينضم إلى البحرية التجارية البريطانية، فقام برحلات عديدة إلى الشرق الأقصى، وارتقى تدريجياً في سلم المسؤولية حتى نال شهادة ربان باخرة، كما بذل جهداً

(1) وعمر الفتى لا يتجاوز 8 سنوات.

كبيراً لتعلم اللغة الإنكليزية، وحصل على الجنسية الإنكليزية سنة 1886.

وفي إحدى رحلاته إلى الشرق الأقصى التقى بالأديب الإنكليزي John Galsworthy سنة 1893 في أستراليا، فشجعه على إتمام قصة كان قد بدأ تأليفها باللغة الإنكليزية، وبذلك بدأ كونراد رحلة أخرى، هذه المرة في عالم الأدب والقصة. ويقول عنه بعض النقاد أنه أكبر مؤلف للقصاص في مطلع القرن العشرين، وفي عام 1896 تزوج فتاة عمرها 22 سنة أنجبت له طفلين، فترك حياة البحار، واستقر في جنوب شرق انكلترا ليركز على التأليف. وأصبح يعاني من المرضى ومن قلة ذات اليد، ولم تتحسن ظروفه المادية إلا بعد أن نشر رواياته الشهيرة.

وعلى الرغم من أنه لم ينس موطنه الأصلي بولندا، ومن ارتباطه الوثيق بموطنه الجديد بريطانيا، فقد اكتسب بفضل رحلاته عبر القارات والبحار تجارب إنسانية عميقة، فأصبح يشعر أن العالم كله موطنه، لا يفرق بين سكان الشمال وسكان الجنوب، ولا بين الأجناس المختلفة ألوانها. ثم إنه اكتسب خبرة واسعة من أسفاره ساعدته على وصف مغامرات أبطال قصصه في البر والبحر، وعلى وصف بيئة البحار والمناطق الاستوائية ببراعة ودقة وواقعية.

كان أبطال قصصه ورواياته من سكان مناطق جنوب الكرة الأرضية، والمغامرين واللصوص والمشردين، ومن الأوروبيين الذين فضلوا أن يعيشوا بعيداً عن بلدانهم إما بحثاً عن الثروة، أو لحوادث لا يرغبون في مواجهتها في بلادهم.

كان كونراد يسمي زملاءه ورفاقه من البحارة وغيرهم من الإنكليز والألمان والأسويين والإفريقيين، أبناء الأسرة الإنسانية

الكبيرة. وكان من أهم الأشياء التي ظل يؤكد عليها في قصصه وفي حياته هي صفات الوفاء، والثقة، والتضامن، وهي صفات مهمة جداً لنجاح علاقات الناس فوق اليابسة، وتزداد أهميتها عندما يجد الناس أنفسهم في عرض البحار والمحيطات حيث تبدو الباخرة نقطة ضئيلة وهي تواجه تقلبات المناخ والأمواج الطاغية.

ركب كونراد البحر آخر مرة في حياته سنة 1923 في رحلة إلى نيويورك. ووافته المنية عام 1924 بسبب سكتة قلبية.

ألّف كونراد قصصاً وروايات عديدة من أشهرها The Nigger of Narcissus (الرجل الأسود على متن الباخرة نارسيوسوس)؛ Lord Jim (لورد جيم)؛ وNostromo؛ وVictory (الانتصار).

تروى الرواية الأولى قصة رجل أسود على السفينة الإنكليزية، نارسيوسوس، يدعى جيمز، وكان مصاباً بداء السل، يكاد يموت، فراح يلعن البشر والحياة، ويعبر عن أفكار تشاؤمية أثرت على معنويات طاقم الباخرة لدرجة أنهم ظنوا أن مصيرهم مرتبط بمصيره المحتوم، الموت. وعندما بلغت الباخرة منطقة رأس الرجاء الصالح داهمتها عاصفة، وظن البحارة أنهم سيفرقون جميعاً. وكان الرجل الأسود المريض مستلقياً على سريريه في الجزء الأسفل من الباخرة. وفي النهاية توفي الرجل نتيجة مرضه، ألقى جثمانه في البحر، وعندئذٍ شعر ركاب السفينة بالارتياح.

أما قصة لورد جيم فتروى أن هذا الرجل يعمل في باخرة كانت تنقل المسلمين المتوجهين إلى مكة لأداء فريضة الحج. اصطدمت الباخرة بعائق في البحر الأحمر. فأبلغ جيم ربان السفينة أنها ستغرق،

وكان هذا الأخير سكران فأمر الطاقم بأن يغادر السفينة في قارب النجاة الوحيد في الباخرة. وترك المسلمين يواجهون مصيرهم. غير أن السفينة لم تفرق، بل سحبها باخرة فرنسية إلى المرفأ.

شعر لورد جيم بتوبيخ الضمير بسبب سوء تقديره للظروف التي ظن أنها تؤدي إلى غرق السفينة. ووصل إلى جزيرة من جزر الهند الشرقية، وأصبح مستشاراً لأميرها، وتزوج بفتاة من سكانها. وذات يوم هاجمت جماعة من القرصان الجزيرة، فساعد جيم السكان على القبض على القرصان. ثم توسل لدى أمير البلاد ليسمح لهم بمغادرة الجزيرة، فوافق على ذلك.

غير أن رئيس عصابة القرصان قتل ابن الأمير، فشعر جيم أنه ارتكب خطأ كبيراً عندما توسط لإطلاق سراح القرصان، ورأى أن السبيل الوحيد للتكفير عن خطئه وإراحة ضميره هو أن يضع حياته بين يدي الأمير. فذهب إليه، وقدم له مسدسه، وطلب منه أن يقتله، ففعل. وبذلك بقى سكان الجزيرة يذكرون جيم بخير.

★★ من أقوال كونراد:

- الفنان لا يخاطب فينا ذلك الجزء الذي يرتبط بالحكمة، بل يخاطب فينا الموهبة وليس المكتسب. فالفنان يتحدث بلغته إلى قدرتنا على الابتهاج والتعجب، ويخاطب ما في حياتنا من خفايا ومن مشاعر الشفقة والرحمة والألم والجمال.

- تتضمن الكلمة قوة غريبة، قد تأخذنا بعيداً .. إلى حيث لا نتوقع؛ إنها تدمر عبر الزمن مثل الرصاصات التي تنطلق في اتجاهات

مختلفة.

- الأمل يسمح للمرء أن يتخيل ملامح رغباته وأحلامه، ولولاه لما عرفت الأرض محبين ولا مغامرين.
- الشباب؟ لحظة قوة وحماس، لحظة حب وغرام، لحظة فتنة، ومضة أشعة الشمس على شاطئ غريب، لحظة للتذكر، للتهد، ثم تأتي لحظة الوداع.
- إنني عدو عنيد للمحابة والتحيز في الحياة العامة والخاصة، وحتى في العلاقات الحساسة بين المؤلف وما يؤلف.
- إن ما يثرى حياة الإنسان وينعشها هو قبل كل شيء ما يكره له الناس من حب واحترام.
- لقد جربت البحر طويلاً، واكتشفت أنه لا يحترم أداب السلوك.
- ليست هذه السفينة إلا قطعة صغيرة من اليابسة، رموها في البحر لتدور حول الأرض وحيدة منعزلة كأنها كوكب صغير.
- الحقيقة لا توجد إلا في مخيلة الإنسان؛ فالمخيلة هي المعلم الأسمى للفن وللحياة.
- إن معظمنا يكتشف نفسه في وقت ما؛ ثم يستعد ليضل وبيته في الطريق الخاطئ.
- لا ضرورة للبحث عن مصادر الشرور في قوى خارج الطبيعة، لأن الإنسان هو مصدر جميع الشرور.

- جميع الطموحات ممدوحة، ما عدا طموح الشخص الذي يصعد على شقاء الآخرين.
- عندما يقطف المرء ثمار ذاكرته، قد يفسد أزهارها.
- ما يحتاجه الإنسان هو الرحمة في الحياة، والغفران يوم الحساب.
- الغرور يخدع الذاكرة.
- حاول أن تتعرف على الإنسان من أعدائه، كما تتعرف عليه من أصدقائه.
- إذا كان الإنسان متأكداً من الخلود، فلما يفكر كثيراً في الحياة؟
- بهجة الحياة في معدة سليمة.

بَرْتِرَانْدُ راسل

Bertrand Russell



من أشهر فلاسفة عصره، وأكبر علماء المنطق، والمفكرين؛ ومن أشد الشخصيات تأثيراً، في عهده، في مختلف مجالات الحياة. ساعدته حياة مديدة جعلها حافلة بالمؤلفات والمحاضرات، وحاز خلالها الشهادات والجوائز. كتب في الرياضيات، وبدأ يفكر في وضع الأسس المنطقية لها ولم يتجاوز الحادية عشرة من عمره. وألف في الفلسفة، والمنطق، والأخلاق، والتاريخ، والدين، والتربية، والسياسة، وحصل على جائزة نوبل للآداب عام 1950.

ولد راسل سنة 1872 في تْريليك، مونما وِثشاير، بانكلترا؛ وتوفي أبواه وهو دون الرابعة من عمره، فتولت جدته تربيته. تابع تعليمه بصفة منفردة، فلم يكن له زملاء وأصدقاء كثيرون، إلى أن التحق بجامعة كامبردج فانطلق من عزلته، ووجد أمامه عالماً فسيحاً، ومجموعات من الناس يتناقش معهم في شتى مجالات الحياة والمعرفة، وظهر ذكاؤه وثقافته.

حصل على شهادة من الجامعة المذكورة بامتياز عام 1894. وفي السنة نفسها تزوج من السيدة أليس بيرسال، من فيلادلفيا بالولايات المتحدة. وقام بزيارة هذا البلد، ثم زار ألمانيا حيث اطلع على النظريات الماركسية، بعد ذلك عين أستاذاً في جامعة لندن للعلوم الاقتصادية.

انتخب عضواً في الجمعية الملكية 1908؛ وفي سنة 1911 طلق زوجته الأولى، وتزوج مرات عديدة أثناء حياته المديدة. كما قام بزيارات لبلدان كثيرة منها الصين والاتحاد السوفيتي. وفي عام 1931 توفي أخوه الأكبر فورث لقب العائلة وأصبح إيرل راسل الثالث. حصل على وسام الاستحقاق سنة 1949، وعلى جائزة نوبل للآداب عام 1950.

كان راسل من دعاة السلام في العالم. انتقد الحرب التي خاضتها بريطانيا ضد البور في جنوب إفريقيا؛ وفرضت عليه غرامة قدرها مائة جنيه استرليني بسبب دعمه لحركات السلم في العالم؛ وطرد من وظيفة الأستاذية من كلية الثالوث، وسجن مدة ستة أشهر عام 1918، لأنه أدلى بتصريحات اعتبرت مضرّة بالتحالف الأنكلو - أمريكي. وفي سنة 1954 شذب تجربة القنبلة الهيدروجينية في جزيرة بيكيني، وأصدر مع العالم أينشتاين احتجاجاً ضد إنتاج أسلحة الدمار الشامل، وطالبا بالقضاء على الأسلحة النووية.

وخلال الستينيات ازدادت شهرته لدى جماهير الشباب، وأنشأ عام 1963 مؤسسة راسل للسلام في العالم. هاجم سياسة الولايات المتحدة في فيتنام، وسانده في ذلك علماء آخرون منهم جان بول سارتر.

أما فيما يتعلق بمؤلفات هذا الرجل المبدع، فلا تتسع هذه العجالة لذكرها جميعها، لذا تكفي الإشارة إلى بعضها.

- «مبادئ الرياضيات» في ثلاثة أجزاء. وقد اشترك في تأليفه مع عالم شهير يدعى ألفرد نورث وايتهد.

المعرفة والحكمة⁽¹⁾ برتراند راسل

يشير المؤلف في هذا المقال إلى أن مجالات المعرفة في عصرنا توسعت بدرجة تجاوزت ما حققته العصور السابقة. غير أن توسع المعارف الإنسانية لم يرافقه بالقدر المناسب توسع في ميادين "الحكمة". ويطرح سؤالين، الأول: ما هي الحكمة؟ والثاني: ما الذي يمكن فعله لنشرها؟

يقول راسل: "أعتقد أنه توجد عوامل عديدة تساعد على نشر الحكمة، وأضع في المقام الأول:

- تناسب العوامل، وهو أن نأخذ في الاعتبار جميع العوامل الهامة المؤثرة في مشكلة ما، وأن نعطي لكل عامل وزنه وتأثيره الحقيقي.

وقد أصبح هذا العمل أكثر صعوبة في عصرنا نتيجة تعمق مجالات المعرفة المتخصصة وتعقيدها".

(1) من كتابه: صور من الذاكرة ومقالات أخرى.

- "سبل الحرية".

- "تحليل الفكر".

- "تحليل المادة".

- "اقتناص السعادة".

- "الزواج والأخلاق".

- "التعليم والنظام الاجتماعي".

- "بحث في المعنى والحقيقة".

- "تاريخ الفلسفة الغربية".

- "المعرفة الإنسانية، مجالها وحدودها".

- "السلطة والفرد".

- "آمال جديدة لعالم متغير".

- سيرته الذاتية، ألفها في الأعوام الأخيرة من حياته، في ثلاثة أجزاء.

وتوفي إيرل برتراند راسل في شهر فبراير (فيفري) من عام

1970

* * * *

ويضرب علي هذا مثال الطبيب المنهمك في بحوثه العلمية لدرجة لا تترك له مجالاً من الوقت ليقدر آثار اكتشافه على ميادين الحياة الأخرى خارج ميدان الطب. ومثال عالم الذرة الذي يعكف على بحوثه، وهدفه الوحيد هو توسيع نطاق المعرفة؛ ولكن نتائج بحوثه قد تضع بين أيدي ذوى السلطة وسائل خطيرة يمكن أن تقضي على مستقبل الجنس البشري. وعلى هذا فإن الحكمة تتطلب الإحاطة الشاملة بآثار المعرفة الإيجابية والسلبية على الحياة.

« غير أن النظرة الشاملة وحدها لا تكفي لنشر الحكمة فلا بد من وجود الوعي العميق والإدراك المتبصر لهدف الحياة البشرية».

ويقدم مثلاً على هذا نظرية للفيلسوف الألماني الشهير هيغل فيقول: إن نظريته الفلسفية لا تقتصها الشمولية، عندما ركز على تمجيد ألمانيا، ولكنه استخلص من دراسته للتاريخ أن ألمانيا ظلت، منذ مطلع القرن الخامس الميلادي وحتى عصره، أعظم دولة ترفع راية التقدم في العالم.

ويضيف راسل⁽¹⁾ لعلنا إلى جانب الشمولية التي تتطلبها الحكمة نضيف عامل الوعي المتبصر. لأن جوهر الحكمة هو التخلص من استبداد⁽²⁾ «الحاضر» وحدوده الضيقة، إلى أقصى حد ممكن. إننا نعيش في ظل ضغوط حواسنا. فالمشاهدة والسمع واللمس وجميع حواسنا ومشاعرنا تفرض علينا أنانيتنا. ولا يمكن للمرء أن ينظر إلى العالم بحياد كامل. ولكن بوسع الإنسان أن يتعرف على حوادث بعيدة في الزمان والمكان، وأن يحسب لها وزنها المناسب في مشاعره وحياته ومستقبله».

وعن تساؤله⁽³⁾ «هل يمكننا أن نعلم ((الحكمة))؟ بالمعنى الشمولي الذي ذكرته؛ وهل يمكننا أن ندرج تعليمها في برامج التعليم»؟، يجيب راسل بأننا نتعلم في مواعظ أيام الأحد بأنه يجب علينا أن نحب جارنا كحبنا لأنفسنا. وفي أيام أخرى نتعلم أنه علينا أن نكره من يريدون لنا الضرر. ويضيف:

« ولا أعتقد أنه من الصواب أن نكره من يرتكب المظالم. فإذا كرهناهم، أصبحنا في مستواهم (ويشير على سبيل المثال إلى الكراهية المتبادلة بين الشيوعيين ومن يحاربونهم)؛ فكراهية الشرور تجعلنا عبيداً للشر».

« وأعتقد أن المعرفة ينبغي أن تبقى قريبة من الأخلاق، ملازمة لها. صحيح أن التخصصات الضيقة ليس لها علاقة وثيقة بالأخلاق وبالحكمة، ولكن ينبغي لأي تخصص أن يظل مصحوباً بالمعرفة التي تحدد أهميته وتأثيره على مجموع النشاطات البشرية، لأنه على أفضل التقنيين وأكبر المتخصصين أن يكون مواطناً صالحاً، وأعني مواطناً عالمياً، وليس فقط مواطناً قريته أو حزبه أو بلده».

★ ★ حول التعليم⁽¹⁾ برتراند راسل

« لو كنت مسؤولاً عن مدرسة لتعليم الشباب لاعتبرت أنه من غير المرغوب فيه أن أتجنب القضايا الراهنة الهامة، أو أن أتحمس لها بأكثر مما تستحق. فمن الأفضل أن نجعل طلابنا يشعرون أن ثقافتهم

(1) العنوان: On Education

ينبغي أن تساعدنا على معالجة المسائل التي يزرعها العالم من حولهم، لتكون معارفهم وثيقة الصلة بحياتهم العملية. لذلك ينبغي أن يبسط المعلم أمام طلابه وجهات نظره بأسلوب محايد، ودون إلحاح. وبعد أن يضع أمامهم المواقف العلمية المثالية، يترك لهم المجال لبحثوا عن البراهين والحجج المقنعة للوصول إلى الحقائق المنطقية.

كثيراً ما تقتل المشاعر الفكر، ولكن نلاحظ لدى المثقفين، أنه كثيراً ما يعزل الفكر المشاعر. المشاعر القوية مفيدة ومطلوبة، ما لم تكن هدامة. والفكر المبدع مطلوب ما لم تكن نتائجه سلبية ومضرة... ونلاحظ أنه عندما لا يرضينا الواقع، نلجأ إلى عالم الخيال لأنه يشبع رغباتنا دون جهد كبير. وهذا مصدر الأساطير القومية والدينية، وقد يعبر عن ضعف في الشخصية.

ينبغي أن يكون من أهداف مراحل التعليم المتقدمة أن تكافح هذا الضعف. وهناك طريقتان لذلك: الأولى أن ندعم وعينا بما نحققه في عالم الواقع والحقيقة؛ والأخرى أن نقوى إحساسنا بالواقع لنتأكد مما يسمح بتحقيقه، لكي نبعد من حياتنا عثرات الأحلام والتخيلات والأوهام.

ومن الأمثلة المشهورة على حياة الأحلام والأوهام حكاية دون كيشوت الشهيرة. فهو يبدأ بصنع خوذة، ويجرب مدى مقاومتها للضربات؛ ثم يصنع خوذة أخرى ولا يجربها، بل يفترض أنها خوذة جيدة. وقد سيطرت فكرة "الظن" و"الافتراض" على حياته. وهكذا فكلما رفض المرء أن يواجه الحقائق والوقائع التي لا تسره، يصبح مثل دون كيشوت. ومن الطبيعي أن يعيش الأطفال في المراحل الأولى من

حياتهم وسط الخيال والأحلام. وبمرور السنين ينبغي للمرء أن يعلم أنه لا قيمة للأحلام ما لم يحولها إلى حياة يومية واقعية.

علينا أن نشجع المناقشات الذكية بين الطلاب والطالبات، ولا نضع العراقيل في مجالات مناقشاتهم حتى لو شككوا في قضايا نعتبرها مسلمة وحقائق. ينبغي أن نعلمهم التفكير الواقعي السليم وليس المعتقدات التقليدية والبدع والهرطقة. ولا يجوز لنا أبداً أن نضحي بالتفكير من أجل مراعاة تقاليد أخلاقية أو خيالية.

قد يرغب أصحاب السلطان في إخفاء الحقائق عن عبيدهم حتى لا يدرك هؤلاء حقوقهم ومصالحهم. وما هو أدهى وأمر من هذا هو أن الديمقراطيات المزعومة تسن قوانين وتروج أفكاراً ومبادئ تهدف في نهاية الأمر إلى حجب الحقيقة عن أصحاب السلطان أنفسهم، لعلهم يريدون بفعلهم هذا (مثل دون كيشوت) ألا يقال لهم: إن هذه الخوذة غير صالحة.

وفي المدرسة أبحث عن الحقيقة بواسطة التدريب السليم للمشاعر والغرائز والفكر، وليس بالتعصب والتزمت والمخادعة. وهذا يعني أن نخلق الرغبة لدى طلابنا في الوصول إلى الحقائق. وينبغي أن يتعلم الطالب كيف يشك أولاً، ثم يستخدم مواهبه لبناء الدلائل.

كما ينبغي لنا ألا نقبل الشكوك المضللة التي تزعم بأن الحقيقة الواقعية صعبة المنال، وأن البراهين قد لا تكون حاسمة. وعلينا أن نعترف أنه حتى الأشياء التي نعتقد بصحتها قد تحتاج إلى بعض التنقيح والتصحيح. والواقع أن الحقيقة ذاتها، أو ما كان منها في متناول الإنسان، قد لا يصل إليها الإنسان إلا بخطوات متتالية.

فمعتقداتنا ومعارفنا عن علم الفيزياء مثلاً هي اليوم أعمق وأقوى أساساً مما كانت عليه في قديم الزمان.

ينبغي أن يواجه الطلبة، خلال السنة الدراسية، تجارب ومغامرات فكرية إيجابية توفر لهم الفرص ليكتشفوا بأنفسهم الأشياء المثيرة. يمدح منهم من يستحق الثناء، وتصحح الأخطاء من غير أن يوضع الطالب في موقف يجعله يخجل من فشله.

ويجب ألا يكون طلب العلم عبئاً مملأً. فالمعرفة التي يستوعبها الطالب بحماس هي التي تصبح في فكره ثروة مستديمة. ولنجعل العلاقة وثيقة بين المعرفة والحياة اليومية، بحيث يلمسها الطالب في شتى نشاطاته وعلاقاته. وليكن المعلم حليف الطالب وصديقه، وليس منافساً له أو جباراً مسيطراً عليه.

نقحات من الأدب العالمي

حكايات ونصوص
من الأدب الإنكليزي



« لا شك في أن ثورة البطون هي أسوأ الثورات، أما حالات التذمر فتظهر في الأوساط السياسية ضعيفة في بداية الأمر، ثم تتراكم وترتفع درجة الحماس فتشتعل النار »

ويحذر الكاتب الحاكم والأمير من أن يفكر طويلاً فيما إذا كان المتذمرون على حق أو على باطل، لأن الناس في حالة الجوع والخوف والفتنة لا يقودهم الحق والعقل فقط. ويضيف قائلاً: على صاحب السلطان ألا يزن الأمور فقط بكون أسباب التذمر عظيمة أو ضعيفة، لأن أخطر أنواع التذمر ما كان الخوف فيه أقوى من الألم، فالألم له حدود، أما الخوف فلا حدود له⁽¹⁾.

⁽²⁾ وكذلك على الأمير (صاحب السلطان) ألا يظن أن الوضع غير خطير، لأن تلك التذمرات تكرر كثيراً، أو لأن زمنها طال، ولم تؤد إلى وضع خطير، فقد يصح القول أن كل دخان ليس عاصفة، لأن العواصف تمر بمناطق عديدة، ثم تفتك بإحداها. وكما يقول المثل: تنقطع السلسلة في أضعف حلقاتها⁽³⁾.

ويذكر الكاتب الفيلسوف بأن من أسباب الفتنة⁽⁴⁾ التجديد الذي يمس العقائد الدينية، وزيادة الضرائب، وتغيير القوانين والتقاليد التي تؤثر على مصالح الناس وثقافتهم، والاستبداد، وإلغاء الامتيازات التي اكتسبتها طبقة معينة، ومنح امتيازات ورتب عالية لمن لا يستحقونها، وتسريح أعداد كبيرة من الجنود، وكثرة الأجانب، ودفع بعض الطوائف إلى حالة اليأس، وجميع ما من شأنه أن يؤدي مشاعر الناس ويجمع قلوبهم على قضايا هامة مشتركة⁽⁵⁾.

وينتقل بيكون إلى الحديث عن وسائل معالجة الفتن ومكافحتها،

فرانسيس بيكون⁽¹⁾

Francis Bacon

حول أسباب الفتنة ومعالجتها

يفتح الكاتب مقاله بقوله: عندما يضعف ركن من أركان الحكم، وهي الدين والعدل والشورى والمالية، فعلى الناس أن يسألوا الله اللطف وحسن الختام.

ويتناول أسباب الفتنة فيذكر منها معاناة السكان من الفقر، واتساع نطاق التذمر. ويشير إلى ما ذكره Lucan⁽²⁾ عن الوضع في روما قبيل نشوب الحرب الأهلية، حيث انتشر الربا، واشتد السعي وراء الربح العاجل، وفقدت الثقة، وساد الاعتقاد بأن الحرب ستكون مفيدة للجميع.

ويواصل بيكون الحديث عن حالتي الفقر والتذمر فيقول:

(1) فرانسيس بيكون، 1561 - 1626، كاتب، فيلسوف ورجل دولة، تولى مناصب هامة في عهد الملك جيمز الأول، واشتهر بمقالاته الفلسفية حول الحياة وسلوك الإنسان (انظر كتاب "الرحلة")

(2) شاعر روماني، 39-65، اشترك في مؤامرة لاغتيال الإمبراطور نيرون، ولما فشلت أجبره نيرون على الانتحار بقطع الوريد.

فيذكر أنه لا توجد قاعدة عامة، بل على صاحب السلطان أن يختار لكل حالة ما يناسبها، وأن يلجأ كذلك إلى أصحاب الخبرة والمشورة. وللوقاية من انتشار الفقر والبطالة، ينصح بفتح أبواب التبادل التجاري، والعمل على جعل الميزان إيجابياً ومتوازناً، وتشجيع القطاعات الصناعية، وتوفير الدعم للمزارعين، ومحاربة الإجراءات البيروقراطية المعقدة، وتنظيم الأسعار، ومحاربة التبذير والكسل والبطالة، وتخفيف الضرائب ... (1).

وينبغي التخطيط بطريقة تجعل احتياجات عدد السكان لا يتجاوز مخزونات البلاد. والواقع أن العبرة ليست بعدد السكان فحسب؛ لأن العدد القليل الذي ينتج كميات قليلة ويستهلك كميات كبيرة ينهك مخزونات الدولة، أكثر مما إذا كان عدد السكان كبيراً، وينتج كميات كبيرة، ويستهلك أقل مما ينتج. ولذلك فإن تزايد عدد النبلاء ورجال الدين ومن في ظروفهم ممن لا ينتجون شيئاً ملموساً مثل طبقة العمال والمزارعين، فإنهم يستهلكون ما ينتج غيرهم، ويستنزفون مخزونات الدولة.

ولنتذكر أن قوة دولة ما قد تبني على حساب غيرها. وهناك ثلاث سلع يمكن لدولة أن تبيعها لدولة أخرى: المنتجات الزراعية، والمنتجات الصناعية، ووسائل النقل والاتصال. ويجب على الدولة أن تتبنى سياسة حكيمة حتى لا تتراكم الأموال والكنوز في أيدي جماعة قليلة، لأن المال مثل السماد، لا يفيد إلا إذا وُزِعَ على نطاق واسع.

(1) لا ننسى أنه كتب هذا الكلام قبل خمسة قرون.

وينتقل بيكون إلى الحديث عن مكافحة الفتن، فيشير إلى أنه توجد طبقتان من السكان، طبقة النبلاء والأثرياء، وطبقة عامة الناس. وهو يرى أنه عندما يحدث التذمر في أوساط طبقة واحدة منهما، لا يكون الخطر وشيكاً، لأن طبقة الفقراء بطيئة الحركة، ما لم تقدها شخصية بارزة؛ ولأن طبقة النبلاء وحدها ضعيفة، ما لم يدعمها عدد كبير من السكان ...

ولهذا ينبغي للدولة أن تحذر من وجود شخصية (أو شخصيات) مرموقة، يلجأ إليها السكان المتذمرون، فتجمع صفوفهم وتقود جموعهم. وعندئذٍ على رجال الدولة أن يلجأوا بكل الوسائل إلى إغراء تلك الشخصية الثائرة، وأن يعملوا على إعادتها إلى صفوفهم بأساليب مجدية وفعالة. وإن لم يُجَد ذلك، فعليهم أن يستميلوا إلى جانبهم شخصية أخرى من نفس الحزب والمستوى، وأن يبرزوها ويساعدها لتواجه الشخصية الثائرة من أجل إضعافها وتقريق حزبها، وتوزيع السمعة والشهرة بينهما، فتتجه الأولى إلى المناهضة الثانية.

ويمكن القول بصفة عامة، أن نشر الخلاف داخل صفوف القوى المعارضة للسلطة أسلوب ناجح، وكثير ما يكون علاجاً نافعاً وترساً واقعياً للدولة واستقرارها. ومن أشد الخطر أن تكون القوى الداعمة للدولة متفرقة متنازعة، والقوى المناهضة لها متحدة.

إدورد غيبون: مؤرخ إنكليزي

Edward Gibbon, 1737 - 1794



غيبون، الوحيد الذي كتبت له الحياة بعد مرحلة الطفولة، من بين سبعة إخوة، وكان يعاني من مشاكل صحية لم تنكشف عنه إلا بعد مرحلة البلوغ. وبعد أن توفيت أمه احتضنته خالته، فأحسنّت رعايته، وشجعتّه على مطالعة الكتب.

وعندما بلغ سنّ الخامسة عشرة أرسله أبوه إلى جامعة أكسفورد حيث قضى أربعة عشر شهراً، أهمل فيها دروسه، ولكنه اهتم بدراسة اللاهوت والعقيدة الكاثوليكية، وانتهى باعتناقها ونبذ المذهب الأنجليكاني. وأغضب هذا أباه، لأن النظام لم يكن يسمح لمن يهجر مذهب الكنيسة الإنكليزية بالدراسة في تلك الجامعة.

أرسله أبوه إلى مدينة لوزان حيث وضعه تحت إشراف قسّ كالفيني⁽¹⁾، وهناك درس اللغتين اللاتينية والفرنسية، والأدب الكلاسيكي والمنطق والرياضيات؛ وغير رأيه فرجع إلى اعتناق المذهب الأنجليكاني.

عندما بلغ سنه واحداً وعشرين عاماً، طلب منه أبوه أن يعود إلى انكلترا، وخصص له دخلاً سنوياً قدره ثلاثمئة جنيه، غير أنه منعه من

(1) أحد أتباع مذهب كالفين اللاهوتي البروتستانتي (1509 - 1564) القائل بأن قدر الإنسان مرسوم قبل ولادته.

الزواج من فتاة كان تعرف عليها في لوزان.

وأثناء حرب السبع سنوات انضم إلى وحدة ميليشيا⁽¹⁾ "هامبشاير" تحت قيادة والده. ويبدو أن هذه الخبرة العسكرية أفادته أثناء كتابته عن تاريخ الرومان. والواقع أنه أثناء زيارة لمدينة روما، اهتم بدراسة بعض الآثار القديمة، وخطرت له فكرة كتابة تاريخ المدينة. لقد كان مولعاً بالتاريخ، وقال: "إنه غذائي الفكري المفضل".

وفي عام 1772 (أي بعد وفاة أبيه بسنتين) قرّر غيبون أن يستقر في لندن، وبدأ بحوثه الجدية في تاريخ الرومان. وانضم إلى النادي الأدبي الشهير الذي كان يتزعمه الدكتور جونسون، كما انتخب عضواً في البرلمان عام 1774.

صدر أول جزء من كتابه الشهير عام 1776⁽¹⁾، فحظي باهتمام كبير، ولكنه واجه موجة انتقادات بسبب آراء غيبون في الديانة المسيحية. وتلا ذلك بقليل صدور الجزأين الثاني والثالث.

وفي عام 1782، فقدَ وظيفة كان يشغلها كعضو في مجلس تجاري حكومي، ثم فقد عضويته في البرلمان، فقلّت مصادر دخله في لندن، وقرر أن يذهب إلى لوزان ليعيش مع صديق قديم له. وهناك ركز جهوده على إتمام الأجزاء الأخيرة من كتابه، وتم ذلك في شهر جوان من عام 1787.

وفي السنوات الأخيرة من حياته كان يعاني من السمّنة، ومن داء الاستسقاء، وداء المفاصل، فساءت صحته. وعاد إلى لندن عام 1793

(1) تاريخ تدهور الإمبراطورية الرومانية وسقوطها.

حيث أجريت له بعض العمليات الجراحية. توفي في شهر جانفي (يناير) من عام 1794.

نظرة خاطفة إلى كتاب إدورد غيبون: تاريخ تدهور الإمبراطورية الرومانية وسقوطها

يعتبر غيبون أشهر مؤرخ في القرن الثامن عشر في أوروبا. ومن الواضح أنه قضى جزءاً كبيراً من وقته، وبذل جهوداً كبيرة لجمع ما زخر به كتابه من معلومات دقيقة وغزيرة، ومن أجل تنظيمها وتوثيقها وسردها.

ويتناول هذا الكتاب فترة طويلة من تاريخ الرومان، ويصور حضارة عريقة كانت تستقر تارة وتتدهور طوراً، ويرسم مسارات متشابكة لإمبراطورية ظلت تصارع على جبهات عديدة من أجل البقاء.

وينقسم هذا الكتاب الضخم إلى قسمين رئيسيين:

القسم الأول، ينطلق المؤلف فيه من القرن الثاني للميلاد، حتى عام 480، أي نهاية الإمبراطورية الرومانية في الغرب. ويعالج موضوعات متنوعة منها على سبيل المثال لا الحصر، تولية الأباطرة الرومان، حروبهم وفتوحاتهم (أو انهزامهم) في آسيا وإفريقيا وأوروبا، وما قاموا به من إصلاحات، ومؤامرات البلاط؛ وانتشار المسيحية، وغير ذلك من الحوادث المتتالية، على المستويات الرسمية والشخصية، وعبر القرون، في إمبراطورية مترامية الأطراف، متنوعة الأجناس.

القسم الثاني، ويغطي فترة أطول من القسم الأول، أي قرابة

عشرة قرون، من 480 ميلادية حتى سقوط القسطنطينية سنة 1453م. ويتناول موضوعات شتى، إلى جانب وصف حياة الأباطرة وحروبهم، مثل الحديث عن المسيحية وفرقها وتنوع مذاهبها، وانتشار الإسلام والإمبراطورية الإسلامية، والحروب الصليبية، وظهور الدولة العثمانية، وغير ذلك كثير جداً، إنه تاريخ إمبراطورية خلال عشرة قرون.

وعلى الرغم مما اشتمل عليه هذا الكتاب من انتقادات غير موضوعية ووجهات نظر مجحفة، خاصة فيما يتعلق بتاريخ الإسلام والمسلمين، فإنه يعتبر بصفة عامة كتاباً رائعاً، يزخر بمعلومات غزيرة، دقيقة ومتنوعة، مع قدرة على تقصى الحقائق ووصف الوقائع بشجاعة وحماس وبراعة وعقلانية نال بها إعجاب كبار المؤرخين والأدباء.

★ انتشار المسيحية

يتناول غيبون موضوع انتشار المسيحية في عهدها الأولى (في الفصل الخامس عشر)، فيشير أولاً إلى الرعاية الإلهية لما يريد له البقاء والانتشار؛ وإلى كون العقيدة (في صيغتها الأولى) وحياً من السماء؛ ثم إلى حماس دعاة المسيحية والمبشرين بها، لما وجدوا في كلام المسيح ^{عليه السلام} من آيات بينات ودلائل مقنعة.

ثم ينتقل إلى الحديث عن العوامل الأخرى المساعدة التي أدت إلى انتشار المسيحية فيذكر منها:

1- أن الدعاة والمبشرين استفادوا من تعاليم اليهودية، وما فيها من قوة وحماس، في الأسلوب الذي اتبعوه لنشر المسيحية.

- 2- فكرة الإيمان بالحياة الأخرى، وما يرافقها من ظروف تؤكد صحة العقيدة المسيحية.
- 3- ما تضمنته حياة المسيح من معجزات، وما رافقها من حوادث بهرت عقول الناس.
- 4- ما اتصف به دعاة المسيحية الأوائل من سلوك قويم وأخلاق فاضلة وحزم وجد وإخلاص .
- 5- وحدة التنظيمية المسيحية وما اتصف به روادها الأوائل من انضباط، إلى أن شكلت "دولة" في قلب الإمبراطورية الرومانية.
- ويستدرك غيبون أثناء عرضه لهذه العوامل فيشير إلى ما يشعر به المؤرخ النزيه من انقباض نفسي عندما يجتهد ليكتشف ما حصل من خلط وتداخل عبر القرون الطويلة في التمييز بين المبادئ المسيحية وعقائدها السليمة وبين ما شابها من بدع ومفاسد من صنع يد الإنسان ولسانه.

* * * *

بعض الوقائع التي أوردها غيبون⁽¹⁾، والتي حدثت خلال الفترة من بدء نزول الوحي على الرسول ﷺ حتى وفاته:

- بدء نزول الوحي عام 609 ميلادية.

- الإمبراطور هرقل يجلس على عرش روما، سنة 610م.
- ملك الفرس كسرى يحتل سوريا، فلسطين، مصر، وآسيا

(1) الفصلين 46 و 50 من المجلد الثاني.

- الصفري، 611 - 616.
- هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة، سنة 622م.
- هرقل يجهز أول حملة ضد الفرس، عام 622م.
- هرقل يجهز الحملة الثانية ضد الفرس، 623 - 625 م.
- هرقل يرسل الحملة الثالثة ضد الفرس، ويتم انتصاراته، وفرار كسرى.
- يخلعه ابنه قباذ (Siroes) يقتله، ويعقد الصلح مع هرقل، 628م.
- دخول المسلمين إلى مكة منتصرين، 629م.
- إخضاع المسلمين لشبه الجزيرة العربية، 629 - 632م.
- المسلمون يبدأون الحرب ضد الإمبراطورية الرومانية (غزوة مؤتة)، 629 - 630م.
- وفاة الرسول ﷺ، 632م.

* * * *

تناول غيبون في الفصل الخمسين الحديث عن شبه الجزيرة العربية، وسكانها وظروف معيشتهم، ليمهد للكلام عن محمد الرسول ﷺ، ورسالاته وأركان الإسلام، ودعوته في مكة، ثم هجرته إلى المدينة، وعن غزواته وانتصاراته؛ ومما كتب عن حياة محمد ﷺ:

« كان تفكير محمد (ﷺ) تفكيراً سليماً وإنسانياً، مما جعله ينبذ زخارف الملك وأبهة الملوك، فكان يقوم بأشغال الأسرة، كأن يوقد النار، يكنس الأرض، ي حلب القطيع، ويرقع بنفسه ملابسه وحذاءه. وكان يكره تزمت القساوسة والرهبان،

وتعذيب النفس. وكان يفضل الاعتدال في تناول الطعام؛ غير أنه في المناسبات الهامة كان مضيافاً كريماً. وفي بعض الأحيان كانت تمرّ عليه أيام لا يوقد أثنائها النار في منزله»

★★ حول الإسلام

وفي معرض الحديث عن انتشار الإسلام السريع بعد الهجرة النبوية، وعن بساطة مبادئه وسهولة فهمها، واستقرارها على مرّ قرون من الزمن يقول المؤرخ غيبون ما مفاده:

«إن ما يثير إعجابنا ليس ما حققته العقيدة الإسلامية من انتشار سريع فحسب، ولكن كذلك استقرار تعاليمها الصرفة الكاملة التي نقشت في قلوب أوائل المسلمين في مكة والمدينة، إذ نجدها محفوظة في قلوب الذين اهتدوا حديثاً للإسلام في الهند وإفريقيا وآسيا، على الرغم مما مرّ به العالم من ثورات خلال الاثنى عشر قرناً منذ عهود الإسلام الأولى».

«ولو عاد تلميذ المسيح، القديس بطرس إلى الحياة، ودخل الفاتيكان اليوم، لتعجب وتساءل عن الإله الذي يعبده الناس في هذه المعابد الفخمة، ولتعجب كذلك من تلك الطقوس الغريبة المبهمة...»

أما في دين الإسلام فإن الذات الإلهية لم تنزل أبداً إلى مستوى المعبود الجسد، كما أن مقام الرسول محمد ﷺ لم يتعد مقاييس الفضائل البشرية، وتكريمه لم يتجاوز حدود التقديس الذي يليق برسول عظيم من بني البشر.

★★ مكتبة الإسكندرية

أمر بنائها الإسكندر المقدوني، عرفت كذلك بالمكتبة الملكية، وأصبحت أضخم مكتبة مشهورة في العهود القديمة. وكانت تضم مجموعات كبيرة من الكتب اليونانية وغيرها في مختلف العلوم والفنون.

ويروى أن عمرو بن العاص، أثناء ولايته على مصر، عرف بالتسامح وإكرام العلماء، وبرغبته في الاطلاع والمعرفة. وكان عندما يسمح له الوقت، يجد متعة في الحديث مع رجل يدعى جون فيلوبونوس⁽¹⁾. وذات يوم تجرأ هذا العالم وطلب من عمر بن العاص أن يهبه هدية عظيمة هي مكتبة الإسكندرية. فرد ابن العاص بأنه لا بد أن يستشير عمر بن الخطاب، خليفة المسلمين في هذا الأمر.

ويروى غيبون أن جواب عمر بن الخطاب كان: «إذا كانت الكتب تتوافق مع ما جاء في كتاب الله، فلا حاجة للاحتفاظ بها، وإذا كانت تخالف ما جاء في كتاب الله، يجب تدميرها».

ويشير غيبون إلى حكاية إحراق الكتب وتدمير المكتبة، ولكنه يؤكد أن الرأي المنسوب إلى عمر بن الخطاب «لا ينسجم مع روح الإسلام وتعاليم كبار رجال الإسلام، لأنهم ينصون على أن كتب اليهود والمسيحيين التي يحصل عليها المسلمون عن طريق الحرب لا يجوز حرقها، وأن الكتب العلمية الأخرى قد تكون مفيدة للمسلمين».

★★ قرطبة

(1) فيلسوف يوناني مسيحي من علماء اللاهوت.

وفي معرض الحديث عن الإسلام والمسلمين في الأندلس يقول غيبون: قد يبالح العرب في وصف الوقائع أحياناً، ولكن التاريخ يشهد أنهم شيّدوا أعظم العهود ازدهاراً في أسبانيا، ويذكر أن "قرطبة، عاصمة الخلافة الأموية، كانت تضم بين أحضانها 600 مسجد، و900 حمام، والمرافق العامة...؛ وكانت ضفاف الوادي الكبير مزخرفة بنحو 12000 قرية".

ويواصل الحديث عن الإسلام قائلاً: "إن الملايين الذين اعتنقوا العقيدة الإسلامية لم يفعلوا ذلك تحت القوة والتهديد، بل ربما دفعهم إلى ذلك إغراء الدعوة الإسلامية، إذ أنه يكفي النطق بعبارة: "لا إله إلا الله محمد رسول الله" والخضوع لعملية الختان ليصبح العبد أو الأسير أو الرجل بصفة عامة حراً مساوياً للمسلم المنتصر. وإضافة إلى ذلك تغفر جميع ذنوبه السابقة، وتلغى عقود التي تضر بعقيدته الجديدة".

وتناول موضوع اهتمام زعماء المسلمين وعلمائهم بنقل معارف السابقين إلى اللغة العربية. وأشار إلى الجهود التي بذلها الخليفة المأمون الذي أرسل سفراءه إلى القسطنطينية وأرمينيا وسوريا ومصر، من أجل جمع الكتب... ثم أمر بترجمتها. وأضاف غيبون: "وكذلك فعل خلفاء آخرون من أجل ازدهار العلوم، فنشط الأمويون في الأندلس، والفاطميون في شمال إفريقيا، فانتشرت المعرفة وانتعشت الحضارة، وظهرت نتائج هذا الازدهار من سمرقند إلى بخارى، ومن فاس إلى قرطبة".

★★ من أقوال إدورد غيبون

- إن المعتقدات الدينية (المسيحية) التي سادت العالم الروماني، كانت صحيحة في نظر الشعب، فاسدة في نظر الفلاسفة، ومفيدة

في نظر الحكام والقضاة.

- يضعف تعاطفنا مع حالات الشقاء والمعاناة أو يزيد، وفقاً لمدى بعدها عنا أو قربها في المكان والزمان.
- يرى بعض رجال الدولة أنه لا يمكن لأية دولة أن تحتفظ بأكثر من واحد في المائة من مجموع سكانها تحت السلاح في حالة السلم، دون أن ترهقها تكاليف ذلك.
- تقلبات الدهر لا ترحم؛ إنها تدفن الإنسان والمدن والممالك في قبر واحد.
- الرياح والأمواج تقف إلى جانب الملاح الماهر.
- كل ما يصنعه الإنسان يتدهور إن لم يتطور.

صمويل تايلر كولريديج

S.T. Coleridge

شاعر موهوب، ناقد، وفيلسوف الحركة الرومانسية. فصيح اللسان، قوي الذاكرة، عميق الخيال. أنهكه الفقر والمرض وتناول الأفيون. وعرقل قدراته ضعف العزيمة وعدم المثابرة والانضباط، وكثرة المشاريع وقلة الإنجاز، وعدم الثقة بالنفس، وشدة الحساسية، ومشاكل الزواج، وعدم الاستقرار وغير ذلك، فضاعت مواهبه وجاء إنتاجه الجيد من الشعر ضئيلاً، نحو ثمانين قصائد، ومع ذلك اعترف له بأنه من أبرع شعراء الرومانسية.

ولد كولريديج سنة 1772 في ديفونشاير، بانكلترا. وكان أصغر إخوته البالغ عددهم أربعة عشر. وكان أبوه من رجال الدين ومدير مدرسة. وكان كولريديج منذ صغر سنه مولعاً بمطالعة الكتب. وبعد وفاة أبيه، وعمره لا يتجاوز تسع سنوات، وضع في مدرسة خيرية. ثم التحق بجامعة كامبردج على نفقته، فعاش في ظروف مادية قاسية وتراكت عليه الديون. ويروى أنه نال وساماً عن قصيدة كتبها حول تجارة العبيد، ثم حصل على منحة دراسية.

وفي نوفمبر من عام 1793، غادر الجامعة والتحق بالجيش، على الرغم من أن هذا العمل ليس من طبعه، ولا ينسجم مع حساسيته. وساعد بعض الأصدقاء على تخليصه من الجيش، فعاد إلى كامبردج، ولكن لم تطل بالجامعة إقامته هذه المرة أيضاً.

وفي نوفمبر عام 1794، كان عمره 22 سنة، عندما تعرف على الشاب الشاعر R. southey⁽¹⁾، وفكر الشابان في إنشاء مجتمع مثالي صغير على ضفاف نهر في ولاية بنسلفانيا بالولايات المتحدة. أطلق الشاعران على هذا المجتمع (الخيالي) اسم Pantisocracy، ويعيش فيه الناس في ظروف الحرية والمساواة. وشرعاً في تجنيد أقرب الناس إليهما، ونهضا لإلقاء محاضرات بهدف جمع المال الضروري لإنجاح المشروع، فلم يحالفهما النجاح. وتزوج كولريديج عام 1795، فبدأت أعباء الزواج تثقل كاهله، وقد صديقه ساوذي اهتمامه بالمشروع المذكور.

وفي السنة المذكورة تعرف كولريديج على الشاعر الشهير وردزورث Wordsworth وعلى أخته دوروثي. وانتقل هذا الأخير وأخته إلى منزل قريب من كولريديج، وكان ثلاثتهم يقومون بجولات طويلة بين أحضان الطبيعة، ويتناقشون في موضوعات أدبية. لقد كان كولريديج شاعراً ذكياً، حساساً، غير أنه لا يركز على موضوع محدد حتى نهايته، كانت تنقصه إرادة المثابرة والالتزام بموضوع واحد. ولهذا كان لصداقته مع وردزورث وأخته تأثير إيجابي كبير في تشجيعه على المواظبة. ووضعوا خطة لإصدار كتاب "القصائد القصصية الغنائية" سنة 1798، التي تضمنت قصيدة كولريديج الرائعة "الملاح العجوز"⁽²⁾.

وهكذا كانت صداقة كولريديج مع الشاعر وردزورث وأخته مصدر استقرار ومنبع إلهام، كما كان للأول تأثير إيجابي على شعر الأخير. وخلال المجاورة وتبادل الآراء بين الشاعرين، من سنة 1797 إلى 1803،

(1) شاعر ارتبط اسمه بكولريديج في المشروع المذكور، وقد اهتم برعاية أسرة كولريديج بعد سنة 1804.

(2) The Ancient Mariner.

أنتج كولريديج أفضل قصائده. من ذلك مقطوعة كوبلاي خان (Kubla Khan)، والجزء الأول من حكاية "كريستابيل"، بالإضافة إلى حكاية "الملاح العجوز" المذكورة.

وفي سنة 1798 حصل على منحة مالية من أسرة وَدْجُود (Wedgwood) مكنته من السفر إلى ألمانيا، وكان في المرحلة الأولى من سفره بصحبة الشاعر وردزورث وأخته. وقد استغل هذه الزيارة للاطلاع على كتابات بعض الفلاسفة الألمان. وبعد عودته ترجم ونشر مسرحيتين للكاتب الألماني فريدريتش شيلر. كما نشر الجزء الثاني من حكاية كريستابيل.

اعتاد كولريديج على تناول الأفيون للتخفيف من آلام الروماتيزم. ولم ينعم بالاستقرار في حياته الزوجية، بل تضاعفت متاعبه عندما اكتشفت زوجته أنه وقع في حب سارة، أخت زوجة الشاعر (والصديق) وردزورث. والواقع أنه بعد عام 1804 كان نادراً ما يزور أسرته، وترك لصديقه الشاعر ساوذي مسؤولية رعايتها. وساءت علاقته مع وردزورث، فزاد شعوره بالقلق والمرارة، ولجأ إلى مزيد من الأفيون ليخفف من آلامه النفسية.

فكر كولريديج في أن يبتعد عن هذه المشاكل، وأن يذهب إلى مناخ دافئ آملاً أن تتحسن صحته. فسافر عام 1804 إلى مالطا حيث عين في وظيفة سكرتير لدى البعثة الدبلوماسية الإنكليزية. وبعد انتهاء مهمته في مالطا، قضى بعض الوقت متجولاً في إيطاليا. واثراً عودته إلى انكلترا، عام 1806، قرر أن ينفصل نهائياً عن زوجته. وبدأ يلقي محاضرات عن الشعراء الإنكليز في المعهد الملكي (عام 1808). وفي

العام التالي شرع في إصدار جريدة أسبوعية تدعى "الصديق" وتهتم بالموضوعات السياسية والأدبية، غير أنها لم تعمر طويلاً. وفي سنتي 1811 - 1812 ألقى الشاعر سلسلة أخرى من المحاضرات حظيت بحضور جمهور كبير.

ومن مؤلفاته الأخرى، بالإضافة إلى ما ذكر:

- فمن قصائده الغنائية: قصيدة "الاكتئاب"، وفيها يعبر الشاعر عن حالته النفسية السيئة، وعن مرارة الحياة الزوجية؛ وقصيدة "الصقيع عند منتصف الليل"؛ وقصيدة "شجرة الزيزفون تُعرّش سجنني".

- مسرحية "الندم" التي تعاون مع الشاعر لورد بايرون على تأليفها.

- "السيرة الأدبية" في النقد الأدبي، أوضح فيه فلسفة الحركة الرومانسية، كما يتضمن تحليلاً هاماً لفلسفة Kant، Fichte، Schelling.

قضى كولريديج السنوات الأخيرة من حياته في منازل الأصدقاء. وابتداءً من عام 1816 أقام بمنزل الطبيب الجراح James Gillman بالقرب من لندن. وفي سنة 1824 نال بعض الاعتراف عندما انتخب عضواً في الجمعية الملكية الأدبية، وبذلك حصل على منحة سنوية قدرها 105 جنيهات. توفي كولريديج في شهر يوليو (جويلية) من عام 1834.

حكاية (الملاح العجوز) The Ancient Mariner

تعتبر قصيدة الملاح العجوز للشاعر Coleridge إنجازاً رائعاً في الأدب الإنكليزي. فقد نجح الشاعر في خلق عالم الخيال الحيّ، وخورق الطبيعة التي تشبه الحقيقة، وصور جذابة بألوان زاهية، ومشاهد بين البحر والسماء تحسبها تارة أشباحاً وطوراً حقيقة، ونسج كل ذلك في جو سحري.

وإليك خلاصة عن حكاية الملاح العجوز.

بينما كان ثلاثة رجال يتوجهون إلى حفلة زواج، استوقف الملاح أحدهم، وحدث فيه بعينيه اللامعتين ليقص عليه حكايته. جلس الرجل على صخرة وأنصت إليه كأنه طفل صغير.

أبحرت سفينتنا وكانت السماء صافية، والرياح مواتية. اتجهنا نحو الجنوب. وتابعت الشمس رحلتها يوماً بعد يوم، تصعد على يسارنا، وتغرب في البحر على اليمين. وذات يوم هبّت رياح عاصفة فدفعت سفينتنا بقوة. وظلت العاصفة تلاحقنا إلى أن رست سفينتنا وسط ثلوج القطب الجنوبي. كان الجليد يحيط بنا من كل جانب، تلمع على سطحه ألوان خضراء تشبه لون الزمرد، واشتد البرد، وأحاط بسفينتنا ضباب، في منطقة لم نشاهد فيها مخلوقاً حياً خارج مركبنا.

وفجأة شاهدنا من خلال السديم طائراً يحوم فوق رؤوسنا. فرحب الملاحون بهذا الكائن الحيّ المبارك، وحييناه باسم الرب كأنه

يد مسيحية أرسلت لإنقاذنا، وقدمنا له طعاماً مما نأكل ... وهبّت ريح جنوبية فتحرّكت سفينتنا ببطء، وسط كتلة الجليد، مدفوعة نحو الشمال. وتبعنا طائر القطرس (Albatros)، طيلة تسعة أيام. وذات يوم أخذت قوسى ورميته بسهم فقتلته، من غير سبب واضح. وثار الملاحون يؤنبونني على قتل هذا الطائر المبارك. ولكنهم برّروا فعلتي بعد ذلك بقولهم إن الطائر هو الذي جلب الضباب والسديم الذي أحاط بالسفينة. وبذلك أصبحوا شركاء في فعلتي الشنيعة.

ظلت روح الطائر الطيبة تقود السفينة نحو الشمال إلى أن بلغت خط الاستواء، فبدأت تظهر آثار الشؤم وعواقب الاعتداء على الطائر المبارك. انقطع الهواء، وسكنت الرياح، ووقفت السفينة جامدة كأنها صورة على لوحة في عرض المحيط، والشمس فوق رؤوسنا كأنها قطعة نحاس ساخن. تجمدت أسننتنا وجفت أفواهنا فلم نستطع الكلام. الماء يحيط بنا ولا نجد قطرة للشراب. وثار الملاحون مرة أخرى، ووجهوا اللوم لي، وعلقوا الطائر حول عنقي.

وبعد متاعب ومعاناة شديدة، شاهدنا فجأة شبحاً يتحرك في اتجاهنا. ثم تبين لنا أنها سفينة، أو شبح سفينة، وكيف تتحرك سفينة بدون ريح ولا موج. واقتربت السفينة فشاهدنا على ظهرها شبحين فقط: شبح الموت، وشبح امرأة (تمثل الحياة في الموت) نظراتها تلقائية، شفهاها بلون أحمر، شعرها أصفر ذهبي، وبشرتها بلون البرص. كانت المرأتان تتسليان بلعبة النرد لتقررنا مصيرنا جميعاً: هل هو الموت أو الحياة. واستطاعت صاحبة الحياة في النهاية أن تنقذني من الموت.

وعندما أسدل الليل ستاره بدأت أرواح البحارة تتطاير من أجسادهم، واحداً تلو الآخر، صاعدة نحو الرحمة أو العذاب، وأنا أشعر بمرورها فوق رأسي، كأنها صوت السهم الذي رميت به الطائر المبارك. بقيت وحدي وسط جثث رفاقي البحارة، الطائر معلق حول عنقي. جف حلقي وثقل لساني فلم أستطع أن أتلفظ بعبارات الدعاء والصلاة، وظللت أعاني من الرعب طيلة سبعة أيام.

وفي اليوم الثامن شاهدت أن كائنات البحر تتراقص مرحة حول السفينة، وتغير المشهد فانفجرت نفسي بموجة من الفرح، وانحلت عقدة لسني فنطقت بالدعاء، وباركت تلك الكائنات الحيّة من حولي، وسقط في البحر الطائر المعلق حول عنقي. وهبت ريح طيبة، وبدأت السماء تمطر، وأخذت السفينة تتحرك نحو الشمال. نهض البحارة (أو أشباحهم) من سباتهم، والتحقوا بأماكن عملهم، من غير أن ينبس أحدهم بكلمة. وبدا لي كل شيء وكأن الجنون والملائكة تسيطر على السفينة وتقودها نحو الشمال.

زاد اطمئناني الآن، وغلبني التعب فنمت نوماً عميقاً. وتركت للأرواح الطيبة رعاية السفينة ومن فيها. وعندما استيقظت لاحظت أن السفينة اقتربت من مسقط رأسي. والتفت حولي فرأيت أجسام الملاحين الموتى ملقاة على ظهر السفينة، وعلى جثمان كل بحار روح ملائكية.

سارع مرشد المرفأ ومعه ناسك عجزوا إلى ملاقة السفينة، وما إن انتقلت إلى قارب المرشد حتى غرقت السفينة بمن فيها في لحظة.

وكان عقابي على قتل ذلك الطائر الميمون أن أقصّ حكايتي على

كل من يستمع إليّ، وأن أذكره بأن من أفضل الصلوات أن يحب المرء مخلوقات الرب جميعها من بني الإنسان، والطيور والحيوانات البرية والبحرية، صغيرها وكبيرها، فالله هو الذي خلقها، وهو يحب جميع مخلوقاته دون تمييز.

توماس دي كوينسي

Thomas De Quincey



كان هذا الأديب ضعيف البنية، قصير القامة، وسيم الطلعة، رقيق المشاعر، فصيح اللسان، مدمناً على الأفيون، يميل إلى العزلة، ولكنه يحب الناس ويحبونه.

ولد دي كوينسي في انكلترا، بالقرب من مانشستر، سنة 1785. كان الخامس بين ثمانية أطفال. وقد أنجب هو كذلك ثمانية أطفال. كان أبوه تاجراً ناجحاً، أصيب بداء السل؛ وترك بعد وفاته دخلاً كافياً للأسرة، فلم تعان من الفقر. كان سنه 13 عاماً عندما أصابه المعلم بضربة قوية كانت موجّهة إلى تلميذ آخر؛ وقد تطلب علاجه فترة طويلة. ومما لوحظ عليه أثناء تعليمه الأول أنه تفوق في تعلم اللغتين اللاتينية واليونانية، وأنه كان يفرّ من غرفة الدراسة.

لم يرق لدى كوينسي تحكم الأوصياء في ماله وفي تصرفاته، فذهب ذات يوم إلى لندن، وكان عمره 17 سنة، غير أنه عاش هناك فترة عصيبة، في فقر شديد، وسط المشردين، من بينهم فتاة عاهرة تدعى Ann. وعاد إلى أسرته، وخصّصوا له نفقة قدرها مائة جنيه في السنة، بعد أن قبل شرطهم بأن دخل جامعة أكسفورد سنة 1803. وفي العام التالي، بدأ يتناول الأفيون ليسكن آلاماً عصبية كانت تصيبه؛ وظلت هذه العادة ترافقه طوال حياته.

وبعد أن غادر الجامعة التقى بالشاعر Coleridge، وزارا الشاعر الشهير Wordsworth، وقرر أن يستقر بالقرب منهما، في منطقة ((البحيرة))، شمال ليفربول. وهناك تزوج Margaret Simpson، وبدأ يعمل محرراً لمجلة Westmorland Gazette.

وبمرور السنين ازداد تعاطيه للأفيون، ونمت أسرته، وتضاعفت متاعبه، وبدأت ظروفه المادية تسوء. وبدأ ينشر مقالاته عن ((اعترافات مدمن على الأفيون)) سنة 1821، فقال نجاحاً كبيراً، وراح يساهم في مجلات عديدة.

وفي عام 1830، انتقل إلى Edinburgh، وتصادق مع الكاتب Carlyle، وواصل الكتابة والتأليف، غير أنه ظل يزرع تحت أعباء الديون. وعندما توفيت زوجته سنة 1837، تولت ابنته الكبرى رعاية الأطفال. وقضى دي كوينسي السنوات العشر الأخيرة من حياته معتكفاً على جمع إنتاجه وإعداده، إلى أن وافته المنية سنة 1859.

كتب دي كوينسي في النقد الأدبي، والسير، والتاريخ، وغير ذلك. ومن أشهر مؤلفاته:

- ((اعترافات إنكليزي مدمن على الأفيون))، سنة 1821، تحدث فيه عن طفولته وتجاربه وأصدقائه، وعن تطور عادة تناوله للأفيون. وكان هدفه أن يحذر الناس من أخطار تناول الأفيون.
- ((تهنئات من الأعماق)) ويعتبر تكلمة للكتاب السابق، ويصف فيه بعض أحلام أكل الأفيون.
- ((من ذكريات البحيرة))، يتناول فيه حياة شعراء البحيرة، نشر بين 1834 - 1840. ولم يلتزم في تأليفه هذا بالموضوعية المطلوبة مما أدى إلى انزعاج أصدقائه من شعراء البحيرة.

★ اعترافات انكليزي مدمن على الأفيون⁽¹⁾

للأديب دي كوينسي

★ الآلام التي يسببها الأفيون

مايو 1818 على القارئ أن يتخيل جميع ما استطعت أن أعبر عنه، وكثيراً مما لم أقدر على وصفه، عله يدرك الرعب اللانهائي الذي كانت تطبعه في نفسي المشاهد الشرقية الشريرة المرعبة، وأنواع التعذيب الأسطورية، تحت حرارة الشمس الملتهبة والأشعة العمودية، في مناطق نائية في الصين وهندوستان. فقد تجمعت حولي مخلوقات متنوعة من الطيور والحيوانات الوحشية والأفاعي، والأشجار والنباتات الغريبة التي توجد في المناطق الاستوائية.

وفي ظلال خيالية مرعبة ومشاعر مشابهة، جمعت مصر وآلهتها، كانت القردة وأنواع الببغاوات تصرخ من حولي وتكشر في وجهي. ثم دخلت مباني الباغودات⁽²⁾، وصُلبت طيلة سنين فوق القمم؛ ودفنت في غياهب عزف سرية. كنتُ أحياناً الرمز والكاهن والمعبود، وأحياناً أخرى الضحية. هربتُ من نقمة براما⁽³⁾ إلى متاهات غابات آسيا. غضب على الإله فيشنو، وتصيّدني الإله شيفا،⁽⁴⁾ ثم مثلتُ فجأة أمام الإله إزييس والإله Osiris، فقالا لي: لقد ارتكبت فعلة ارتجف لها إبيس (IBIS)⁽⁵⁾، والتمساح. عشتُ آلاف السنين، ثم دُفنتُ في توابيت

(1) مقتبس من كتابه المعروف بهذا العنوان.

(2) معابد وهياكل مشهورة في الهند والصين واليابان وغيرها.

(3) أحد الآلهة الهندوسية.

(4) فيشنو وشيفا من الآلهة الهندوسية كذلك.

(5) نوع من الطيور المقدسة في مصر القديمة.

صخرية، ومعني موميات وكائنات أسطورية مخيفة داخل غرف ضيقة في قلب الأهرامات. وطبعت التماسيح قبلا سرطانية على جسدي، وألقيت في وحل النيل بين القصب وسط مخلوقات غريبة مرعبة.

وكان يحوط بي شعور غريب بالأبدية، يسيطر على أصناف التهديدات وأنواع العقاب، وعلى دهاليز السجون المظلمة. وقليلاً ما كانت هذه الأحلام المروعة تشتمل على إرهاب جسدي، بل كانت آلام الرعب معنوية وروحية. وكانت الأشكال المروعة تأتي في صور أفاعي وطيور وتماسيح قبيحة ومخيفة. وكنت أفرّ أحياناً فأجد نفسي في بيوت صينية تتحول فيها أرجل الطاولات والكراسي إلى أفاعي ومخلوقات مرعبة وتماسيح شنيعة، وأنا واقف وسطها مشمئزاً مذعوراً مسحوراً.

وفجأة سمعت أصواتاً لطيفة تخاطبني (أسمع كل شيء وأنا نائم). استيقظت فوراً. كان الوقت منتصف النهار، وكان أطفالني واقفين إلى جانب سريري. ارتدوا ملابسهم الجديدة، وجاءوا يسألونني أن أرافقهم في جولة. لقد كانت حالي مثيرة للشفقة والدهشة عندما انتقلت فجأة من دهاليز الظلام اللانهائي إلى النسيم المنعش في ظهيرة الصيف المبهج، ومن مشاهد المخلوقات المرعبة إلى مشهد الطفولة البريئة ومحيط المخلوقات البشرية.

★ أدب المعرفة وأدب القوة⁽¹⁾

يحاول دي كوينسي في مقاله هذا تعريف الأدب فيقول متسائلاً: ماذا نعني بعبارة ((الأدب))؟ ويجب أن من الشروط الأساسية أن يتضمن الأدب عناصر عامة ومشتركة بما يحتاجه الإنسان. فما يتناول مصلحة شخصية محدودة أو مهنية محلية لا يندرج ضمن مفهوم الأدب، ولو طبع في شكل كتاب. وعلى عكس هذا نجد كثيراً مما يدخل في مجال الأدب لا يصل إلى الجمهور في شكل كتاب. ويضرب المؤلف مثالا على ذلك تلك الخطب الشائعة التي يلقيها رجال الكنيسة أيام الأحاد، على مستوى العالم، وهي خطب تؤثر في أفكار الجماهير، غير أنها لا تصل إلى الأسواق في شكل كتاب.

ويتحدث المؤلف عن الموضوعات التي يتناولها الأدب، والأهداف التي يرمي إلى تحقيقها، فيقسمه إلى نوعين: أدب المعرفة وأدب القوة، معترفاً بأن بين النوعين تداخلاً وتشابكاً في بعض الحالات.

وظيفة أدب المعرفة هي ((التعليم)) في أوسع معانيه. ووظيفة أدب القوة هي تحريك المشاعر، وتحفيز الهمم والعزائم. يشبه النوع الأول بدفة المركب، والنوع الثاني بالمجداف أو الشراع. فأدب المعرفة يتحدث إلى العقل المنطقي لتثبيت المعارف والحقائق، وأدب القوة يخاطب الروح الإنسانية النبيلة والعقل السامي، ولكن عن طريق المشاعر والوجدان والأحاسيس الإنفعالية.

ويتابع دي كوينسي شرحه لفكرة أدب القوة فيقول: من وقائع

(1) مقتبس من مقال ((أدب المعرفة وأدب القوة))، للأديب دي كوينسي.

الحياة وحقايقها ما هو على مستوى أدنى، ويعتريه التغيير بمرور الزمن. ولكن من سمات الحقايق السامية في الحياة أنها تحتل مكانة عظيمة في النفس البشرية، وأنها لا تتأثر بمرور الزمن، وإن كانت تخضع لقانون التطور. ويضرب المؤلف مثالا على ذلك مدى تأثير الأطفال على حياة الأسرة والمجتمع بما يثيرونه من شفقة وحنان، بسبب ما يتصفون به من عجز وبراءة وضعف، وبساطة وسذاجة، فتقوى هذه الصفات المشاعر الطيبة نحوهم، وتدعم رعاية الكبار لهم، وتكتب لها التجدد والاستمرار في مختلف الأزمنة.

ولا شك في أن هذه المشاعر النبيلة والسلوك الأخلاقي السامي يدخل في نطاق أدب القوة، ويجد مجاله الحيوي في استثارة طاقات الإنسان العميقة الخلاقة التي تتحول إلى نشاطات حيوية ملموسة فتنتعش وتنمو وتثمر. ويضيف الكاتب ((ألا ترون أن الكتب السماوية نفسها، عندما تخاطب الإنسان لا تكفي بمخاطبة العقل وحده، بل تجعل من قلبه الواعي عنواناً على طاقاته النفسية ومشاعره الروحية القادرة على إدراك ملكوت الكون اللانهائية. وكذلك نلاحظ أن الروايات والمسرحيات عندما تمثل آمال الإنسان ومخاوفه وغرائزه ... وتحرك في نفسه بواعث الخطأ ومنايع الحق والصواب، تحي في قلبه منابع الخير والفضيلة، وتخفف من حوافز الشر والفساد، وبذلك تنقذ المبادئ الإنسانية من الذبول والانقراض.

وفي معرض الحديث عن ((أدب المعرفة أو أدب التعليم)) يذكر دي كوينسي أن مجالات العلم تتطور باستمرار، وأن أعظم المؤلفات العلمية اليوم قد تقل فائدتها وتخفض جدواها بمرور الزمن، إذ يكفي أن يحصل تجديد في المعرفة، أو في جانب من جوانبها ليفقد الكتاب السابق

أهميته. ويضرب مثلاً على هذا كتاب إسحاق نيوتن The Principia الذي ظل يكافح من أجل بقائه أولاً ككتاب يتناول الحقائق المطلقة، وبعد ذلك فيما يتعلق بطريقة عرضه للحقائق التي توصل إليها. وعندما جاء عالم آخر بمعلومات جديدة في هذا الميدان طرح كتاب نيوتن في زاوية لا تكاد تصلها أشعة الشمس.

«وعلى عكس ذلك تماماً نجد أن مؤلفات أدب القوة، أدب المشاعر الفياضة والحماس، أدب الأخلاق ... مثل الإلياذة، ومسرحيات شكسبير، وقصة الفردوس المفقود (لجون ملتون)، هي من الأدب الخالد الذي لا يعتره التغيير، ولا يتعرض للبلبي ولا ينقص من أهميته مرور الزمن. لنأخذ تمثالا لميكيل أنجلو مثلاً، هل يمكن أن يحل محله تمثال لنان آخر أو ينقص من قيمته؟ إن هذه التحف الفنية من تماثيل ولوحات ومسرحيات وروايات ... تقاس بمعايير أخرى غير المعايير التي تقاس بها كتب التعليم. فهي تقدر بما تتضمنه من مميزات وبما تمتاز به من اختلافات، وليس بما تحتويه من مشابهاة. فأعمال الإنسان الخالدة مثل تحف الطبيعة لا يمكن أن تكرر النموذج نفسه، ولا يمكن نسخها، ولا فك سر اختلافاتها، ولا مقارنتها بغيرها».

توماس كارليل

Thomas Carlyle

وولد كارليل سنة 1795 بقرية جنوب سكوتلندا، وكان أكبر إخوته. وكان أبوه يعمل في البناء، ثم تحول إلى الزراعة. وكان من أتباع المذهب البروتستانتي. بدأ كارليل تعليمه في مدرسة الأبرشية، ثم في أكاديمية أنان Annan. وعلى الرغم من فقر أسرته بذل أبواه جهدهما لتمكينه من مواصلة تعليمه العالي في ميدان علوم اللاهوت.

وفي سنة 1809، سار الشاب كارليل على قدميه عشرات الأميال ليواصل تعليمه في جامعة Edinburgh. وبعد فترة بدأ يخامر الشك في صلاحيته لأن يواصل هذا النوع من الدراسة، وشعر بالميل إلى دراسة الأدب.

وفي 1819، بدأ يدرس اللغة الألمانية، وكان مشغولاً بقراءة غوته وغيره من الكتاب الألمان، كما تأثر بفلسفة كانت وفخته Fichte، وانخرط في سلك التعليم، وساهم بمقالات في إحدى الموسوعات.

وفي 1823، كتب سيرة فريدريك شيلر، ثم ترجم رواية للكاتب الشهير غوته. وقرر أن يستقر في لندن حيث تعرف على عدد من الكتاب، منهم Coleridge. ولكن لم ترق له الحياة في لندن، فعاد إلى مسقط رأسه. ولسوء حظه بدأ في هذه السن المبكرة يعاني من الأرق وسوء الهضم، وظل كذلك طوال حياته.

تزوج عام 1826 من السيدة جين ويلش Welsh. وكان قد تعرف عليها قبل ذلك بأربع سنوات. كانت جين امرأة ذكية مثقفة، ذات شخصية قوية. وتعتبر من أحسن من كتبوا الرسائل باللغة الإنكليزية.

في سنة 1827، أنهى كارليل ترجمته المعنونة German Romance التي تشتمل على أعمال لـ Richter، Goethe، Tieck، و Hoffman وغيرهم. ونشر رسالة عن ((حالة الأدب الألماني))؛ وتلا ذلك رسائل عن حياة غوته وعدد من أعماله. وله رسالة عن كتاب ((حياة الدكتور جونسون)) الذي ألفه الأديب بوزويل.

وفي عام 1834، استقر مع زوجته في لندن حيث قضيا بقية حياتهما. وبدأ كارليل يعمل على إعداد أهم مؤلفاته ((الثورة الفرنسية)). ومن مؤلفاته:

– Heroes/and/hero/worship (الأبطال وعبادة الأبطال) وهي سلسلة من المحاضرات تحدث فيها عن عظماء الرجال الذين وجهوا مجرى التاريخ، ومنهم شعراء مثل دانتي؛ وشكسبير؛ وكتاب مثل روسو؛ ورجال الدين مثل لوثر؛ وقواد مثل كرمويل؛ ونابليون؛ كما يتناول حياة الرسول محمد ﷺ؛ ويدعو إلى تقديس هؤلاء العظماء، والافتداء بهم من أجل تطوير البشرية.

– وله كتاب Past and Present (الماضي والحاضر)، يهاجم فيه الديمقراطية، والنهضة الصناعية، وما يعانيه العمال من مظالم. ويدعو إلى توسيع نطاق التعليم وتحقيق العدالة الاجتماعية.

– ومن مؤلفاته Sartor Resartus وفيه ينتقد الحياة المتحضرة

الاصطناعية، وخداع المظاهر، ويشرح كيف يختفي الناس وراء أقتعة المظاهر والملابس المزخرفة. ويعبر فيه عن حياته الروحية، وما يخامرها من صراعات.

وله مؤلفات أخرى مثل ((أوليفر كرومويل))، و((فريدريك الأكبر)). كما كتب تعليقاته على الرسائل الرائعة التي تركتها زوجته بعد وفاتها عام 1866، ونشرها. وأهم مؤلفاته كما سبق هو كتابه عن ((الثورة الفرنسية)). ويروى أنه عندما أنهى الجزء الأول منه، أرسله إلى صديقه جون ستيورت ميل، (وهو في شكل مخطوط)، فظنّت الخادمة أنه مجرد ورق يصلح لإشعال النار؛ ونهض كارليل لكتابته من جديد؛ وانتهى من تأليف الأجزاء الثلاثة عام 1837، فحقق به نجاحاً كبيراً.

يبدأ كارليل كتابه بوفاة الملك لويس الخامس عشر، سنة 1744، ويتناول حكم لويس السادس عشر؛ ومجلس طبقات الأمة؛ سقوط سجن الباستيل؛ الجمعية التأسيسية؛ الجمعية التشريعية؛ هروب الملك إلى Varennes؛ المؤتمر الوطني؛ محاكمة الملك والملكة وإعدامهما؛ وعهد الإرهاب وسقوط روبسبير. وينهى المؤلف كتابه بقضاء نابليون على تمرد Vendemiaire في شهر أكتوبر من عام 1795.

ويقدم كارليل للقارئ وصفاً رائعاً لشخصيات هامة مثل الملك لويس السادس عشر؛ ميرابو؛ روبسبير؛ لافايت؛ دانتون؛ ويصف مشاهد الثورة، والمسيرة نحو سجن الباستيل وغيرها.

توفي الكاتب المؤرخ توماس كارليل في لندن، في شهر فبراير (فيفري) من عام 1881.

فيما يلي نبذة من كتاب توماس كارليل:

الثورة الفرنسية

(القسم الثالث، الفصل السابع)

ساحة الثورة⁽¹⁾

يسود الشوارع صمت رهيب مثل صمت القبور. لا يسمح لأي رجل من غير حاملي السلاح أن يوجد في ذلك المكان. ولا يجراً أي رجل مسلح أن يعبر عن تعاطفه، إن كان في قلبه شيء من ذلك. جميع النوافذ مغلقة، ولا يوجد أي شخص ينظر من خلالها. جميع الحوانيت مغلقة؛ ولا تشاهد أية عربة في الشوارع هذا الصباح، ما عدا عربة واحدة.

ثمانون ألف رجل مسلحون يقفون في صفوف كأنهم تماثيل؛ المدافع جاهزة ورجالها على استعداد؛ ولكن السكون شامل فلا تسمع كلمة ولا تشاهد حركة: كأن ساحراً جباراً حول المدينة إلى كتل من الحجارة. لا يسمع إلا صوت واحد: قعقة عربة واحدة تسير ببطء، ترافقها حاميتها.

لويس يقرأ كتاب التقوى⁽²⁾ (صلوات من يقترب من الموت). وفي هذا السكوت المخيف، تحدث قعقة عربة الموت وخزاً حاداً في الأذان. ولكن النفس تفكر مسرورة في الصعود إلى السماء لتنسى الأرض.

(1) يصور الكاتب في هذه الفقرات مشاهد الدقائق الأخيرة قبل إعدام الملك لويس السادس عشر، ملك فرنسا.

ساحة الثورة، قبل ذلك ساحة لويس الخامس عشر، دقت الساعة العاشرة، المقصلة منصوبة قرب المكان الذي يوجد فيه تمثال لويس المذكور؛ المكان حول المقصلة يعج بالمدافع والرجال المسلحين، وراءهم جماهير المتفرجين.... لويس يقرأ كتاب الصلوات، غير مبال بما حوله. بعد خمس دقائق توقف عن القراءة، فتح باب العربة: ترى ما حالته النفسية؟ لو سألت عشرة من الحاضرين لأعطاك كل واحد منهم وصفاً مختلفاً عن حالته: إنه يعيش خليطاً من الانفعالات. لقد اقترب الآن من عتبة الموت، إنه في خضم من الحيرة والنقمة والحزن، وهو يصارع نفسه لكي يستسلم للقضاء المحتوم.

دقت الطبول، فصرخ لويس بصوت مروع: سكوت! صعد المنصة التي نصبت عليها المقصلة بشيء من التراخي. كان يرتدي معطفاً أحمر داكناً، وبنطلوناً رمادي اللون، وجوربين بلون أبيض. نزع لويس معطفه، وبقي في صدرية بيضاء. اقترب منه الجلاد ليربط يديه، فرفض ذلك وقاوم. ذكره القس كيف أن المسيح عليه السلام لم يقاوم من ربطوه. ربطت يده، بقي رأسه مكشوفاً.

دقت لحظة التنفيذ الحاسمة، تنفيذ الإعدام. فتقدم إلى حافة منصة المقصلة. كانت تغشى وجهه حمرة شديدة. قال: أيها الفرنسيون، أموت وأنا برئ، أقول لكم هذا وأنا أمام المقصلة، على وشك أن أمثل أمام الله. أسامح أعدائي، أتمنى لفرنسا... تقدم جنرال على جواده ورفع يده صارخاً: أيها الجلادون أنجزوا عملكم. أمسك ست منهم لويس، سيئ الطالع، وهو يتخبط يائساً، وربطوه إلى خشبة المقصلة. انحنى عليه القس قائلاً: يا ابن القديس لويس اصعد إلى السماء. سقطت المقصلة على عنقه، فانتزعت حياة ملك.

حدث ذلك يوم الاثنين، 21 يناير (جانفي)، من عام 1793، وكان عمر لويس 38 سنة، 4 أشهر، و28 يوماً.

★★ من أقوال توماس كارليل

- هو ذا فجر يوم جديد يطل عليك، فهل تتركه يمر دون أن تنجز عملاً مفيداً؟
- العمل أشبه بالبذور، ينمو وينتشر، ويزرع نفسه من جديد.
- الإنسان الذي يضحك ضحكة صادقة من أعماق قلبه، لا يحق لنا أن نقول: لا خير يرجى منه.
- لنحكم على شخص حكماً سليماً ينبغي لنا أن نذكر حسناته، قبل أن نحاسبه على سيئاته.
- النار أفضل خادم، ولكنها أسوأ سيّد.
- الموسيقى لغة الملائكة، والسخرية لغة الشيطان.
- الحب بداية المعرفة، كما أن النار بداية النور.
- الفكاهة (النوادر) الحقيقية تتبع من القلب أكثر مما تتبع من الدماغ، وهي تعبر عن الحب لا عن الكراهية، وينبغي أن يكون هدفها أن تشر الابتسامة، قبل أن تفجر الضحكات.
- إن أكبر مأساة أن يموت المرء جاهلاً، وهو قادر على التعليم.
- ما هو الإنسان؟ طفل أحمق، يشاكس ويقلق ويطلب كل شيء، وفي نهاية المطاف لا يستحق سوى حفرة.
- إذا تجاهلتِ الفنونُ الجميلة الحقيقةَ تصبح مجنونة، هذا إذا لم تمت.

- طوبى لمن وجد عملاً يناسبه، فليس له أن يطلب أكثر من ذلك.
- أنتج! أنتج! أنا شكك الله، أنتج ولو شيئاً صغيراً من أي شيء.
- في كل مكان يقف الإنسان بين عالمين متصارعين: عالم حرية الإرادة وعالم الجبرية.
- الرجل الذي لا يستطيع أن يضحك تكون حياته مخادعة وخيانية.
- أشد ما يضحك في حكاية عيسوب⁽¹⁾ قول الذبابة وهي واقفة على محور العربة: ياله من غبار استطعت أن أثيره وحدي.
- الإنسان حيوان يعتمد على الآلة. إنه صغير القامة، ضعيف بنفسه، لا يشعر بالأمن. غير أنه باستخدام الأدوات والآلات يستطيع أن يحول الجبال إلى غبار، أن يفتل قطع الحديد كأنها خيوط من الصوف. تصبح البحار أمامه طرقاً ممهدة؛ والرياح والنار أحصنة لا تكل؛ فهو بالآلة كل شيء، وبدونها لا شيء.

(1) شخصية أسطورية تنسب إليه الحكايات اليونانية. ويقول المؤرخ هيرودوت أن عيسوب شخص حقيقي عاش في القرن السادس قبل الميلاد.

جون راسكين

John Ruskin



كاتب، فنان، ناقد، ومصلح اجتماعي شجاع. رجل كريم تبرع بمعظم ثروته للمشروعات الخيرية. يعتبر راسكين من أشهر شخصيات الإصلاح الاجتماعي، رغم ما يخالط أفكاره من مثالية. وقد ترك تأثيرات عميقة على العهد الفكتوري.

ولد راسكين في لندن سنة 1819. كان أبوه تاجر خمور ناجحاً، وكان له اهتمام بالفنون والأدب، فشجع ولده على الرسم والمطالعة. وكانت والدته سيدة مثقفة متفانية في تربية طفلها الوحيد. وكان أبواه متشددين في تربيته، فلم يسمح له بجمع الألعاب وتعلم الرقص وركوب الخيل مثل أقرانه. وحرصاً على تثقيفه فشجعه على حفظ الانجيل، وقراءة الشعر وتعلم اللغات، وقرأ عن المسرح، وتعمق في الاطلاع على الفنون الأخرى بحيث بدأ يسجل انطباعاته وسنه لا يتجاوز سبع سنوات.

تخرج راسكين من جامعة أكسفورد سنة 1842، وبدأ يكتب مقالاته عن النقد الفني. وفي العام التالي نشر الجزء الأول من كتابه Modern Painters الذي تناول فيه أعمال الفنان الشهير J.M.W. Turner. وتمتد المرحلة الأولى من نشاط راسكين حتى عام 1860، وقد ركز معظم اهتمامه على الكتابة في مجالات النقد الفني.

بعد هذه المرحلة، بدأ راسكين يوسع نشاطه ويجمع بين النقد الفني، والإصلاح الاجتماعي، والظروف الاقتصادية في بريطانيا. ومن الأمور التي انتقدها بشجاعة:

- سوء الأوضاع التي يعيش فيها العمال، وظروف عملهم؛
- الاقتصاد الذي لا يحركه إلا الربح والمصالح الشخصية، وأنانية الأثرياء وأصحاب المصانع.
- انتقد مبدأ: حرية العمل، حرية المرور، بدون مراقبة من طرف الدولة.
- دعا إلى تحقيق العدالة الاجتماعية، ودافع عن القيم الاجتماعية الإنسانية.

ومما أخذ على هذا الفنان الشجاع أن مقالاته وخطبه كانت أقرب إلى الخطب التي تلقي في الكنيسة، مفعمة بالحماس، وتصور المجتمع المثالي، غير أن كثيراً من أفكاره أصبحت اليوم تنال اهتماماً واسعاً.

وفي عام 1871، استقر في Coniston، وبدأ يصدر رسائله الشهرية الموجهة إلى "العمال والمزارعين في بريطانيا"؛ وأسّس "جمعية القديس جورج"، وكان شعاره في هذا المشروع "الخبز لا يستخرج إلا من الأرض، والسعادة لا تتحقق إلا من الأمانة". وكان يقول: إن أسْمى منابع الحكمة، وأغلى كنوز الأرض ليست بالضرورة باهظة الثمن؛ وليست مقتصرة على فئة دون غيرها. وكان أعضاء الجمعية المذكورة يقدمون عشر ثرواتهم للمشروعات الخيرية.

وقد ورث راسكين ثروة عن أبيه أنفق معظمها على المشروعات الخيرية والثقافية، كما تبرع بمبالغ مما كان يكسبه من بيع مؤلفاته لمساعدة الأصدقاء والفنانين. وإذا كانت أفكاره ومبادئه وإصلاحاته أقرب إلى عالم مثالي منه إلى الواقع في عهده، فقد أثبتت الجهود التالية سلامة تفكيره وبعد نظره.

وخلال الفترة 1869 - 1884، عين أستاذاً في جامعة أكسفورد، ونشرت محاضراته في ثمانية مجلدات. وفي سنة 1878 أصيب بنكسة صحية اضطرتته إلى التخفيف من نشاطه. وقضى راسكين السنوات العشر الأخيرة من حياته في رعاية الأصدقاء، وتوفي عام 1890.

ومن مؤلفاته، بالإضافة إلى كتابه Modern Painters المذكور:

- مصابيح الهندسة المعمارية 1849.

- سخور البندقية 1853.

- 1865 Sesame and Lilies .

- مقالات ومحاضرات.

- سيرته الذاتية (لم يتمه).

الأشياء الثمينة حقاً⁽¹⁾ جون راسكين

يوجد في العالم صنفان من الأشياء الثمينة: الأشياء التي منحنا إياها الله دون مقابل مثل النور والهواء والحياة، (أعني الحياة الفانية والحياة الخالدة)؛ والأشياء التي أعطانا إياها الرب مقابل ثمن، وهذه الأخيرة يمكن نيلها مقابل جهد وثمر. فلا المساومة ولا الغش يمكننا من الحصول على شيء من الطبيعة بنصف الثمن.

هل نريد أن نكون أقوياء؟ يجب علينا أن نعمل. هل نريد أن نجوع؟ لنا ذلك. هل نريد أن نكون سعداء؟ فلنكثر من الإحسان وفعل الخير، هل نريد أن نكون حكماء، فلنتأمل، ولنفكر فيما حولنا.

لا تظنوا أن الانتقال من مكان إلى آخر بسرعة مئة ميل في الساعة، أو صناعة القماش بنسبة مئة ياردة في الدقيقة سيجعلنا أقوى وأسعد حالاً، أو يزيد من حكمتنا قيد أنملة. لقد كان العالم ولا يزال مملوءاً بأشياء ومخلوقات يعجز المرء على التعرف على حقيقتها حتى عندما يتنقل ببطء. فكيف يحسن التعرف عليها عندما يتنقل بسرعة.

سيجد الناس، في نهاية المطاف، أن اختراعاتهم العظيمة لغزو الفضاء وقهر الزمن، في واقع الأمر لا تغزو شيئاً ولأن المفيد هو استغلالها فوق كوكب الأرض.

(1) مقتطفات من كتابه: Modern Painters (الجزء الثالث).

السعادة الحقيقية قريبة منا، ولكننا نهملها. وما لم نتعلم كيف نكون نبلاء وسعداء، فليس لدينا شيء مفيد نقدمه للهنود الحمر. إن ملذات سباق الخيل، والصيد، والسهرات الليلية، وأصناف الموسيقى التي ترهق النفوس، والملابس باهظة الثمن، والتنافس المهلك على المركز والسلطة والثروة وهتاف الجماهير، وغير ذلك .. ليس في رأي من المتع التي ينبغي أن نصدرها إلى غيرنا.

بل هناك متع أخرى بوسعنا أن ننعيم بها في هدوء واطمئنان، كأن نشاهد سنابل القمح تنمو، والبراعم تتفتح، وأن يتنفس الرجل بعمق وهو يعمل بالمحراث أو الفأس، وأن يتمتع بأن يقرأ، ويحب، ويفكر، ويأمل ويصلي .. فهذه هي المتع التي تجلب للمرء قدراً كبيراً من السعادة والاطمئنان.

إنني رجل أملك من الخيال والحماس والأمل ما يجعلني أعتقد أنه سيأتي حين يكتشف فيه الناس مغزى ما قدمت.

حول التربية والتعليم⁽¹⁾ جون راسكين

يمكن القول بصورة عامة أن عناصر التربية والتعليم الأساسية تلخص كآلاتي:

” ينبغي أن يدرّب بدن الطفل ليكون في أكمل صورة وأجمل هيئة. ومن الشروط الصحية أن تكون المدرسة في الخلاء، وسط قطعة أرض واسعة، بعيدة عن الهواء الملوّث والمناطق الصناعية“.

ويتحدث الكاتب عن مواد التعليم التي تنمي الفكر والتدريبات البدنية مثل الركض، والهجوم، والدفاع وغيرها.

ثم يتناول راسكين التربية الأخلاقية فيتحدث عن صفتين يعتبرهما في طبيعة الأخلاق الفاضلة:

- تعليم الطفل كيف يحترم الناس ويقدرهم.

- تعليم الطفل وتدريبه على صفة العطف والرحمة ..

” فيما يتعلق باحترام الناس نبدأ بتدريبهم على تقدير أساتذتهم، ونجمع لهم أمثلة صالحة من سيرة الشخصيات البارزة، وندربهم على التفكير فيها والافتداء بها. ثم نعلمهم كيف يقدرّون

(1) مقتبس من كتابه: Time and Tide

أساليب المعاملة السليمة، ومساوئ السلوك اللاأخلاقي. ونساعدهم على اكتشاف مواطن ضعفهم وقوتهم، ونلفت اهتمامهم دوماً إلى ما حققه عظماء الرجال، ليكون ذلك حافزاً لهم على الطموح إلى الإنجازات الكبرى.

أما ما يتعلق بتدريبهم على سلوك الرحمة والعطف والشفقة والتسامح، فيمكن أن نساعدهم بأن نجعل من هذه الأخلاق الفاضلة قضية شرف وشهامة، في مستوى الشجاعة والصدق والكرم. لعلنا بهذا نجعل الطفل يشعر بالخجل أو الندم عندما يرتكب عملاً شريراً، كما يشعر بالخجل عندما يتهم بالجنين مثلاً. فكل عمل وحشي ينبغي إشهارة على أنه لا يليق بالمرء، لأنه من فعل الجبناء القساة، والإيحاء له بأن ما يرفع من شأنه هو مساعدة الضعفاء والعطف عليهم.

وإلى جانب الاحترام والرحمة والتعاون والتعاطف، ينبغي أن ندرّبهم على الالتزام بالحقيقة، فهي الأساس الأخلاقي والرابط المتميز بين الإنسان وأخيه. يجب أن نعلمهم كيف يبحثون عن الحقيقة لفظاً ومعنى وروحاً، كما يبحث المرء عن كنز، وأن يلتزموا بها ويحافظوا عليها كما يحافظ الملك على عرشه.

وينبغي أن يشمل التزام الطفل والطالب بالحقيقة جميع مجالات التعليم ومواده، انطلاقاً من اختيار اللفظ ودقة التعبير عن الأفكار... كأن ندرّبهم ألا يتكلموا إلا بما يعلمون؛ ولا يفكروا في أمر إلا إذا توفرت لديهم المواد التي تمكنهم من التفكير السليم حول الموضوع؛ ولا يبحثوا فقط عن الأشياء التي يحبونها.... فهناك أشياء كثيرة في العالم جديرة باهتمامهم.

نقحات من الأدب العالمي

باقية الختام



لونغفالو⁽¹⁾

H.W. Longfellow



هناك أسطورة شائعة بين بعض شعوب الهنود الحمر المعروفين باسم Iroquois، تقول بأن زعيمهم ("هياواتا") ظهر لهم مراراً ليحثهم على الاتحاد.

وفي قصيدة طويلة للشاعر لونغفالو، نقتبس منها ما يلي، يتحدث فيها عن حكاية زعيم الهنود الأسطوري، وعما قدم لهم من نصائح.

« لقد وهبت لكم جميع وسائل الحياة، هذه الأراضي الشاسعة، والأنهار الجارية، والدببة، والأسماك، والثيران، والطيور .. ما لكم لا تقنعون!؟

ما لكم يصاد بعضكم البعض الآخر!؟

لقد تعبت من نزاعاتكم وخلافاتكم، تعبت من حروبكم ومن سفك الدماء، وتعبت من كثرة طلواتكم التي تعرضون فيها على الانتقام.

القوة في اتحادكم، والخطر كل الخطر في تفرقكم وخلافاتكم، ما لكم لا تعقلون!

أنصحكم أن تعيشوا في أخوة وسلام .. عندئذ فقط يتكاثر عددكم، وتزدهر حياتكم.

وإذا تجاهلتم نصيحتي، ستغلبون وتهلكون. »

(1) أشهر شاعر أمريكي في القرن التاسع عشر، 1807 - 1882.

ومن أقوال الشاعر لونغفالو :

إن الفرص المتاحة للمسنين ليست أقل من فرص عهد الشباب؛ غير أن لها مظاهر مختلفة. ألا ترون أن بعد غروب الشمس، تزدهر السماء بنجوم لامعة تزين الليل.

صدقت أيها القديس أوغيسطين عندما قلت: إننا نستطيع أن نبني من عيوبنا سلماً، لو كانت لنا رغبة في أن ندوس على أعمالنا المخزية.

لا تقل فات الأوان، مادام قلبك ينبض بالحياة فأنت قادر! لقد تعلم كاتو⁽¹⁾ اللغة اليونانية؛ وألف سوفوكليز⁽²⁾ رواية ("أوديب")؛ وأحرز سيموند⁽³⁾ جائزة الشعر، دون منافسيه، وعمر كل واحد من هؤلاء يتجاوز ثمانين سنة.

لو أطلعنا على أسرار أعدائنا، لوجدنا في حياة كل عدو من الأئم والحزن ما يقضي على كل عداوة.

(1) Cato، رجل دولة روماني، 234 - 149 ق.م .

(2) Sophocles، أحد كبار شعراء التراجيدية اليونانية، 496 - 406 ق.م .

(3) Simonides، أول شاعر غنائي يوناني، 556 - 468 ق.م .

وولت ويتمان⁽¹⁾

Walt Whitman

بيدو لي أنني سأختار أن أعيش مع الحيوانات، فهي لا تشتكي،
ولا تننّ، ولا تتذمر من ظروف عيشها.

وهي لا تسهر في ظلام تنذب حظها، وتبكي ذنوبها؛ وهي لا
ترعجني بمناقشة واجباتها نحوربها.

ولا يوجد بينها المعتوه والمخبول بسبب جشعه وحرصه على
اكتساب ما في يد الآخرين.

لا يركع أحدها أمام الآخر، ولا يفتخر بأجداده. لا تشني على
حيوان لحسن سمعته؛ ولا تعتزل آخر لمجرد أنه يعاني من الألم والشقاء.

استمعتُ إلى عالم الفلك وهو يحاضر؛ جمع أماننا الخرائط،
وعرض الرسوم البيانية، ولجأ إلى الجمع والضرب .. ليشرح مظاهر
الكون؛ شعرت بالملل والشك، فانسحبت بهدوء.

وخرجت أتجول في سكون الليل الساحر لأحدق في عوالم النجوم،
وأمتع نفسي بمشاهد الكون المجهول.

(1) صحفي وشاعر أمريكي، 1819 - 1892.

لا تحاول أن تعرف كل شيء بدقة علمية، عن الطيور والزهور،
والأشجار، والزوارق .. لأن بعض الغموض قد يزيد في تمتعك بعوالم
الحيوانات والأشياء من حولك.

أعتقد أن باقة العشب ليست أقل أهمية من رحلة النجوم؛ وأن
ضفدع الشجر إبداع سماوي رائع؛ وأن الفأر أعجوبة تذهل ملياراً من
الملحدين.

بينما كان فكري يجوب معالم الكون الفسيح، شاهدت ذرات
الخير تتجه مسرعة نحو الخلود؛ وكتل الشر تسرع نحو الفناء.

ليت شرور الحرب ومجازرها تختفي من العالم، ليت أيدي الليل
الطويلة تغسل أساخ هذا العالم؛ قيل لي مات عدوي. قلت: هلكتُ روح
مقدسة مثل روحي.

هل ترى أنني أناقض نفسي؟ أوافقك. لأن نفسي واسعة الأفق
تحتضن المتناقضات.

إميلي دكنسن⁽¹⁾ Emily Dickinson



الأمل

ينساب الأمل داخل النفس، مثل طائر لطيف،
ينشد ألحانه بدون أن يتكلم؛
وكم يطر بنا تغريده عندما تهب الرياح؛
فأشفقي أيتها العاصفة على هذا المخلوق
الصغير، إنه يجلب للنفس الدفء والبهجة،
ويطربها دون مقابل.

الكتاب

لا توجد ناقلة مريحة مثل الكتاب،
ينقلنا إلى بلدان بعيدة.
الصفحة المكتوبة ... ما أجمل هذه العربة
التي تحمل فكر الإنسان دون عناء السفر وتكاليفه.

(1) شاعرة أمريكية، 1830 - 1886.

لا أطلب الحظ السعيد، فأنا هو ذلك الحظ؛ تركت التذمر
والتشكي والنقد المزعج، والمكتبات. منذ الآن سأسير على الدرب
الفسيح قنوعاً، قوياً، دون تدمير.

كان غذاؤه الكلمات الثمينة، ازداد فكره قوة،
نسي فقره وعناءه، وراح يرقص في الأيام
الداكنة،

كان الكتاب جناحيه،

ما أعظم الحرية التي يجلبها الفكر الطليق.

كثير من الجنون قد تجد فيه البصيرة الواعية
عقلاً وحكمة.

وكثير من العقل قد يكون هو الجنون.

إذا وافقتَ الناس على ما يقولون .. فأنت
حكيم؛ وإذا خالفتهم .. فأنت خطير

المجد هو ذلك الشيء اللامع الذي يدفع بعض
النفوس الصغيرة التي لا تعشق نور الشمس؛ ثم
يدخلها في ظلمات النسيان.

النحلة لا تهتم بنسب العسل وأصله،
فالقرنفل، مثلاً، في نظرها نبات شريف الأصل.

إذا أنقذت قلباً كاد أن يتحطم، وخفضت شقاء
نفس تتألم،

أو ساعدت طائر ضائعاً على العودة إلى عشه،
لم تضع حياتي سدى.

إذا قرأت قصيدة وشعرت أن بدني يرتجف من
البرد، أو قصيدة وشعرت أن قمة رأسي تكاد
تذوب من الحر، فذلك هو الشعر.

تشيكوف

Anton Pavlovich Chekhov

تشيكوف أديب روسي من أشهر كتاب القصص القصيرة، كما ألف عدداً من المسرحيات، وبرع في كتابة الموضوعات الهزلية، ينتقد من خلالها المشاكل الاجتماعية في روسيا. وهو يوجه الاهتمام في مؤلفاته إلى المعاناة والتخلف والظروف القاسية التي كان يعيشها الشعب الروسي.

ولد أنطون تشيكوف سنة 1860، في تاغنرُوغ Taganrog على بحر أزوف (جنوب روسيا). كان جده من الرقيق، لكنه استطاع أن يجمع مبلغاً من المال واشترى به حرية أسرته. وكان تشيكوف الابن الثالث بين خمسة أطفال. وكان أبوه يشتغل في تجارة الخضر والبقول، وعندما واجه الإفلاس قرر أن ينتقل وعائلته إلى موسكو لبدء حياة جديدة، وبقي الابن تشيكوف في مسقط رأسه ليتمم دراسته، وكان يكسب قوته بتدريس صغار الأطفال.

وفي سنة 1879، التحق بأسرته في موسكو، وحصل على منحة لدراسة الطب، ونال شهادة كلية الطب عام 1884. وكان تشيكوف يكتب في الصحف مقالات وحكايات هزلية، وأصبح هو العائل الرئيسي لأسرته.

وفي عام 1886 نشر كتاباً يحمل عنوانه Motley stories (العناوين مأخوذة من مصادر إنكليزية) أحرز به شهرة واسعة. بعد ذلك نشر مسرحيته الأولى عنوانها Ivanov، لقيت قبولا حسناً ونال بها جائزة بوشكين.

أنتج تشيكوف أول قصة عنوانها TheSteppe كانت بداية مرحلة جديدة في حياته الأدبية، إذ انتقل من تأليف المشاهد والحكايات الهزلية إلى كتابة قصص تعالج موضوعات جدية تتعلق بالمشاكل الاجتماعية في روسيا. وقد بلغ إنتاجه من هذه القصص نحو خمسين قصة خلال الفترة 1888 - 1904.

وخلال الفترة 1890 - 1891، قام برحلة طويلة نحو الشرق، وصل حتى جزيرة سخالين (شمال اليابان). كانت رحلة شاقة، إذ أن هذه الجزيرة تبعد عن موسكو نحو ستة آلاف ميل، وكانت وسائل السفر بطيئةً آنئذ، قبل مد خطوط السكك الحديدية. كان هدفه التعرف على ظروف المعيشة في مستعمرة روسية في سخالين كانت تستخدم معتقلاً للمساجين. وقد ساعد ما قدم من ملاحظات حول ظروف معيشة المعتقلين في هذه الجزيرة النائية على إدخال بعض الإصلاحات على ظروف معيشتهم.

اشترى تشيكوف ضيعة في قرية Melikhovo، على بعد نحو خمسين ميلاً جنوب موسكو، واستقر فيها خلال معظم التسعينيات، إلى جانب أبويه وأخته Mariya التي لم تتزوج، بل ظلت تخدمه وترعاه. وكان أثناء هذه الفترة يقدم خدمات طبية للمزارعين، خاصة عندما تفشى وباء الكوليرا في الفترة 1892 - 1893.

في سنة 1896 أنتج تشيكوف مسرحية ثانية كان عنوانها The Seagull (النورس)، عرضت في مدينة سان بطرسبورغ، فلم تلق أيّ استحسان من الجمهور، ولكن عندما عرضت مرة ثانية في مسرح موسكو للفنون (بعد سنتين) نالت شهرة كبيرة.

وبحلول عام 1897 تفاقم داء السل على الأديب الروسي، فقرر أن يبيع منزله قرب موسكو، وبني منزلاً في يالطا على ساحل بحر القرم. وتعرف على ممثلة تدعى Olga Knipper وتزوجها سنة 1901. وأصبح يقضي فصل الشتاء في هذا المنزل، أو على ساحل ريفيرا، جنوب فرنسا.

وخلال إقامته في يالطا ألف مسرحياته الشهيرة:

.The Cherry Orchard؛ The Three Sisters؛ Uncle Vanya.

توفي تشيكوف بسبب مرض السل في شهر جويليه (يوليو) عام 1904

* * * *

من قصص أنطون تشيكوف القصيرة (ملخص)

حكاية البستاني

بينما كان عمال المشتل يجمعون مشترياتنا من الزهور والورود، جلست برفقة بائع الأخشاب، وأحد جيراني من أصحاب العقارات، نتجاذب أطراف الحديث. كان البستاني مكاييل كارلوفتش يشرف على تغليف النباتات، ووضعها في الشاحنة، وكان يستمع باهتمام إلى حديثنا. كان رجلاً ذكياً، طيب القلب، يتقن اللغات الألمانية والروسية والسويدية.

قال جاري: لقد أطلق سراح كثير من الأشرار والمجرمين في الفترة الأخيرة، بحجة ظروفهم السيئة، غير أن هذا التسامح مع هؤلاء

الأوغاد خلق جواً من التهاون تجاه العدالة، وأصبحنا نرى كثيراً من المجرمين يفلتون من قبضة العدالة.

أضاف التاجر: هذا صحيح، فبعد أن صدرت قرارات العفو الأخيرة، ارتفعت نسبة الاعتداءات والقتل والإجرام.

والتفت البستاني إلينا وقال: أما فيما يخصني، أيها السادة، فإني أرحب دوماً بقرارات البراءة، ولا أخشى على العدالة والأخلاق الفاضلة عندما يعلن القضاة براءة شخص ما. بل أبتهج لذلك حتى يحدثني ضميري بأن مجلس المحلفين أخطأوا عند إعلانهم براءة المتهم. ألا تعتقدون أيها السادة أنه لو وضع مجلس المحلفين ثقته في طبيعة الإنسان أكبر من ثقته بالخطابات والبيانات والدلائل المادية، أن تلك الثقة تأتي بنتائج أفضل، ويكون لها أثر أعمق من التركيز على وثائق الإدانة أو البراءة. وهذه خصال لا يبلغها إلا من آمن بالمسيح إيماناً عميقاً.

قلت: هذه فكرة طيبة.

وتابع البستاني: الفكرة ليست جديدة. أذكر أنني سمعت منذ زمن طويل حكاية حول هذا الموضوع، قصتها عليّ جدتي باللغة السويدية.

أحسنا عليه أن يقصها علينا ولو باللغة الروسية، وألا يهتم بما تضيفه هذه اللغة من خشونة على أسلوبه. قال البستاني:

كان يعيش في قرية صغيرة رجل متوسط العمر مهنته معالجة المرضى. كان رجلاً مثقفاً، كثير الصمت، لا يتكلم إلا عندما يتطلب عمله ذلك. وكان سكان القرية مسرورين بوجوده بينهم، إذ رزقهم الله برجل يشفى مرضاهم. وكان الرجل بدوره يحبهم ويحنو عليهم كأنهم أولاده.

وعلى الرغم من أنه كان مصاباً بداء السل، لم يكن يبخل بجهوده وصحته من أجل خدمتهم. بل كان يمشي مسافات طويلة، ويصعد الجبال، لمعالجة أي مريض دون مقابل. وأحبه أهل القرية وبجلوه، صغيرهم وكبيرهم، خيرهم وشريرهم، وكان الجميع يعترف بجميله وفضله. ولم يكن في القرية وما جاورها مخلوق واحد يفكر في إيذائه. كان يترك باب منزله مفتوحاً، على يقين من أنه لن يفكر أحد في سرقة.

كان عمله كطبيب يدعو أحياناً كثيرة إلى الذهاب بعيداً، وسط الغابات وعبر الجبال لمعالجة المرضى، وهو يشعر بالثقة والأمان. وحدث ذات ليلة أنه بينما كان راجعاً من منزل أحد المرضى، أن هجم عليه قطاع الطريق. ولكن عندما عرفوا أنه الطبيب الشهير في القرية، عاملوه باحترام، وأهدوه جلابياً، ورافقوه إلى القرية.

هذا الرجل الخير والطبيب المتفاني في معالجة الناس، الذي كانوا يحبونه ويقدمونه، وجد ذات يوم مقتولاً. كان ملقى مضرجاً بدمه في أسفل أحد الوديان. وكان يبدو على وجهه علامة الدهشة، وليس الرعب، عندما واجه قاتله.

ساد القرية جو من الحزن والكآبة. وكان كل فرد يتساءل متعجباً: ترى من يكون المعتدى الأثيم؟ وقال القاضي الذي تولى البحث في قضية اغتيال الطبيب: لا شك أننا أمام حادثة اغتيال؛ ولكن من المستحيل أن يوجد بيننا رجل يفكر في هذا العدوان. ولعلّ الطبيب سقط ليلاً من هذا المنحدر. واجتمع أهل القرية وضواحيها لتشييع جنازة الطبيب، وهم يرددون: لا يمكن أن يوجد بيننا رجل تبلغ به الدناءة أن يفكر في قتل الطبيب.

وفجأة اكتشفوا القاتل، إذ وجدوا لديه ساعة الطبيب وعلبة السعوط، قدمهما إلى الحانة مقابل زجاجة خمر. وفتشوا منزله فوجدوا فيه دلائل تثبت أنه القاتل، فأودع في السجن. وشعر جميع السكان بالانتقام والغضب. ولكنهم ظلوا يرددون شكوكهم في أن يجرأ مخلوق، مهما كان دنيئاً، على ارتكاب هذه الجريمة، وقالوا: قد يكون لهذه الدلائل تفسير آخر. وظل المتهم يلح على أنه بريء، واحترار القاضي في الأمر.

بدأت المحاكمة ذات يوم في الصباح الباكر. وقال القاضي للمتهم: ⁽¹⁾لقد ثبت للمحكمة أنك قتلت الطبيب، وعلى هذا فقد حكمت عليك المحكمة ب...⁽²⁾ كان القاضي يريد أن يقول ⁽³⁾بالإعدام. ولكن الورقة التي كتب عليها نص الحكم سقطت من يده.

مسح القاضي العرق من جبينه، وصاح: لا .. لا .. فليعاقبني الرب إن كنت سأنطق بحكم جائر. أقسم أنه بريء. لا يمكن أن يوجد بيننا رجل يجرأ على قتل صديقنا الطبيب. وردّد باقي القضاة قول رئيسهم: لا .. لا تبلغ به الدناءة أن يفعل ذلك. وصاح الجمهور بصوت واحد: فلنخل سبيله!

أخلى سبيل المتهم، ولم يشر رجل واحد من سكان القرية إلى أن القضاة أخطأوا في حكمهم.

وكانت جدتي تضيف بعد ذلك: وقد غفر الله لجميع سكان القرية ذنوبهم. لأن الرب يبتهج عندما يرى أن الناس رحماء بينهم، لأنه خلقهم على صورته، وفي أحسن تقويم.

* * * *

من قصص أنطون تشيكوف القصيرة قصة عنوانها:

بدون عنوان⁽¹⁾

كانت جماعة من الرهبان يعيشون في دير منعزل، يمرّ فيه اليوم الجديد مثل سابقه، وكانت الليلة تشبه أختها، والحياة رتيبة، لا يشاهدون من المخلوقات سوى الطيور وبعض الحيوانات. وكانوا يتعاونون على إنجاز أشغالهم اليومية التي يقتاتون من ثمارها، ويقضون معظم وقتهم في الصلوات.

كان رئيس الدير يحسن العزف على الأرغن، ماهراً في أداء بعض الألحان الموسيقية والأناشيد الدينية. وكانت تظهر براعته كذلك عندما يحدث الرهبان عن الحيوانات والأشجار والبحر....، وكانت نبرات صوته تتسكب من داخل روحه، كما تتسكب ألحانه من الأرغن. كان كلامه ينفذ إلى أعماق قلوبهم كلما حدثهم عن الإيمان والعقيدة.

كانت الحياة في الدير رتيبة، فكانت الأشجار والطيور والريبع والزهور، والمطر والرياح تبدو لهم مناظر مملة، ولكنهم كانوا مبتهجين بمواهب رئيسهم، لأنه كان مصدر إلهام للجميع.

كان الدير بعيداً عن أية قرية، وتمر السنين دون أن يشاهدوا مخلوقاً من المدينة. وكما كانت دهشتهم ذات ليلة عندما دق رجل باب ديرهم. طلب منهم بعض الطعام والشراب. وسأله الرهبان كيف وصل إلى ديرهم ققص

(1) ملخص.

عليهم كيف خرج إلى الصيد في البراري، ثم أنه شرب كثيراً من الخمر فتاه في الصحراء وقتاً طويلاً إلى أن اهتدي إلى ديرهم.

وبعد أن استراح الزائر التفت إلى الرهبان متسائلاً: أخبروني، رحمكم الرب، ما فائدة وجودكم في هذا المكان النائي. وكلما يهتمكم هو إنتاج طعامكم وجلب شرابكم. فهل هذا هو السبيل القويم لإنقاذ أرواحكم؟ وبينما أنتم منعزلون هنا تحلمون بالآخرة وجنة النعيم، هناك في المدينة إخوان لكم في الدين يعيشون حياة الغواية والآثام، معظمهم فقراء لا يجدون خبز يومهم؛ وآخرون غارقون في ترفهم، لا يعرفون ما يفعلون بكنوزهم، يتهافتون على الملذات مثل الذباب على العسل. فهل رزقكم الله قلباً مفعمة بالمحبة والإيمان لتجلسوا بين هذه الجدران الكئيبة غارقين في سكونكم؟ أليس من الأفضل أن تفعلوا شيئاً لتهدوا أولئك الضالين إلى سبيل الرشاد؟

كان كلام هذا الزائر الغريب مزعجاً، ولكنه أثر في نفس رئيس الدير الذي حدق في وجوه الرهبان طويلاً، ثم قال:

إخواني، لقد نطق هذا الرجل بالصواب. لا شك أن هناك مخلوقات يقودهم ضعفهم وحمقتهم إلى مهاوى الضلال والآثام. ونحن هنا قاعدون كأن ذلك لا يعنيننا. ولعله من المفيد أن أسافر إلى هذه المدينة لأذكر السكان بتعاليم المسيح. وفي اليوم التالي ودّع رئيس الدير رفاقه وانطلق إلى المدينة.

انتظر الرهبان شهراً، ثم شهراً ثانياً، ولم يرجع رئيس الدير إليهم إلا بعد ثلاثة أشهر. فرح الرهبان بعودته، وأمطروه بالأسئلة:

غير أن الراهب لم يجبهم، بل دخل غرفته وأغلق الباب طيلة خمسة أيام. وأخيراً خرج إليهم ليروى لهم ماذا شاهد في المدينة.

لقد كان حين انطلاقه نحو المدينة ترافقه أحلام وأمال طيبة، كان مثل الجندي الذي يزحف نحو معركة واثقا من النصر. وها هو الآن يبدو عليه الغضب، وترتجف كلماته عندما يصف ما شاهد في المدينة.

فعلى الرغم من تقدم سنه لمس لأول مرة في حياته مدى سيطرة الشيطان على بني آدم، ومدى ضعف الإنسان أمام المغريات. كان أول منزل دخله في المدينة يضم نحو خمسين رجلا من الأثرياء، يحتفلون، ويغنون ويشربون الخمر، وينطقون بعبارات مخجلة لا ينطق بها لسان مؤمن. ما كان أحدهم يفكر في الله، ولا في الموت ولا حتى في الشيطان، بل كانوا منغمسين في ملذاتهم. وفي وسط القاعة كانت تقف امرأة على طاولة، وهي نصف عارية. كانت رائعة الجمال، تسحر الناظرين بعينيها وشفتيها وشعرها وقدها الفتان. وكانت تغني، تشرب الخمر مع الشاربين، تبتسم لهم عن ثغر كعقد المرجان، وتسلم جسدها لمن يرغب في ذلك.

واصل رئيس الدير وصفه لما شاهد من وسائل التسلية في ميدان سباق الخيل، وساحة مصارعة الثيران، وفي المسرح، والقاعات التي تعرض فيها التماثيل الفنية ولوحات النساء العاريات. وراح يصور بحماس سحر النساء الفاتنات، والغانيات المتبرجات، وغير ذلك من ضروب المغريات التي يوفرها الشيطان لضعفاء النفوس فتصدهم عن صلواتهم وتقودهم إلى المفاسد والموبقات ... لعن رئيس الدير الشيطان، واختفى وراء باب غرفته.

عندما خرج من غرفته في صباح اليوم التالي، فتش عن الرهبان فلم يجد واحداً منهم في الدير. لقد انطلقوا جميعهم مسرعين نحو المدينة.

توماس مان

Thomas Man

ولد توماس مان في مدينة لوباك (ألمانيا) سنة 1875. كان أبوه تاجر حبوب وشيخ المدينة. وتتنمي أمه إلى أسرة برتغالية من مواليد البرازيل⁽¹⁾. وكان توماس ينفر من التعليم النظامي في شبابه. وبعد وفاة أبيه عام 1891، انتقل إلى مونيخ وبدأ يعمل في مجال التأمين، وفي مجلة أسبوعية، ضمن هيئة التحرير، ويتابع دراسته في جامعة مونيخ.

أصدر توماس أول كتاب له، مجموعة من القصص القصيرة وسنه لا يتجاوز 23 سنة. وبدأ يؤلف روايته The Buddenbrooks⁽²⁾ وهو في Palestrina، قرب روما، وأتمها في مدينة مونيخ سنة 1900، فحققت له شهرة واسعة. تزوج توماس سنة 1905 من ابنة أستاذ جامعي من مدينة مونيخ، تمتع بزواج سعيد وأنجب ستة أطفال.

وألف توماس رواية ثانية عنوانها Royal Highness عام 1909. وتبع ذلك روايته الشهيرة Death in Venezia عام 1912. وأثناء الحرب العالمية الأولى نشر مجموعة من القصص، وكتب رسالة مسهبة تحت

(1) وتطلق عبارة Créole على المنحدرين من أصل أوروبي، ولكنهم مولودون في إحدى الولايات الأمريكية التي كانت تسيطر عليها فرنسا أو أسبانيا.

(2) عناوين مؤلفاته مترجمة إلى اللغة الإنكليزية.

عنوان "تأملات رجل غير سياسي"، بذل فيها جهداً ليدلل على مزايا الدولة الدكتاتورية القوية، ألمانيا، ويفضلها على نظام الديمقراطية. غير أن توماس مان تخلي عن رأيه هذا فيما تلا من مقالاته ومؤلفاته، كما يظهر في روايته الرائعة The Magic Mountain التي نشرت سنة 1924، وحقق له نجاحاً كبيراً فاكتسب شهرة عالمية؛ وقد نال جائزة نوبل للأداب عام 1929.

وفي سنة 1930 ألقى خطاباً هاماً في برلين، دعا فيه إلى تشكيل جبهة مشتركة بين طبقة العمال الاشتراكيين وطبقة البرجوازية المستتيرة لمواجهة تعصب الجبهة الاشتراكية القومية الحاكمة، وواصل انتقاده للنازية. وخلال الفترة 1929 - 1933، ألف مقالات ورسائل ثقافية عن شخصيات أدبية بارزة منهم فرويد، ووغنر، وغوته، ونيتشه؛ وأنتج قصة عنوانها Mario and the Magician (ماريو والساحر).

كان توماس مان في رحلة استجمام مع عائلته في سويسرا، عندما استولى هتلر على دفة الحكم عام 1933، فاستقر في سويسرا، بالقرب من مدينة زوريخ. وفي هذه السنة أصدر الجزء الأول من مؤلفه الضخم "يوسف وإخوته"، ولكنه لم يتم هذا الكتاب إلا في سنة 1942. وفي عام 1936، انتزعت منه السلطة في برلين الجنسية الألمانية. وانتقل توماس مان إلى الولايات المتحدة سنة 1938 فاستقر في Princetown، (نيوجيرزي)، ثم من عام 1941، في جنوب كاليفورنيا، وحصل على الجنسية الأمريكية. وفي سنة 1952 قرر أن يعود إلى سويسرا، فاستقر بالقرب من مدينة زوريخ، وعاش فيها إلى أن وافته المنية في شهر أغسطس (أوت) من سنة 1955.

ترك توماس مان مؤلفات أخرى هامة، بالإضافة إلى ما ذكر، منها رواية "الدكتور فاوست"، وهي قصة تناولها أدباء آخرون، وتتناول حكاية فاوست الشهيرة الذي عقد اتفاقاً مع الشيطان على أن يحقق له جميع رغباته مقابل أن يسلم له روحه في النهاية. ومن مؤلفاته رواية Tonio Kröger، ويصف فيها المؤلف ما كان يعانيه بطل القصة من حساسية جعلته يحتار بين أن يحيا حياة الفنان، بما كان يواجه من مشاكل. وبين أن يطمح إلى حياة الرجل البرجوازي، وما توفره من أمان ونظام ومتع الحياة.

وفي روايته "الموت في فينسيا" يتحدث عن كاتب مشهور يزور فينسيا، بهدف الراحة والاستجمام، وكان المرض منتشراً في المدينة. يقع هذا الكاتب فريسة للإغراء الجنسي الشاذ، وتدوم إقامته فيها، ويصاب بالمرض (الكوليرا)، ويموت.

وسبقت الإشارة إلى رواية توماس مان الشهيرة The Buddenbrooks (بود نبروكس، تدهور أسرة). ويتحدث توماس مان، في هذه الرواية، عن قصة أسرة بدأت حياتها تميل نحو الغروب، وهي أسرة برجوازية عاشت خلال الفترة 1835 - 1877، وقد تحدد خلال هذه الفترة مصير أربعة أجيال. وكان عمر الجد عند بداية القصة خمسة وسبعين سنة.

كان هذا الجد يمثل البرجوازية المنتعشة، بما فيها من نشاط وطموح، وإرادة الحياة، والسعي المجد لتحقيق النجاح في مجال الأعمال. وجاء بعده ولده جوهان، فظل يمثل قيم البرجوازية ومثلها، ولكنه لم يحقق النجاح المتوقع في ميدان الأعمال.

أنجب جوهان أربعة أطفال، بدأت تظهر في عهدهم، تدريجياً،

بوادر غروب شمس أسرة "بودنبروكس"، لأنهم لم يستطيعوا أن يتحملوا مسؤوليات طبقة البرجوازية، ولم ينسجموا مع أسلوب حياتها بالقدر الكافي. كانت ابنته الكبرى "توني" جذابة، تزوجت مرتين، وفشلت فيهما. وكان ابنه "كريستيان" يعيش حياة بوهيمية؛ أما ابنته الأخرى "كلارا" فقد توفيت في سن مبكر مصابة بداء السل. وتولى ابنه الأكبر "توماس" مسؤوليات تراث الأسرة، وكان يشعر أنه غريب في ميدان الأعمال، غير أنه نجح في أن يصبح نائباً في مجلس الشيوخ، فحقق بذلك شهرة للأسرة. وتزوج توماس من سيدة هولندية كانت مغرمة بفن الموسيقى، وورث عنها ابنها "هانو" هذه الهبة الفنية. وبعد وفاة أبيه وجه هانو كل اهتمامه إلى عالم الفن. وعندما وافته المنية، غربت بوفاته شمس أسرة بودنبروكس البرجوازية.

ومن المفيد الإشارة إلى رواية أخرى من روايات توماس مان الهامة، وهي رواية The Magic Mountain (الجبل المسحور). ويوحى لنا المؤلف بأن الحوادث التي تجرى داخل عيادة صحية تعكس ما يحدث في العالم الخارجي، وفي الحياة اليومية من متاعب وخوف الناس، ومرضهم، ومعاناتهم، وموتهم. كما تشير حوادث الرواية إلى أن نظرة توماس مان إلى النظام النازي الدكتاتوري قد بدأت تتغير، وأن أفكاره بدأت تميل نحو حياة الديمقراطية. ويظهر هذا في وصفه لسلوك المهندس "كاستروب".

وملخص حوادث الرواية أن الشاب كاستروب يذهب إلى زيارة ابن عم له، يدعى جواشم، في عيادة لمرضى السل في مدينة دافوس. غير أن هذه الزيارة تحولت إلى إقامة دامت سبع سنوات.

ويوحى لنا المؤلف بأن المرضى في هذه العيادة يمثلون طبقة "البرجوازية المريضة" خلال فترة ما قبل الحرب. ويشير إلى أن إصابتهم بهذا الداء العضال علامة على بداية نهاية البرجوازية.

أما كاستروب، الذي أصيب بداء السل هو الآخر، وبدأ يشعر باقترابه من الموت، فإن إقامته في المصححة كانت بالنسبة له مرحلة تجريبية استيقظ خلالها ضميره وتعمق شعوره. وقرر أن يغادر العيادة ليشغل نفسه بشؤون الحياة في العالم الخارجي، وبقي يفكر في الجوانب الغامضة من حياة الإنسان، وفي التساؤلات التي أثارها في نفسه حياة المرضى ومعاناتهم في العيادة.

* * * *

★ من أقوال توماس مان:

- لا يمكن لأفكار الإنسان أن يكتب لها البقاء إذا لم تتح له الفرصة ليدافع عنها.
- لا يعيش المرء كفرد فقط، بل يعيش كذلك، عن وعي أو غير وعي، حياة معاصريه.
- المكان، مثل الزمان، يخلق النسيان، وذلك لأنه يبعدنا مادياً وبدنياً عن بيئتنا، ويعيدنا إلى حالة العزلة البدائية.
- الكلام هو الحضارة نفسها، فالكلمة حتى وإن كانت مناقضة لكلمة أخرى، تحافظ على الاتصال؛ أما السكوت فيعزل الإنسان.

- إن وفاة المرء تهم الأحياء من حوله أكثر مما تهمه شخصياً.

- الزمن يهدئ، ويوضح، ولا يمكن لأيّ مزاج أن يستمر إلى الأبد، دون تغيير.

- حافظ على الوقت وقيد، راقبه، تمسك به كل دقيقة كل ساعة، إنه يختفي ويفرّ بسرعة مثل الظل إعطِ كل لحظة معناها وقيمتها وما تستحقه من الوعي وتستوجبه من الإنجاز.

- أما ما يحيرّ الإنسان في هذا العالم فهو الفرق الكبير بين خفة الروح ورشاقتها، وبطء المادة وركودها.

- في معظم الأحوال يثور المرء ويغضب ويعارض فكرة ما، عندما لا تكون أفكاره واضحة، وعندما يميل إلى تبني فكرة الطرف الآخر.

- عبارة ((العالم)) تعني وحدة الإنسانية، وحدة ثقافتها، وحدة مشاكلها، وهذا يعني أنه لا يجوز لأيّ فرد أن يفرق بين الموضوعات الثقافية والفنية وبين الميادين السياسية والاجتماعية.

- الجمال شعور يخترق الجسم كما يفعل الألم.

- إن النظام وتبسيط الأمور يمثلان الخطوة الأولى للتحكم في الموضوع، والعدو الحقيقي هو الغموض والفوضى.

- لا يحتاج عقل الإنسان إلا أن تكون إرادته أقوى من القدر، لتصبح هي القدر نفسه.

هيرمان هاس

Hermann Hesse

روائي وشاعر ألماني، ولد عام 1877 في كالو Calw، Württemberg، (على حدود الغابة السوداء)؛ بألمانيا. وكان أبوه قد قضى فترة في رحلة تبشيرية في الشرق، فرغب في أن يلتحق ولده بمدرسة لاهوتية. غير أن هاس غادرها بعد بضعة أشهر، ثم أعيد إليها دون جدوى. ورثى أبوه لحاله فسمح له بمغادرتها.

ولم ينسجم الفتى في وسط التعليم النظامي كذلك، فدخل مصنعاً للساعات ليتعلم المهنة، وبعدها عمل في محل لبيع الكتب. ومع أنه لم يواصل دراسته فقد اهتم بالمطالعة وقرأ مؤلفات عديدة. واستمر يعمل في بيع الكتب حتى عام 1904. ثم بدأ ينشر مقالات في الجرائد. وأصدر أول رواياته Peter Camenzind.

وأثناء الحرب العالمية الأولى اختار هاس أن يعيش في دولة سويسرا المحايدة. وأصدر جريدة موجهة إلى أسرى الحرب من الألمان خاصة. وكتب مقالات يشجب فيها ويلات الحرب. وفي سنة 1923 حصل على الجنسية السويسرية، واستقر في مدينة مونتانيولا Montagnola.

وتعرض هاس لحوادث هزت نفسه وأثرت على صحته، مرض ابنه الصغير، وزوجته الأولى، وتوفي أبوه، واضطر في النهاية إلى دخول مصحة، تولى علاجه طبيب الأمراض النفسية. وقد وصف عمليات

التحليل النفسي التي خضع لها في روايته Damian التي حظيت بانتشار واسع في ألمانيا، وحققت للمؤلف شهرة واسعة.

توفي هيرمان هاس سنة 1962، في مونتانيولا، بسويسرا.

* * * *

ومن مؤلفاته الأخرى:

– Siddartha (سدارتا)، عام 1922، وهي رواية يتناول فيها المؤلف حياة ابن أحد البرهمنين⁽¹⁾ الذي يسعى إلى استكشاف أسرار الحياة، ومعرفة فن الحب. وساعده الحظ على أن يجمع ثروة كبيرة. ولكنه اكتشف في نهاية المطاف أن الإنسان ينبغي أن يتخلى عن رغباته ليصل إلى مرحلة الرضا، وعندئذ فقط يحصل الانسجام بين مشاعر اللذة والألم، والسعادة والشقاء، في نعمة الحياة.

– Narziss und Goldmund (عام 1930)

نارسييس وغولدموند صديقان، وهما تلميذان في دير في القرون الوسطى. يرغب نارسييس في أن يصبح قساً، ويطمح غولدموند إلى أن يكون نحاساً شهيراً، فلا يمكث في الدير طويلاً. ويحاول أن يغري عشيقته الحاكمة، فيحكم عليه بالإعدام. أثناء ذلك يكون صديقه نارسييس قد أصبح قساً مشهوراً، وينقذه من الموت. ويرمز المؤلف في هذه الرواية إلى ازدواج هدف الحياة: الجانب الروحي، التألمي، حياة

(1) البرهمني Brahmane أحد أفراد طبقة الكهنوت العليا عند الهندوس.

الزهد، الذي يمثله نارسييس؛ والجانب الآخر، حياة من يتيه وراء غريزته مثل الفنان غولدموند في هذه الرواية.

– Das Glasperlenspiel (سنة 1943)، وهي أطول رواياته، وتتضمن بعض أشعاره التأملية، حاز بها جائزة نوبل عام 1946.

* * * *

وفيما يلي اقتباسات من كتاب ليهيرمان هاس ترجم إلى اللغة الفرنسية تحت عنوان:

Eloge de la Vieillesse

ويضم مقالات كتبها في السنوات الأخيرة من حياته حول موضوع "الشيخوخة".

الشيخوخة

بقلم هيرمان هاس

تمثل الشيخوخة مرحلة من وجودنا، وهي مثل مراحل الحياة الأخرى لها بيئة وسمات وأجواء خاصة بها، ولها مسراتها ومتاعبها. ونحن الذين أبيض شعر رؤوسنا، مثل إخواننا من الشباب، لنا مهمة تجعل لحياتنا مغزى ...

وهكذا تمر الأيام، ويتخلى المرء سنة بعد سنة عن أشياء كان قد ألفها، وأصبحت جزءاً من حياته. تضعف حواسه وطاقاته ونشاطه، ويصبح

الطريق الذي كان يمثل جولة مرحة، مسيرة وعرة ومتعبة؛ وهذه أصناف من متع الحياة وملذاتها، كانت تتعش حياته، أصبح اليوم مضطراً لتجنبها.

ولكن تبقى للشيخوخة جوانب إيجابية ومزايا مسلية ... ومن أهم الأشياء المسلية تلك الكنوز الجميلة من الصور والمشاهد التي تجمعت في ذاكرة بعد حياة طويلة، والتي يمكن أن نستخرجها من حين لآخر، عندما ينقص نشاطنا الجسدي؛ فالمنازل التي أقمنا بها، والحدائق التي تمتعنا بمناظرها، والمدن التي عشنا في ضواحيها قد تغيرت معالمها، ولكننا نشاهدها اليوم في مذكراتنا كما كانت منذ زمن طويل. وتلك المشاهد التي تمتعنا بها أثناء رحلاتنا ما زالت صوراً حية ملونة. مشاهد الوديان والشلالات والجبال والشواطئ .. وكم يطيب للمرء في هذه المرحلة من العمر أن يتصفح مسلسل حياته الماضية. ويشعر ببعض الغبطة وهو الآن ينسحب تدريجياً من حلبة السباق للاستمتاع بحياة الملاحظة والهدوء والتأمل.

وهكذا نجد في حديقة الشيخوخة ألواناً من الورد والأزهار لم تكن نحلم بغرسها في الزمن الغابر، كزهرة الصبر النبيلة، مثلاً، التي تعلمنا الهدوء والتسامح. وفي هذه الحديقة تزداد رغبتنا في الاستماع إلى أصوات الناس والطبيعة من حولنا، وتقل نزعتنا إلى الانتقاد والمشاكسة.

وعندما نلاحظ أن بعض الشباب ممن لا يعون ما يفعلون، يضحكون خفية من خطواتنا المترنحة، وأعناقنا الهزيلة، وشعر رؤوسنا الأبيض ... علينا أن نتذكر أننا ربما ضحكنا في شرح شبابنا مثلما يضحكون. ولكننا ينبغي ألا نحمل أي شعور بالنقص أو الانهزام، بل من حقنا أن نبتهج لأننا مررنا بمرحلة طويلة من حياتنا، واكتسبنا من الصبر والحكمة ما يجعل حياتنا اليوم راضية مطمئنة.

حكاية صينية

بقلم هيرمان هاس

كان هناك رجل مسنّ يدعى شُونْغْلَانْغ (يعني سيد الصخور)، كان يملك قطعة أرض في منطقة جبلية. ذات يوم فقد حصاناً من خيله، فجاءه الجيران ليعبروا له عن أسفهم لهذه الخسارة.

غير أن الرجل المسن سألهم: لماذا تظنون أنها خسارة؟ وحدث بعد بضعة أيام أن عاد الحصان إلى صاحبه، ومعه حشد من الخيل البرية. وجاءه الجيران هذه المرة ليباركوا له هذه النعمة الجديدة. ولكن الرجل المسن سألهم: ولماذا تظنون أنها نعمة؟

وكان للشيخ ابن يهوى ركوب الخيل. وذات يوم وقع من على فرس، وانكسرت ساقه. وعاد السكان إلى جارههم ليعربوا له عن أسفهم لما حدث لابنه. ومرة أخرى سألهم الرجل المسنّ: ولماذا تظنون أن ما حدث لابني هو حادث مؤسف؟

وفي الموسم التالي جاءت لجنة رسمية إلى المنطقة لتجند الشباب الأقوياء ليكونوا في خدمة الملك، وليحملوه على الكرسي الذي يتنقل عليه خارج القصر. ولاحظ أعضاء اللجنة أن الشاب، ابن الرجل المسن، يحمل آثار كسر ساقه، فلم يجندوه في من جندوا من فتيان المنطقة.

ولم يستطع الرجل المسن، سيد الصخور، عندئذٍ أن يخفي ابتسامته اطمئنان وابتهاج أمام جيرانه.

الحقيقة بقلم هيرمان هاس

الحقيقة مثل من المثل العليا التي يتمسك بها الشباب، والحب حلم جميل يراود الكهل الناضج، الذي يجتهد مستعداً لمواجهة ما يعتريه من نقص في طاقاته، والاستسلام للموت. إن الذين يفكرون ويتأملون، يقللون من حدة حماسهم للسعي وراء الحقيقة عندما يلاحظون أن الإنسان ليس موهوباً للتعرف على جميع الحقائق، وأن سعيهم هذا ينبغي ألا يكون العمل الأساسي الذي يشغل الإنسان والإنسانية....

إن امتلاك الحقيقة واكتساب المعرفة الكافية للتمكن من التمييز بين الخطأ والصواب، ومن ثم لإصدار الحكم، وتسليط العقاب، وإشعال الحروب... كل هذا من أفعال الشباب. أما المسنون فليس عليهم أن يظلوا متمسكين بمثل هذه المثل، لأن طاقاتهم من الوعي السليم على معرفة الحقيقة السماوية قد بدأت تضعف.

وهكذا فبمرور السنين تتعمق آثار الشيخوخة، وتؤثر على عمق وعي الإنسان وتفكيره، فيصبح الرجل المسن غير قادر على الإحساس بالأشياء بدقة وعمق، ومن الأصوات ما لا يصل إلى سمعنا، ومن الإصابات ما لا يصل إلى وعينا. وبهذا يصبح جزء من شخصنا خارج نطاق إحساساتنا.

لا شك أن الإنسان يتطلع إلى اكتشاف مناطق مجهولة على شواطئ بحار الجنوب والشمال، وإلى إدراك مظاهر الرياح، ومجاري المياه والشلالات... ولكن الأمر الذي يسحر المرء حقاً هو ظاهرة الموت، الحادث الذي يختم الوجود.

عندما نشيخ نكون قد أنجزنا مهامنا، ويكون لنا الحق في أن نقترّب من الموت في هدوء. الموت لا يحتاج إلى الناس، فهو يعرفهم جيداً، ولذلك يطلب السكون والهدوء. فليس من اللائق أن نقلقه، أن نحدثه، أن نزعجه بثرثرتنا. وعندما ينادينا فمن المناسب أن نواصل دربنا في هدوء كما لو كان المكان خالياً من أهله.

ليوبولد سيدار سنغور Léopold Sédar Senghor



ولد سنغور عام 1906 في مدينة جوال (قرب داكار) بالسنغال. وعندما أنهى دراسته الثانوية، سافر إلى فرنسا (باريس) حيث واصل دراسته العليا في جامعة السوربون، وفيها تعرف على جورج بومبيدو، ونشأت بينهما صداقة دامت طويلاً. وحصل على شهادة الأستاذية في علوم اللغة الفرنسية سنة 1935، وبدأ التدريس في المدارس الثانوية. وتم تجنيده عندما اندلعت الحرب، وأسر في ألمانيا عام 1940، وبعد إطلاق سراحه، التحق بالمقاومة ضد الألمان. وفي سنة 1946، أصبح نائباً عن السنغال (بالإضافة إلى نائب آخر) في البرلمان الفرنسي.

في سنة 1960، أصبح رئيساً لجمهورية السنغال المستقل. وظل يعاد انتخابه لهذا المنصب إلى أن استقال منه عام 1979. وكان سنغور أول إفريقي ينتخب لعضوية الأكاديمية الفرنسية سنة 1983.

كان سنغور شاعراً، ورجل دولة. تناول في أشعاره موضوعات أدبية واجتماعية وسياسية. إنه مثل كثير من الأفارقة، الرجل الإفريقي الذي يشعر بالعزلة وسط مجتمع البيض. وكان دائم التشوق إلى وطن الرجل الأسود. وكان يتألم لمصير الرجل الإفريقي، ويستنكر مواقف الغرب السلبية تجاه آمال الشعوب المستضعفة.

وأشاد سنغور بحضارة إفريقيا السوداء، وانتقد حضارة الغرب

وثقافته المادية. ونوه في كتاباته بمزايا تداخل الحضارات واختلاطها. وتعود شهرته أساساً إلى الحركة المعروفة تحت عنوان La Négritude، وهي كلمة تعني التعبير عن مجموع القيم الحضارية والثقافية في عالم الأفارقة السود، وكذلك الاهتمام بطبائعهم وتقاليدهم ووضعهم الاجتماعي.

وأسس سنغور هذه الحركة خلال الثلاثينيات، بالتعاون مع Aimé Césaire من مارتنيك، وLéon Dumas من غويانا الفرنسية، وعملوا بنشاط في ميدان التعرف على الكتاب السود في أمريكا. وترجموا بعض أعمالهم إلى الفرنسية. وكان سنغور يحترم الإنتاج الأدبي الأوروبي، والأفكار السياسية في الغرب، ولكنه دعا مواطنيه إلى الاستفادة من ميراث أوروبا الثقافي دون أن يخضعوا له أو يندمجوا فيه. وتجدر الإشارة إلى عبارة في النشيد الوطني السنغالي تقول: "البانتو (1) أخي، العربي أخي، والرجل الأبيض كذلك".

توفي الرئيس الشاعر الأديب، ليوبولد سنغور في شهر ديسمبر من عام 2001.

وفيما يلي اقتباسات من بعض قصائده.

(1) مجموعة من الشعوب الإفريقية جنوب خط الاستواء (Bantous).

★★ قصائد تمهيدية (1)

إخواني السنغاليين المحاربين (2) ،
 إن أيديكم ساخنة تحت الثلوج، تحت الموت؛
 من يثني على شجاعتم إن لم يكن أخوكم
 في السلاح، وأخوكم في الدم؟
 لا أترك الكلام للجنرالات ..
 بل سأطلق صرخات تمزق جدران فرنسا ..
 أخلاقنا نبيلة، فلا نرغب في السيطرة على شعبنا،
 بل يجب أن نكون لحنه وقلبه.
 لا نريد أن نرعى في السهول والمروج،
 بل نفضل أن نكون بذرة الدخن (3)
 التي تذوب في الأرض لتنعش الحياة.
 لا نريد أن نكون فوق رؤوس شعبنا،
 بل لسانه، والبوق الذي يصرخ لتحريره.

(1) العنوان: Poèmes liminaires

المؤلف: Léopold Senghor

(2) يعني السنغاليين الذين جندتهم فرنسا في حربها ضد الألمان.

(3) millet.

★★ أغاني الظل (1)

أيتها الفتاة صاحبة البشرة الناعمة السوداء،
 لونك هو الحياة، وقدك هو الجمال.
 ترعرتُ في ظلك، وظلتُ يداك الداقتان تضمّ عيني.
 أنت الأرض الموعودة؛
 جمالك يصعق قلبي مثل انتفاضة العقاب.
 أنت الفاكهة الناضجة،
 أنت نشوة الخمر الأسود.
 شفاهك تعلم لساني الغناء؛
 وفي جسدك أرى المروج تتموج لنسيم الشرق.
 ابتسامة تغرك تضيء جمال وجهك.
 أيتها الفتاة العارية، صاحبة البشرة الناعمة اللامعة،
 إنني أمدح جمالك الزائل لأجعله خالدًا عبر الزمن،
 قبل أن يحوله القدر القاسي إلى رماد،
 لينعش به جذور الحياة من جديد.

(1) العنوان: chants d'ombre

المؤلف: Léopold Senghor

★★ صلاة إلى الأقتعة⁽¹⁾

أيتها الأقتعة السوداء، والأقتعة الحمراء،
والأقتعة البيضاء - السوداء!
أقتعة الزوايا الأربعة التي تهب منها الروح العليا،
أحييك في صمت وهدوء،
أحي الجد الذي كان يحمل رأس الأسد،
إنك منبع نسيم الخلود، لكي أستنشق نسيم الجدود.
اسمعيني أيتها الأقتعة! هي ذي إفريقيا
الإمبراطوريات تموت، موت أميرة حزينة.
وها هي أوروبا التي ترتبط بها من السرة
.....

يقولون لنا: أنتم رجال القطن والبن والزيت،
أنتم رجال الموت،
كلا! نحن رجال الرقصات الشعبية المنغمة،
رقصات من يستمدون قوتهم بنغمات أرجلهم
فوق الأرض الصلبة.

(1) العنوان: Masques!

المؤلف: Léopold Senghor

★★ الغائبة⁽¹⁾

أنشدن أيتها الكواعب، أعلن عن قدوم الربيع!
لم ينزل المطر منذ ستة أشهر،
لم ينبت برعم، لم نسمع كلمة طيبة،
بل رياح وغبار،
رياح الشرق ... جفت حلوقنا،
صهاريج المياه فارغة،
لكننا نسمع ضجة في أرجلنا، إنها انبعاث
نسغ الحياة الذي ينعش البراعم.
...
أيتها الكواعب! فلتملأ أغاني الحياة حناجركن.

(1) العنوان: L'Absente

المؤلف: Léopold Senghor



نبذة عن المؤلف

ولد الأزرق بن علو في الجزائر،
وحصل على:

- ليسانس في العلوم الاجتماعية من جامعة بلغراد (1961).
- ماجستير في العلاقات الدولية من الجامعة الأمريكية بواشنطن (1966).
- عضو البعثة الدبلوماسية الجزائرية في واشنطن (1964 - 1971).
- مراسل جريدة الشعب الجزائرية في واشنطن (1972 - 1975).
- موظف بمنظمة الأغذية والزراعة للأمم المتحدة في روما منذ (1979).
- من مؤلفاته :
- ◆ الشعر والحياة.
- ◆ حصاد الأيام .
- ◆ الرحلة .
- ◆ الإنسان والقلق .
- ◆ كلمات تنمش الحياة.



الأزرق بن علو

نصائح من إزديت الصالحى

كلمات تنمش الحياة

الإنسان والقلق

الشعر والحياة

حصاد الأيام
إدب.. فلسفة.. تاريخ

الرحلة

[إصدار تاريخ جديد حكايات]

دار قباء الحديثة

للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة



■ عمارات العبور شارع صلاح سالم - الدور الثالث - مدينة نصر - القاهرة

■ تليفاكس: ٢٣٦٢١٣٦٥ / ٠٢ - محمول: ٠١٢٣١٧١٧٤٤ - ٠١٢٣١٧١٧٢٢ - ٠١٢٣١٤٠٣١٥